أثر جانبي

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: أثر جانبي

اسم المؤلف: أحمد فهيم القاضي

التدقيق اللغوي: خلود أحمد

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٤١٠٢ / ٢٠٢٣

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٤٢٨-٩-٦

مسار للنشر و التوزيع

Massar publishing & Distribution

ش- حسن خطاب – قسم يوسف بيك – الزقازيق – الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

أثر جانبي

أحمد فهيم القاضي

مسار
للنشر و التوزيع
Massar publishing & Distribution

إهداء

"إلى أبي وأمي..
إهداء إلى زوجتي العزيزة..
وإلى ابنتي (سلمى)..
إلى أختَيَّ وأبنائهما..
وإلى كل عائلتي..
وإلى كل أصدقاء عمري..
وإهداء إلى روح الكاتب الاستثنائي العظيم د. أحمد خالد توفيق رحمه الله.."

القسم الأول: شيءٌ ما..

" أحيانًا أستطيع سماع صوت إجهاد عظامي تحت وطأة كل الحيوات التي لم أعشها"

– چوناثان سافران فوير

يناير ٢٠٢٦

لا يعلم ما الذي أتى به إلى هنا في هذا الوقت من العام تحديدًا؟

وكيف اتخذ هذا القرار المتهور؟

ما الذي دفعه إلى السفر وحده تمامًا إلى الساحل الشمالي، في عيد ميلاده الثاني والأربعين، ليقيم بضعة أيام بالشاليه الذي يمتلكه في إحدى القرى السياحية الفاخرة هناك؟

كيف كان يفكر؟

فالبرد قارص، وأوصاله ترتعد باستمرار رغم طبقات الملابس التي يرتديها، ثم إنه وحيد تمامًا في القرية الخالية تمامًا، اللهم إلا من أمن البوابة.. ففي موسم الشتاء تكون معظم قرى الساحل الشمالي خاوية على عروشها بطبيعة الحال..

وعندما يأتي الليل، تكون القرية موحشة بشدة، يحاول السير فيها ليجلس مواجهًا البحر ليلًا، متحديًا له ولظلمته الشديدة.. ولكنه يكون خائفًا بشدة، يشعر أن هناك من يراقبه، هل هناك أشباح؟ جنٌّ إذًا؟ أرواح أناس كانوا هنا سابقًا؟! يسمع حفيف الأشجار وصوت الأمواج وتناثر الرمال فيشعر أن هناك مؤامرة ما تُحاك حوله.. هراء بالطبع، هو يعلم ذلك ويدركه جيدًا، ولكن الخوف شعور يهزم المنطق عادةً.. ولا يخضع له

أحيانًا يتغلب على خوفه ويصل إلى البحر بالفعل، ينزل ليسبح قليلًا رغم

شدة برودة المياه، يرتعش ويكاد يتجمد، يخرج ليجلس قليلًا، يخاطب نفسه، يتحدث مع الرمال، يلتقط خشبة رفيعة ليكتب بها بعض الهراء على الرمال.. يفعل أشياء لا معنى لها، ربما لهذا هرب، نعم، هذا هو السبب، لهذا تحديدًا أتى، لقد سأم الأشياء المرتبة، سأم كل ما هو مُخطط له، يريد أن يفعل أي شيء آخر..!

لقد صار متوترًا دائمًا، عصبيًا، ينسى كل شيء تقريبًا، مشتت الانتباه، لا يستطيع التركيز في أي شيء، كان يجب أن ينفصل تمامًا عن كل شيء. هرب ليكون حُرًا، وعندما يكون المرء حُرًا يصغر سنه ويخرج كل ما كان حبيسًا بداخله، كل ما كان يكبته طوال سنين عمره بسبب نمط حياته الرتيب يخرج في لحظات الحرية..

كان لا يعلم كيف لملم بعض أغراضه وملابسه بسرعة ووضعها في حقيبة ثم ألقى بالحقيبة في سيارته وأغلق هاتفه المحمول وانطلق مسرعًا إلى الساحل الشمالي.. حدث كل ذلك وكأنما كان مُخدرًا.. ولكنه الآن يعلم..

هو دائمًا مندفع هكذا، لا يفكر فيما يفعله، يفعله أولًا ثم يفكر بعد ذلك..

يريد العودة إلى الشاليه، ولكنه يشعر بالخوف، يشعر كأن هناك شبح سينهض من الرمال والأمواج والظلام ليلحق به ويلتهمه أو يقتله أو.. ماذا يفعل بالتحديد؟ ماذا تفعل الأشباح تحديدًا ولماذا نخشاها من الأساس؟ وما هي الأشباح؟ هو يؤمن أنه لا شيء مثل هذا موجود بالواقع! ولكنه يستسلم لمخاوفه الطفولية الساذجة ويركض مسرعًا إلى الشاليه ويغلق الباب خلفه بسرعة لكي لا يلحق به الشبح المزعوم..!

يلهث بشدة ويشعر بالنصر على شبحه. ها هو نصر صغير يحققه في حياته، يضحك ساخرًا من نفسه، ويدخل المطبخ ليُعد بعض الشطائر،

ويفتح الثلاجة ويلتقط المياه الغازية منها، ثم يجلس ليشاهد فيلم كرتون، وينتهي منه ليلعب بعض المباريات على جهاز البلاي ستيشن، ثم يغفل وهو يلعب، فيستيقظ من البرد فيدخل غرفته ويلتحف بالأغطية وينام..

ظل هكذا بضعة أيام..

ثم فجأة أيضًا قرر العودة..

عاد إلى القاهرة، بمنطقة التجمع الخامس التي يسكن بها بإحدى المجمعات السكنية الشهيرة، فتلقى اللوم والتوبيخ على ما فعله وعلى إغلاق هاتفه واختفائه المفاجئ، وعلى إثارته لقلق كل من حوله، وبحثهم عنه طويلًا في كل مكان ممكن، وعلى إفساده لمفاجآتهم التي ظلوا طويلًا يعدونها من أجل عيد ميلاده، فتجاهل كل ذلك، ودخل إلى غرفته لينام..

وتأمل في حياته..

حياته المملة بالفعل، الرتيبة، السخيفة، الحياة التي لا معنى لها، لماذا يحيا؟

هو يمتلك المال، لديه سلطة..ولكن دائمًا يشعر بأن هناك شيء ما ينقصه..

ينام، فيحلم بأنه يحيا في بيت صغير أمامه مساحة خضراء شاسعة، حياة بسيطة،لا يوجد بها هواتف محمولة ذكية ولا أجهزة كمبيوتر ولا تلفاز، لا أسواق كبرى يذهب للتسوق بها فيجد أنه اشترى عشرات الأشياء التي لا يعلم لماذا اشتراها، لا توحش استهلاكي، لا يوجد فيها ما يكدره، فقط بعض الشعور بالاشتياق لبعض الرفاهيات الذي يزول سريعًا عندما يتذكر كم الضغوط الذي كان يتعرض لها، والتوتر الذي كان يشعر به دائمًا..

يستيقظ، فينزعج، يريد أن يستمر في هذا الحلم، يريد أن يمسك به فلا يفلته، لا تتركني أيها الحلم من فضلك! أين ذهبت؟

وتكرر معه هذا الحلم كثيرًا.. حتى سأل نفسه، لماذا لا يسعى لتحقيقه؟

ولكنه يعلم لماذا..

لأنه اعتاد نمط حياته حتى الإدمان..

حتى وإن سأمه أحيانًا..

حتى وإن بغضه بعض الوقت..

حتى وإن أصابه بالضغط والتوتر وأرهق أعصابه..

ولكنه اندمج فيه تمامًا حتى صار جزءًا لا يتجزأ منه..

جزء لا يستطيع الفكاك منه قط!

***

أوراق، وأجهزة كمبيوتر، وطابعات، وهواتف ذكية، وأوراق أخرى، وملابس رسمية، واجتماعات مملة ومقابلات لا نهائية، وتملق ونفاق، ورشاوي ووشايات، ومقابلات عمل سخيفة تتكون من أسئلة أكثر سخافة، والبحث عن تطوير المسار المِهَني، وكيف وأين ترى نفسك بعد خمس سنوات، والشركات متعددة الجنسيات، وتطوير اللغة الإنجليزية والحديث بها في غير موضعها تمامًا، والكثير من عزيزي فُلان ومع تحياتي، والكثير من الرسميات الزائفة والوجوه المصطنعة، والالتزام شديد الدقة بالمواعيد حتى التقديس المبالغ فيه، والمحاسبة عليها عن طريق جهاز بصمة بائس، وشباب لا يدرون ما الذي يفعلونه في هذه الشركة ولا ما الذي يريدونه بالتحديد، ورؤساء عمل يقدسون العمل بشكل عجيب حتى كادوا يعبدونه، و الكثير من التقارير الفنية وتنسيق الملفات، وإشكالية

الخبرة وحديثي التخرج، وترقيات مؤجلة، والمرتب المناسب، والزواج والأقساط ودوامة أكل العيش، والأولاد وتربيتهم ومدارسهم والتعليم الروتيني أو المدارس الدولية، وهوس الشراء والتسوق والعلامات التجارية والاختيارات اللانهائية، والمطاعم وال(كافيهات) الغربية، والمراكز التجارية العملاقة المليئة بعلامات الملابس التجارية ودور السينما والمطاعم والسلالم والمتاهات السرمدية، والوجبات السريعة، والاستهلاك الأبدي.

متى ينتهي كل ذلك؟

متى نتخلص من هذه الدوامة القاتلة، الطاحنة ؟!

يسأل (أكمل فريد) ذو الاثنين وأربعين عامًا نفسه هذه الأسئلة دومًا، يتأمل هذه التأملات كثيرًا..

أين يذهب؟ أين المفر؟

يعلم أن ما هو فيه يحلم به الكثيرون.. ويعلم أنه عاش طوال عمره يحلم به.. ولكن، ماذا بعد؟

ماذا بعد الوصول ، ماذا بعد الطموح، ماذا بعد الجُموح؟

ما الذي من المفترض أن يفعله الآن، وهل هكذا وجد المعنى؟ أم هل لم يزل يتخبط حائرًا؟

هل خرج من التيه أم لم يزل يدور فيه أبدًا؟

أحيانًا يتحدث مع زوجته (هديل حسن) ذات الأربعين عامًا -والتي تعمل بمنصب المدير العام بالشركة التي يرأس مجلس إدارتها والمملوكة لوالدها- أحيانًا عن تساؤلاته، فتجيبه بأن ما يفكر به هراء، وأن هذه هي

الحياة، وهذا هو ما يجب فعله بالتحديد، ولا يوجد نمط حياة أفضل من هذا على الإطلاق، وأن يخرس ويعيش حياته ولا يؤرق نفسه بأفكار خرقاء لا طائل منها.

ينهي عمله في وقت متأخر، فيعود إلى منزله ليأكل أي شيء، ويشاهد فيلمًا أو مباراة أو مسلسلًا أو برنامجًا ترفيهيًا تافهًا أو أي هراء أجوف، ويمسك بهاتفه الذكي ليتصفح مواقع التواصل الاجتماعي بلا هدف، ثم ينعس فيغفل فينام، ثم يستيقظ ليذهب إلى العمل، وهكذا..

يا لها من حياة رائعة بحق! ابتسم يا رجل، أنت تحيا حياة يتمناها الكثيرون، ابتسم! فأنت تمتلك المال الذي لا تجد الوقت لتنفقه أو تستمتع به من الأساس، ولكنك تملكه، ابتسم يا رجل، هذه هي الحياة التي يجب أن تحياها بحق!

قدّس العمل، وقدّس المال، وقدّس نفسك وتمحور حولها، ولكن لا تقدّس الحياة نفسها!

إياك أن تتذمر أو تعترض، إياك أن تسعى أن تكون إنسانًا وتشعر بآدميتك وهذا الهراء، ماذا فعلوا من شعروا بآدميتهم؟! وبماذا نفعتهم؟! إياك أن تعترض! إياك أن تسخط! هيا، استمتع!

مرحبًا بك في أفضل نمط حياة توصلت له البشرية على الإطلاق!

***

"أنّى لمثلك أن يشتكي! يا لك من وغد!"

قالها (ياسر) صديق (أكمل)، وهو يضع الشوكة في قطعة اللحم (الاستيك)، ويقطع جزءًا صغيرًا بالسكين، ثم يضعه في فمه، ويكمل:

-لقد حصلتَ على جميع الرفاهيات لتتفرغ لرفاهية الشكوى! فلتخرس ولتستمتع بحياتك الحمقاء في صمت!

يرفع (أكمل) حاجبيه في دهشة مازحة ويقول:

=يا لك من حقود، ما هذا السواد!

-يا رجل، بلا خيبة، وهل تظن أنني أريد أن أحيا هذه الحياة، أنا فقط لا أتمنى غير حياة مريحة لا أحمل فيها همومًا كثيرة، وليست حياة شديدة الترف والرفاهية مثلك، فهو أمر مُنتقد بالنسبة إلي وليس موضع حقد من الأساس!

يضحك (أكمل) ويقول:

=هذا تحديدًا ما يطلقون عليه (قصر ذيل).

يضحك (ياسر) أيضًا، ويقول:

-ربما، ولكني بالفعل لا أتمنى غير الحياة المريحة الهادئة.

=أتعلم، أحيانًا كثيرة أتمنى ذلك بالفعل..

-ألم أقل لك أنّى لمثلك أن يشتكي؟

=صدقني، أتحدث بجدية هذه المرة.. لقد سأمت الكثير من جوانب هذه الحياة..

-ها أنت قد عدتَ لسابق عهدك.. لا تتوقف عن التفكير البائس.. اهدأ.. اخرس واستمتع بحياتك في صمت كما قلتُ لك!

يبتسم (أكمل) ويومئ برأسه أن (حسنًا)..

ويستمر في تناول الطعام..

ويفكر..

(ياسر) هذا آخر من تبقى من أصدقاء الزمن القديم..

الوحيد الذي احتفظ بصداقته.. باقي أصدقائه إما تخلص هو من صداقتهم وإما لم يحتملوه هُم..

فقد تغيرت طباعه بشدة..

أما (ياسر) فهو الوحيد الذي لم يتغير معه وظل على نفس سابق عهده معه.. لأنه ربما يعتبره أكثر من أخ..

وهذا أيضًا يُعتبر من آخر ما تبقى له من إنسانيته!

***

(ياسر طارق)

صديق (أكمل) المقرب، وآخر من تبقى له من أصدقائه..

كان شخصًا عاديًا، عاديًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.. في كل شيء..

شخص وسط، وسط في أكله وشربه وملبسه ومعيشته وعمله وأسرته وكل شيء..

وسط حتى في تعامله مع الناس..

لا هو يقترب أكثر من اللازم، ولا هو يبتعد كثيرًا..

لا هو يُغضب أحدًا، ولا يغضب من أحد.. إلا قليلًا..

لذلك كان شخصًا مُريحًا للغاية بالنسبة ل(أكمل)..

لأنه يجده حين يحتاجه، ولا يؤنبه أو يلومه عندما يبتعد..

لذلك فهو الوحيد الذي احتفظ بعلاقته معه..

كان يُعتبر من الطبقة المتوسطة العليا، لم يسع يومًا للتفرد أو التفوق أو الكمال، لم يسع أن يكون خارقًا، ولم يسع لأن يخرج المارد الذي بداخله كما يخبرنا مدربو التنمية البشرية..

لذلك فهو عاش طوال عمره مستريحًا للغاية، بالطبع تعرض لبعض الهموم التي كدرت صفوه كطبيعة لهذه الحياة ولكنه في المُجمل كان مستريحًا للغاية..

وهذا كان كل ما يريده من الدنيا..

لذلك كان يتعجب كثيرًا من تكالب الناس على المناصب وعلى الثراء الفاحش وصراعاتهم التي لا تنتهي حولها..

عرض عليه (أكمل) أكثر من مرة أن يعمل مديرًا لأحد الأقسام في شركة (مودرن لايف)، ولكنه رفض بشدة، متعللًا بأنه لا يريد أن يفقد صداقته ب(أكمل) ولا يريد أن يدخل بينهم أي شيء يتعلق بالعمل أو شيء آخر غير الصداقة النقية..

وذلك جعل (أكمل) يتمسك بصداقته أكثر..

وكل ذلك ما جعله يزداد تقديرًا له..

لأنه شخصية شديدة الندرة في هذا الزمن!

***

"أشعر بالملل"

قالتها (هديل) وهي تدخن سيجارة مُنَكَّهة ذات نوع مستورد بجانب

(أكمل) في إحدى المقاهي ذات النمط الغربي، والقريب من مقر شركتهم، في استراحة قصيرة أثناء فترة العمل، فقال لها في برود:

- ملل من أي شيء بالتحديد، ألستِ تُحبين هذه الحياة؟

نظرت له شذرًا، وأرجعت شعرها الأشقر الثائر إلى الخلف بيدها، وقالت:

=ليس من الحياة يا (أكمل)، ولا تصد في الماء العكر، كل ما في الأمر أنني أريد أن أفعل شيئًا جديدًا، أسافر مكَانًا مختلفًا، أي تجديد، تغيير جوّ كما يقولون.

أومأ (أكمل) برأسه، وهز كتفيه وقال:

-سافري يا (هديل)، ليس لدي مانع.

نظرت إليه في استنكار وقالت:

=لهذه الدرجة يا (أكمل) لم تعُد تحتمل وجودي؟ لم أقل أنني أريد السفر وحدي، ستسافر معي بالطبع!

نظر إليها (أكمل) في هدوء، نظرة طويلة، ثم قال في بساطة:

-حسنًا يا (هديل)، إلى أين تريدين الذهاب؟

فكرت (هديل) قليلًا ثم قالت:

=رُبما (إسبانيا).. (فرنسا)..أو (إيطاليا)!

هز (أكمل) كتفيه وقال وقد تحمس للفكرة بعض الشيء:

-ولم لا نذهب إلى الثلاثة؟ ثلاثة أو أربعة أيام مثلًا في كل بلد منهم؟

لمعت عينا (هديل) في شغف وقالت:

-نعم.. نعم، سيكون ذلك رائعًا!

ابتسم (أكمل) وقال:

-حسنًا يا (هديل)، سأرتب ذلك الأمر وأنهي بعض الأعمال، ثم نترك (تارا) و(ريان) عند والدتك أو تأتي هي للإقامة معهما في منزلنا، ونسافر.

أومأت (هديل) برأسها في شغف، وابتسم (أكمل)..واستغرق في التفكير..

لماذا يرهق نفسه بالتفكير؟ إنه يحيا حياة رائعة بالفعل..!

يميل رأسه مع لحن أغنية غربية شهيرة تنطلق من سماعات المكان..

فليستمتع بحياته كما هي ولا يجهد نفسه بكل هذا الهراء!

أما (هديل) فكانت تريد (أكمل) معها ليس فقط لرغبتها في وجوده بجوارها، ولكن لتضمن أن كل شيء تحت سيطرتها..

كل شيء بلا استثناء!

***

عقد (أكمل) و(هديل) اجتماعًا عاجلًا مع نائب رئيس مجلس الإدارة (ماجد حسين)، و مدير قسم التنفيذ (هشام توفيق)، ومديرة التعاقدات (غادة الليثي) ومع مديري الإدارات المختلفة ليخبراهم أنهما سيسافران في إجازة لمدة أسبوعين تقريبًا، وليتفقا معهم على جدول أعمال الفترة القادمة..

توجه (أكمل) إلى (هشام) بالسؤال قائلًا:

-ما الجديد في مشروع الساحل؟

عدّل (هشام) من رابطة عنقه وهو يقول:

=تم الانتهاء من الهياكل الخرسانية لجميع الشاليهات، وتشطيب حوالي الثلثين، وجار العمل في ال (لاندسكيب) وتم الانتهاء أيضًا من نصفه تقريبًا لإنهاء القرية فَي أسرِع وقت ممكن..

أومأ (أكمل) برأسه وقال:

-لا مجال للتأخير يا (هشام).. هناك من الملاك من يريد أن يقضي صيفه القادم في قرية (مودرن لايف).. ونحن الآن في شهر (أكتوبر).. أمامنا ستة أشهر كحد أقصى للانتهاء تمامًا من المشروع والتسليم النهائي للوحدات.

أومأ (هشام) برأسه وقال:

=حسنًا.. حسنًا.. لا تقلق يا مستر (أكمل)..

توجه (أكمل) إلى (غادة) وقال:

-وأنتِ يا (غادة).. ما التطورات؟

ابتسمت (غادة) في فخر وقالت:

=تم الانتهاء من جميع عقود شركات المقاولات للمشاريع الجديدة، والاستشاريين كذلك.

-ممتاز.. ممتاز يا (غادة).. على الوقت كعادتك.

ابتسمت (غادة) في تقدير، ونظرت له نظرة ذات مغزى، التقطتها (هديل) فورًا فنظرت لها شزرًا، فأشاحت (غادة) بوجهها وهي تتنحنح في حرج.

والتقط (أكمل) ذلك أيضًا ولكنه تجاهله وتجاوزه، وسأل باقي المديرين عن التطورات، ثم قال بعد الانتهاء:

-سوف نتابع أنا وهديل معكم سير الأعمال من حين لآخر من خلال الإنترنت، أرجو أن تسير كل الأمور على أكمل وجه... انتهى الاجتماع، يمكنكم العودة إلى مكاتبكم..

أومأ الجميع برأسهم، وتمنوا لهما إجازة سعيدة..

واستمر يوم العمل العادي..

وعند عودتهما إلى المنزل، جلس (أكمل) مع (هديل) وقال:

-هيا لننظر أين سنقيم هناك ونرى مواعيد الرحلات ونحجز التذاكر.

ابتسمت (هديل) في غرور وقالت:

=لقد قمت بكل ذلك بالفعل أثناء الاجتماع.

نظر إليها (أكمل) في ذهول وقال:

- قمتِ بماذا بالضبط؟!

=حجزتُ التذاكر، والفنادق التي سنقيم بها في كل مدينة.

عقد (أكمل) حاجبيه بشدة وسألها غاضبًا:

-بدون الرجوع إلي؟ بدون رأيي يا (هديل)؟!

=اهدأ يا (أكمل)، أنت تعلم أنني أحب أن أقوم بهذه الأشياء بنفسي.

-ولكني معكِ يا (هديل) ومعنى ذلك أن نتفق سويًا وليس أن تقرري كل شيء بنفسك.

=قررت أن أوفر الوقت، وقدّرتُ أنه لن يكون لديك مانع..

نظر إليها طويلًا، ثم زفر وقال:

-حسنًا يا (هديل) كما تشاءين.

كان يعلم في قرارة نفسه أنها ليست كما تقول، يعلم طبيعتها النرجسية وأنها تحب بالفعل أن تقرر كل شيء بنفسها دون الرجوع لأحد، وأنها تستأثر برأيها دومًا وتراه أفضل رأي توصلت له البشرية..

وكان يعلم أيضًا أنه إن اختلف معها ودخل في حوار وجدال وشجار فلن يصل إلى أي شيء، فهي ذكية للغاية وتعلم كيف تدير الحوار لصالحها جيدًا..

فآثر السلامة وراحة البال..

كانت (هديل) شخصية عنيدة للغاية، وكانت تؤمن بالفكر النسوي بل وتدير إحدى الجمعيات النسوية المدافعة عن حقوق المرأة، فهي لا تقبل إلا بدور الإدارة ولا تقبل أن تكون مجرد عضوة فقط)، وكانت ممن يُطلق عليهن (امرأة قوية مستقلة)..

وسافر (أكمل) بالفعل مع (هديل)..

بدأوا ب(روما) ثم (ميلانو) ثم (مدريد) ثم (باريس)..

وكانت رحلة رائعة، تسوقوا كثيرًا، وتنزهوا في أماكن جميلة كثيرة، واستمتعوا كثيرًا..

ولكنه مع ذلك كان يشعر بغصة طوال الرحلة..

لم يستطع أن يستمتع تمام الاستمتاع، وكان يشعر أن هناك شيء ما خطأ..

بل أشياء..

من المفترض أنه في أعلى رفاهية ممكنة، ولكنه غير مستريح تمامًا..

هل هذا منتهى آماله بالفعل؟ أم أن هناك ما هو من المفترض أن يفعله ولكنه لا يعلم ما هو بالتحديد؟

لا يدري.. وسيظل طوال عمره لا يدري!

***

الآن أكتب.

اسمي (أكمل فريد).

لا تصدقوا كل ما يقال عني.

لا تصدقوا هذا الشطحات التي تأتيني أحيانًا بالتمرد على نمط حياتي. فأنا متعايش جدًا معه ولكن هناك صوت سخيف فقط يأتيني أحيانًا بالتمرد والسخط على هذه الحياة ..

ولكنه ما يلبث أن يذهب سريعًا... هي خواطر سطحية عابرة تتصنع العمق، لا أكثر..

صوت من الماضي أو من حياتي السابقة ربما..

حياتي السابقة؟ وهل أذكر شيئًا عنها؟ لا أدري، ذكريات مشوشة، باهتة، أبذل جهدًا مضنيًا كي أستعيد مشهدًا واحدًا منها!

لن أخدعكم وأخدع نفسي بأنني أريد أن أتمرد على حياتي بحق، بل أنا متمسك بها بشدة، بشكل مخيف، وغير مستعد للتنازل عن أي لحظة منها، فلتذهب هذه الأفكار الحمقاء التي تأتيني إلى الجحيم!

لن أخدعكم أيضًا وأقول (المال ليس كل شيء) بل هو كل شيء بالفعل.. وكيف لا وهو يفتح لك كل الأبواب المغلقة ويحقق لك كل ما تتمناه في هذا الدنيا؟

أما بالنسبة للحلم الذي يأتيني؟ ربما أريد بعض العزلة فقط لأستريح، ولكني لن أنسلخ من جلدي ولن أترك هذه الحياة حتى الموت.

أمقت الفشل بشدة.

أما لماذا أكتب وكأني أتحدث إلى جماعة أو جمع غفير.. فربما لأنني اعتدتُ ذلكَ.. اعتَدتُ أن ينظر الناس إلي.. اعتدت أن أكون محط أنظار الجميع.

ربما اعتدتم أن تروني صارمًا ذا شخصية قوية ثابتة، ولكني في الحقيقة ضعيف..ضعيف للغاية، مهتز بشدة، حلتي الأنيقة التي أرتديها ما هي إلا غطاء زائف يعطيني هذا الشخصية القوية التي تظهر أمامكم. أنا لست بهذه الجدية التي ترونها، أنا إنسان تافه، شديد التفاهة، لست بهذا العمق الذي أبدو به، بل أنا شديد السطحية.

دائمًا أشعر بإجهاد نفسي عام. اكتئاب؟ لا، ليس لهذه الدرجة، أنا أمزح وأضحك ولكني أشعر بشعور مزمن أفضِّل أن أطلق عليه (إجهاد نفسي عام).

يحسدني الكثيرون، نعم، ليس لمثلي أن يشتكي من شيء، فأنا ثري، ربما ليس ثرائي فاحشًا، لستُ مليارديرًا مثلًا ولكني مستريح ماديًا جدًا، عندما أريد شيئًا أشتريه بسهولة. المال يصنع السعادة؟ نعم، لم أقل أنني تعيس بالمناسبة. ولكني مُجهد، مُنهك، مُستهلك، فقدتُ جزءًا لا بأس به من آدميتي وإنسانيتي.

قمت بأفعال غير أخلاقية حتى وصلت لمنصبي الحالي، وهو رئيس مجلس إدارة إحدى أكبر شركات الاستثمار والتطوير العقاري، ولكن هكذا الحياة، بررتُ لنفسي كثيرًا حينها، حين قمتُ بهذه الأفعال، بأنه لابد أن أفعل ذلك وبأنه ربما لا تكون هذه الأفعال غير أخلاقية إلى هذا الحد.

ولكنها غير أخلاقية بالفعل، غير أخلاقية على الإطلاق.

ولكن، ماذا بعد؟ هل أترك كل ما أنا فيه الآن لأرضي ضميري؟ ضمير؟ ما هو الضمير من الأساس؟ فلأتوقف عن خداع نفسي. لقد ألقيتُ بهذا الشيء المسمى بالضمير -إن كان موجودًا- عن كاهلي منذ زمن طويل.

فقدُت إحساسي بالزمن تمامًا، لا أشعر في أي يوم نحن، إلا يوم الجمعة أحيانًا حين تستيقظ حاستي الدينية النائمة في سباتٍ عميق لنصف ساعة أقرر فيها أن أذهب إلى صلاة الجمعة، لولا وجود سكرتارية ومنسقي وثائق لم أكن لأتذكر أي شيء في العمل.

حدثتكم وسأحدثكم كثيرًا عن نفسي، فأنا أحب نفسي جدًا في الحقيقة. لن أكذب ولن أقول أنني لستُ أنانيًا وأنني لا أحب نفسي. بل أنا أناني بحق، نرجسي، أحب نفسي بشكل مُخيف.

ضعيف؟ هل قلتُ ذلك بالفعل؟ انسوا ما قلته، لم أعن ذلك بحق، أنا لستُ ضعيفًا بل أتعرض للحظات ضعف فقط أحيانًا ولكني في المُجمل شديد القوة.

مُتقلب؟ ربما.. لا أجد مشكلة في ذلك!

وهل يوجد إنسان ليس متقلبًا؟

مضطرب؟! هل أبدو كذلك؟ بالطبع لا، أنا سوي العقل والنفس جدًا!

أنا (أكمل فريد) وأرجو أن تنتبهوا لي جيدًا.

أنا (أكمل فريد) أتحدث فلينصت الجميع!

***

(عُمر صالح)

مهندس مدني في الثامنة والعشرين من عمره، يعمل في شركة استثمار عقاري..

يشعر بالتمرد على كل شيء.. على الحياة وعلى نظام العمل وعلى أصحاب رأس المال وعلى حال الناس عمومًا..

ساخط على ما يُطلق عليه (الاستعباد الرأسمالي) وساخط على الناس القابلين لهذا الوضع..

دائمًا يصل إلى العمل متأخرًا وعندما يعايره زملاؤه بذلك يتحجج ويقول (وأين الإثارة إذًا إذا سارت الحياة والأمور كما يجب أن يكون؟ لابد من بعض الإثارة في الصباح كي أستطيع الاستمرار!)..وأحيانًا أيضًا يقول:

"لاأريد أن أكون أسيرًا لجهاز بصمة بائس..فليخصموا مني مايشاءون، ولكني لن أكون عبدًا للحضور والانصراف قط!"

ولكنه مع ذلك يحاول الاجتهاد في عمله..

يسكن في منطقة (مدينة نصر) بالقاهرة، مرتبط بفتاة تُدعى (نهى) تصغره بثلاثة أعوام وعلى وشك أن يتزوجها.. وهي أيضًا جارته في نفس الشارع الذي يسكن به، وتخرجت في كلية التجارة..

يقضي يومه في عمله ثم يعود متأخرًا ليأكل وينام قليلًا ثم يذهب ليجلس

مع أصدقائه بالمقهى، يدخن النارجيلة ويتحدثون في اللاشيء، وأحيانًا يأخذ معه كتابًا يقرأه، أو مذكرة صغيرة ليكتب بعض الخواطر السخيفة، ثم يعود بيته ليلًا لينام، ثم يستيقظ ليذهب إلى العمل، وهكذا..

يحب حضور الندوات الثقافية ومناقشات الكتب الفلسفية والفكرية بشدة..

صحيح أنه أحيانًا يشعر أنه لا يدرك بالتحديد ما الفائدة الحقيقية من ذلك، ماذا سيعود عليه من هذه الندوات وهذه الكتب، ولكنه يسنمر في هذا على كل حال ولا يستطيع الاستغناء عنه..

حريص دائمًا على عدم تفويت مثل هذه الأحداث..

لا يرتدي العلامات التجارية أبدًا أو الملابس ذات الرسومات أو الكتابات.. يرفض ذلك ويقول أنه لا يحب استعباد المادة والهوس بالعلامات التجارية، يرتدي فقط القمصان و(التيشيرتات) التي لا توجد كتابة عليها أو علامة تجارية.. يقول دومًا أنه ليس لوحة إعلانية متنقلة.

يحب القراءة وينغمس في كتب علم النفس والفلسفة والمنطق..

دائمًا ما يتحدث مع أصدقائه عن مفهوم (السعادة) ومفهوم (النجاح)، ويشغل هذا الأمر تفكيره كثيرًا..

"وهل أنت سعيد؟"

"أنا؟ في الحقيقة أنا لست سعيدًا، ولست تعيسًا، أناكائن نصف حي، لم أعد أشعر بشيء..بلادة تامة، فقط بلادة تامة"

هذه إجابة جاهزة دائمًا يروق له أن يقولها عنده عندما يُسأل هذا السؤال..

يسأله أصدقاؤه.. لم تؤرق نفسك بالأسئلة؟

يجيب:

"أسئلة كثيرة جدًا تؤرقني.. سؤال الحق.. سؤال المُطلق..سؤال الأخلاق.. سؤال العدل..سؤال الحياة.."

فيقولون له:

-"كُل عَيش يا فيلسوف عصرك!"

ولكنه لا يريد ذلك..لا يريد أن يكون كل هدفه في الحياة هو (أكل العَيش).. يتمنى أن يحيا حياة ذات معنى!

"أنت تبحث عن معنى في عالم بلا معنى!"

هكذا يقول له أصدقاؤه أيضًا.

ربما يكون كذلك، ولكنه لا يستطيع التوقف عن التفكير والتأمل، يحاول التعايش والسير مع الركب، والانغماس في التفاهة المقدسة عند الناس، والخواء الفكري لديهم، والفراغ واللا شيء الذي يحيون فيه، حاول بالفعل محاولات صادقة، ولكن هيهات، لم يستطع ذلك، ولذلك هو دائماً مبتئس، يسأل عن المعنى في كل شيء يفعله..

"قراءاتك في الفلسفة وعلم النفس ستصيبك بالجنون يومًا ما!"

هكذا تقول له خطيبته (نهى).

"أتمنى ذلك، الجنون أفضل كثيرًا من الوعي في هذا العالم البائس"

هكذا يرد (عمر).

فتقلب كفًا بكف وتتحسر على نصيبها مازحةً.

هكذا تسير حياة (عمر)، وهكذا يتخبط حائرًا فيما هو مفترض أن يفعله..

لديه اليقين فيما يؤمن به، ولكنه حائر فيما هو مفترض أن يفعله بالتحديد، وفي كيفية تطبيق ما يؤمن به..

إنه لا يحيا حالة (اللا يقين)، ولكه يحيا حالة (اللا حيلة)..!

هذا هو (عُمر صالح)..

وعندما كان صغيرًا- كان (عُمر) ليس كأقرانه من الصغار، كان دائمًا يأخذ جانبًا ليقرأ أي شيء، كتاب، رواية، قصص مصورة، كان مدمنًا للقراءة..

كان أيضًا متفوقًا في دراسته دائمًا..

كان انطوائيًا بعض الشيء، يحب العزلة ولا يحب الاختلاط بالناس كثيرًا..

وكان يجد صعوبة شديدة في الحديث مع الناس..

وفي فترة الثانوية العامة كان يعاني من شدة اختلافه عن أقرانه..

بدأ في التغير شيئًا فشيئًا في فترة الجامعة، وتطورت شخصيته كثيرًا..

كانت القراءة لها النصيب الأكبر من تكوينه لوجهة نظره عن الدنيا والحياة ونظرته إلى الأمور..

وكان يتعرض للسخرية كثيرًا، ولقلة تفاعله مع الناس وتجنبه الدائم للتجمعات الكبيرة كان ينال هذه السخرية بشكل مستمر..

ورغم ذلك احتفظ بثباته وسلامه النفسي واتزانه ولم تؤثر كل هذه السخرية على نفسيته..

كان دومًا يرى أن من يسخرون منه حفنة من السفهاء الذين لا يفقهون شيئًا فلم تؤثر سخريتهم عليه..

ورغم قلة اختلاطه بالناس، إلا أن بعضهم كانوا يرجعون إليه في الكثير من الأمور يستشيرونه لحكمته ولرجاحة عقله مقارنةً بنظرائه..

فقد كان متزنًا، ذا شخصية رصينة وهادئة، ومُريحًا..

تخرج في كلية الهندسة مُحملًا بأفكار كثيرة عن الحياة، مُكونًا مبادئ وقواعد كثيرة سار عليها طويلًا..

عمل في البداية في شركة مقاولات صغيرة، وأصابته الصدمة في البداية من بعض الناس ذوي النفوس الدنيئة، المتسلقين الوصوليين المنافقين، والذين لا يتورعون عن فعل أي شيء من أجل المال والنفوذ..

ورغم أنها شركة صغيرة ولكنه قابل كل ذلك، وسأل نفسه ماذا لو كانت شركة كبيرة!

ترك هذه الشركة لأنه لم يتحمل، وبحث عن عمل آخر..

انتقل من شركة إلى أخرى حتى وصل إلى شركة استثمار عقاري كبرى..

واستقر بها..

لم يَسلم أيضًا من النفوس الدنيئة ولكنه تعايش وتعامل لاكتشافه أن لا مكان يخلو من المنغصات، وقد بدأ في تفهم كيف تسير الأمور، ووجد أنه لو ترك كل مكان لضيقه مما يحدث فيه لما استقام له أمر ولظل في بيته ولن يجد

مالًا يأكل به!

فليتعايش إذًا، وليحافظ هو على مبادئه وليحدث ما يحدث!

فقط أكثر شيء أرّقه هو كيف يتعايش هؤلاء بكل هذه الأريحية مع ما هم فيه من خسّة؟!

كيف ينامون وكيف ينظرون إلى أنفسهم في المرآة؟

ولكنه أدرك أن هذه هي الحياة، وهؤلاء هم البشر..

وهكذا شعر أن نضوجه قد اكتمل تمامًا!

***

اسمي هو (عُمَر صالح)..

في الحقيقة لا يعني لي اسمي الكثير غير تعريفي فقط، على عكس الكثيرين الذين يعتقدون بأن أساميهم يجب أن تكون علامة مُخلدة في تاريخ البشرية وأنها عندما تُذكر يجب أن ينتبه الجميع وينصتوا..

لا، اسمي هو (عُمَر صالح) وحسب، مُجرد تعريف بي..

عندي مشكلة كبيرة في حياتي تؤرقني، وهي أنني أكره الزيف الشديد الذي آلت إليه البشرية في جل أمرها..

كل شيء صار زائفًا، اللمعان والبريق الذي تراه على الأشياء ما هو إلا خدعة تخفي حقيقتها..

الناس، صار معظمهم يرتدي أقنعة فوق أقنعة، حتى لم يعودوا يدركوا ماهية ذواتهم الحقيقية..

وأيضًا مشكلة التيه..

التيه الذي سقط فيه الجميع إلا قليلًا- التيه الذي جعلهم لا يدركون بالتحديد لماذا يحيون وما الذي من المفترض أن يفعلوه في حياتهم..

التيه الذي جعلهم يشبعون نقصهم ويسدون ثقوب أرواحهم بِالوَهْم، التيه الذي جعلهم يحيون في العدم، في فراغ عقلي وقلبي وروحي ووقتيَ، فصاروا أجسادًا خاوية بلا روح إنسانية حقيقية..

التيه الذي جعلهم يحيون فقط ليأكلوا ويشربوا ويقضوا شهواتهم ويشبعوا رغباتهم ويبحثوا عن رفاهياتهم.. التيه الذي جعلهم لا يلتفتون لأي شيء آخر..

رباني أبي على قيم الحق، ببساطة شديدة، بدون تعقيد، بدون فلسفة، وبكل هدوء..

كان أبي شريفًا، بمعنى الكلمة، نظيفًا لا يقبل قرشًا حرامًا على نفسه وأهله، وكان من هؤلاء المتعايشين بشدة مع كونهم غير متميزين في شيء محدد، مع كونهم عاديون، لا يسعى للتميز ولا للشهرة ولا للثراء الفاحش، بل يسعى فقط ليحيا حياة هادئة، ويكون مستريحًا ماديًا فقط بالكسب الحلال دون جعل المال غاية في حد ذاته يجري وراءها بلا توقف، وكانت أمي ربة منزل بحق، لا يتفلت من مصاريف البيت منها شيء لا تعلمه إلا النذر اليسير، ولا يحدث شيء في البيت دون علمها إلا قليلًا... وكانت أمًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ..

أما أخي (علي) الذي يصغرني بسنوات ثلاث، وتخرج في كلية الإعلام، فلم يكن هادئًا مثلي، وكان يروق له السخرية مني دومًا..

أحب دومًا تذكر الأيام الخوالي معه.. عندما كنا صغارًا..

عندما كنا صغارًا كنا لا نكاد نخشى شيئًا، فالخوف يتولد من الوعي، وكلما زاد وعينا زاد خوفنا..

وقتها كنا نتعجب من والدينا كثيرًا في تصرفاتهم، لم يفعلان ذلك، لم يخافان؟ هل في هذه الدنيا ما يستحق الخوف الحقيقي؟

كنا - ولا زلنا - لا نكاد ندرك شيئًا!

كنت مختلفًا كثيرًا عن أقراني، فبينما هم يبحثون دائمًا عما يلهون به أو عن أي لعبة أو لعبة فيديو، وبينما أخي لا يتوقف عن اللعب والعبث بأي شيء، كنت أنا دائمًا ممسكًا بكتاب، أي كتاب، رواية، قصة مصورة، أي شيء، المهم أن أقرأ، وكنت أقرأ بنهم شديد..

هذا أنا..

(عمر صالح الجَمّال)..

***

كان ل(عمر) روتين يومي ثابت..

يستيقظ من نومه ثقيلًا، يقوم بصعوبة من على سريره، لا يريد أن يقوم ولكنه العمل وكسب العيش، هو مضطر لذلك فهي ضرورة وصيرورة الحياة الكبرى التي لا غنى عنها للبشرية على مر التاريخ..

يجلس على السرير محاولًا استيعاب من هو وماذا يفعل ولماذا يحيا ولماذا استيقظ وما إلى ذلك..

يقوم، يغسل وجهه، ينظر إلى وجهه في المرآة ليتعرف على ذاته اليومية..

يرتدي ملابسه التي يحرص دائمًا ألا تحمل أية كتابات أو رسومات فهو ليس لوحة إعلانية متنقلة ولا يحتاج تعريفًا خارجيًا لذاته خارج نطاق روحه ونفسه..

يتناول إفطارًا سريعًا تعده له أمه، ثم يشرب القهوة التي يحبها كثيرًا، ثم يودع أمه ويخرج..

وقبل أن يستقل سيارته الصغيرة للذهاب إلى العمل، يحرص على أن يمر على كشك الجرائد القريب منه، ويقف ليتأمل في الجرائد والمجلات وجديد الكتب،ـ ربما يشتري أحدها وربما لا، هو فقط يعشق كل ما هو مكتوب..

يعطله ذلك عن عمله في أحيان كثيرة، ولكن لا يهم، هو روتين يومي مقدس..

روتين نعم، ولكنه محبوب ومرغوب لا يستطيع ولا يقبل الاستغناء عنه مهما حدث.. فهو يشعره بالحياة، يشعره بذاته بشدة، ذاته التي يجدها في القراءة وليس غيرها..

يشعره أنه لم يزل إنسانًا!

يستقل السيارة ويذهب إلى عمله متأخرًا.. لا بأس.. فهو يؤدي عمله كما يجب على أية حال..

هكذا هي تركيبة (عمر) المُعقدة، هو راضٍ تمامًا عن حياته هو، ولكنه غير راض عن الحياة عمومًا..

على الإطلاق!

***

أنا (أكمل فريد) أحدثكم ثانية.

ربما يتمنى الكثير منكم، إن لم يكن كلكم أن يكون مكاني، ولكني أقول لكم: ليس هذا لأي شخص. لا يستطيع أحد بسهولة أن يكون مكاني. وأقول أيضًا: لا تتمنى شيئًا أنت لا تدرك أبعاده جيدًا! لا تدرك عواقبه، لا تدرك ما ستخسره لكي تصل إليه، لا تدرك العقبات التي ستواجهها!

أنا أثرثر كثيرًا وأتحدث كثيرًا عن نفسي؟ أمر طبيعي، بالتأكيد لن أصل إلى مكاني هذا ثم أظل صامتًا لا أتحدث عن نفسي!

لم أبذل كل هذا المجهود لأسكت ولا أتحدث عنه!

أنا أُضَخِّم مما فعلته أكثر من اللازم؟! ربما، ولكن هذه حياتي أنا، وكل ما أفعله كبير بالنسبة إلي! أنا شخص نرجسي؟ لا يهم! ورأيكم في شخصي لن يُحدثَ فارقًا!

لا أخفيكم سرًا.. أتمنى أن أعيش حتى يصير عمري تسعين عامًا أو مائة..

أتمنى أن آخذ حقي من الدنيا حتى آخر قطرة!

أنا (أكمل فريد) أتحدث فاصمتوا وانصتوا فقط..!

***

كان العمل يسير في المبنى الإداري لمجموعة شركات (مودِرن لايف) للاستثمار العقاري بالشكل الطبيعي عندما سمع الموظفون جلبة بالأسفل فجأة، يأتي صوتها من الأمن..

وفجأة صرخ معظم الموظفين في رعب عندما سمعوا إطلاق رصاص، وفجأة وجدوا ملثمين مسلحين ينتشرون في الدور وفي المكاتب، فاختبأ

معظمهم في رعب، أما (عمر) فقد وقف عاقدًا حاجبيه فقط، ولم يهتز، فهدد المسلحون الموظفين وثبتوهم حتى يسيطروا على قسم المالية ويحصلوا على الأموال من الخزائن..

وعاش الموظفون لحظات مرعبة وهم ثابتون على هذه الحال لمدة عشر دقائق تقريبًا، وهم يتساءلون أي عصابة خرقاء تلك التي قررت سرقة شركة استثمار عقاري وليس بنكًا؟!

ثم فجأة، ظهر (أكمل فريد)..

لم يكونوا يعلمون أنه عاد من الإجازة، ولم يدروا كيف ظهر فجأة دون أن يروه..

ولكنهم تفاجأوا.. فقد أطلق (أكمل) ضحكة عالية، ثم قام بالتصفيق ببطء، وألقى الملثمون فجأة أسلحتهم، وقال (أكمل):

-جيد.. جيد جدًا، قمتم بعمل رائع، والآن يمكنكم الانصراف.

شعر الموظفون بالذهول، وعقد (عمر) حاجبيه بشدة، وقال (أكمل):

-للأسف، لقد فشل معظمكم في الاختبار، اختبار الثبات الانفعالي وأشياء أخرى.

لم يستوعب الموظفون أو يصدقوا، فلم يصل خيالهم لأن يفعل (أكمل) ذلك، وقال أحدهم هامسًا لزميله:

-ابن المخبولة!!

ثم نظر (أكمل) إلى (عمر) وأشار إليه قائلًا:

-أنت.. أريدك في مكتبي.

توتر (عمر) قليلًا ولم يدر لم يريده هذا المخبول، وذهب خلفه..

وكانت أول مرة يدخل فيها (عمر) مكتب رئيس مجلس الإدارة..

وكان شديد الفخامة والترف، مليء بالرفاهيات، ومط (عمر) شفتيه وشعر بالسخط لا بالانبهار..

السخط على هذا الترف المُبالغ فيه..

"ما اسمك؟"

سأله (أكمل)، فأجاب:

=عمر.. عمر صالح.

وقام (أكمل) وذهب إلى ماكينة إعداد القهوة بمكتبه، وسأل (عمر):

-قهوة؟

=لا شكرًا.

-قل لي يا (عمر)، لماذا كان الجميع خائفين عدا أنت تقريبًا؟

=لأنه لن يحدث شيئًا خارج القدر. لن يصيبني سوء لم يقدره الله لي.

تعجب (أكمل) وقال:

-ولكن الخوف شعور غريزي، ليس معناه عدم الإيمان بالقدر!

أومأ (عمر) برأسه وقال:

=نعم صحيح، ولكني لم أعتد الخوف بشدة، لم أعتد الرعب، دائمًا أؤمن بأنه لن يحدث شيء إلا بإذن الله.

مط (أكمل) شفتيه وقال:

-جميل، جميل ألا تهتز وتخاف بسهولة.

=شكرًا.

-كم عمرك يا (عمر).

=أنا في الثامنة والعشرين.

مط (أكمل) شفتيه في تعجب، ونظر إلى الشاب الذي يصغره بأربعة عشر عامًا في إعجاب، ثم قال وقد انتهى من إعداد قهوته وعاد إلى مكتبه وجلس:

-أريد أن أستمع إليك أكثر من ذلك.. كيف تعيش؟ ما مبادئك؟ ما أفكارك؟

واعتدل ليستمع إلى (عمر)..

انتهز (عمر) الفرصة ليعرض أفكاره مباشرةً على أحد الرموز التي يرفضها بشدة..

=الحقيقة يا سيدي أنني أعيش في حيرة كبيرة.. أؤمن ببعض المبادئ ولكنني أجد صعوبة شديدة في تطبيقها على أرض الواقع.. أسئلة كثيرة جدًا تؤرقني.. سؤال الحق.. سؤال المطلق..سؤال الأخلاق.. سؤال العدل.. سؤال الحياة..لا أستطيع التوقف عن التفكير والتأمل، أحاول التعايش والسير مع الركب، والانغماس في التفاهة المقدسة عند الناس، والخواء الفكري لديهم، والفراغ واللا شيء الذي يحيون فيه، حاولت بالفعل محاولات صادقة، ولكن هيهات، لم أستطع ذلك، ولذلك أنا دائمًا مبتئس، أسأل عن المعنى في كل شيء أفعله ولا أجد أجوبة..لا أتمنى أن يأخذني تيار الحياة، تيار

الرأسمالية والاستهلاك، لا أتمنى أن ينتهي بي الأمر مجرد موظفٍ، يبحث عن ملذاته وملذات زوجته وأولاده ويجمع المال فقط من أجل ذلك، مستهلكًا، أو جامعًا للتحف والديكورات واللوحات الفنية، أو لاهثًا وراء الموضة، باحثًا عن كل هوسٍ جديد أوشغف مُستَحدث، سائرًا خلفه كالعميان!

أومأ (أكمل) برأسه، ومط شفتيه، وقال ل(عمر):

-ولكن التيار جارف يا (عمر)، الرياح شرسة، ويجب أن تحدث نفسك باستمرار، تغير أفكارك ونمط حياتك كي تسير مع الركب ولا تُصاب باكتئاب!

=بل يجب أن أتمسك بشدة بأفكاري ومبادئي حتى أنجو من الغرق! إن مبادئي بالنسبة إلي تُمثل سفينة نوح!

-وما نهاية ذلك؟

=لكل شيء نهاية، وستنتهي حياتي عاجلًا أم آجلًا، فلتنتهي وأنا متمسك ومؤمن بمبادئي!

-وماهي المبادئ في عالم بلا مبادئ؟

- العالم ليس بلا مبادئ يا سيدي.. هذا ليس له معنى، لأن العالم ليس كيانًا ملموسًا له إرادة مستقلة، الناس هم من صاروا بلا مبادئ فأظهروا العالم كذلك.

-ماتقوله يقع في صدام مباشر مع قوانين العالم البرجوازي الرأسمالي، والذي أنت في الطريق لأن تكون جزءًا منه يومًا ما لا محالة، ولامفر من ذلك.

=لن أكون جزءًا منه

-من باب الإحباط أم من باب عدم الرغبة؟

يهز(عمر) رأسه نافيًا.. يقول:

=من باب استحالة الرغبة!

-ولماذا؟ الكل يتمنى أن يكون جزءًا منه!

=الحقيقة أنني أزدري البرجوازية، أبغض الرأسمالية بشراسة، أبغض تقديس المال والعمل بهذا الشكل المبالغ فيه.

-ولماذا كل ذلك؟

=لماذا؟ انظر ما فعلته الرأسمالية بالناس! انظر حياة العبودية التي يعيشونها! انظر الهوس الشديد بالاستهلاك والترفيه! انظر إلى الفقراء المُعدمين الذين لا يجدون قوت يومهم ويضطر بعضهم للانتحار أو قتل ذويهم! إن رسالتي في الحياة هي محاربة الرأسمالية!

-ولكن الرأسمالية هي النظام السائد وهي النظام الوحيد الذي يناسب متطلبات العصر الحديث، ولا بديل لها.

=وتلك هي المشكلة يا سيدي. مشكلة الرأسمالية الحقيقية، أنها فرضت نفسها فرضًا، تغلغلت في كل شيء بلا استثناء حتى أمست بلا بديل واضح.

-هل أنت اشتراكي يا عمر؟

=لست اشتراكيًا، ولستُ يساريًا ولا يمينيًا.

-تسعى إلى تكوين اتجاه سياسي اقتصادي جديد إذًا.. مثل كارل ماركس.. فمثلما هنالك الماركسية ستقوم بإنشاء ال(عمرية).

يقولها بلمحة ساخرة.

يقول (عمر):

=لا تسخر يا سيدي من فضلك. ولست كذلك. الأمر ليس لهذه الدرجة. أسعى لأكون جزءًا من التغيير فقط.

-لا أسخر، إني أمزح فقط.. أتعلم يا(عمر)؟ أنت تشبه نسختي الماضية، ولكن الحياة غيرتني كثيرًا.

=أحترم ذلك ياسيدي، ولكن عذرًا، أنت لست نسختي المستقبلية، مع كامل احترامي لك.

يبتسم (أكمل)...ابتسامة حقيقية لم يبتسمها منذ زمن، وسط كل الابتسامات الزائفة والضحكات المصطنعة نسي كيف يضحك ويبتسم بصدق..

-وأنا أيضًا أحترم ذلك يا(عمر)، ولكن صدقني، الكلام سهل.

يصمت (عمر)..ويقول (أكمل):

-لايعجبك كلامي..أعلم ذلك

=لا، لا ياسيدي، أحترم كلامك وأتقبل الاختلاف وأسعى دائمًا للنقاش مع من هم مختلفون في الرأي معي، ولكني فقط لاأجد ما أقوله، ربما أتغير ولكن ما أعلمه جيدًا أني سأسعى بكل قوتي لكي لا أتغير.

ابتسم (أكمل) في سخرية مريرة ثم قال:

-كان الله في عونك

=أشكرك

-كلامك فلسفي يا (عمر)، من الواضح أنك قارئ جيد.. أليس كذلك؟

=بلى.

-وماذا تقرأ إذن؟ ولمن؟

=أحب القراءة في الفلسفة، لميشيل فوكو وجاك دريدا وسارتر وهيدجر، وفي علم النفس لفرويد وآدلر وآخرين، وأحب قراءة الأدب المترجم، أقرأ لميلان كونديرا ودستويفسكي وتولستوي وتشيخوف وتشارلز ديكنز وأومبرتو إيكو وماركيز، ومجالات أخرى أيضًا

يمط أكمل شفتيه متعجبًا ويومئ برأسه..

- ما كل هذا؟! جميل..جميل يا عمر..استمر..لقد كنت قارئًا نهمًا يومًا ما ولكني لم أقرأ منذ زمن، أرجو أن تستمر على ذلك.

يومئ (عمر) برأسه وهو يحدث نفسه خائفًا..

هل يتحول إلى نسخة من هذا ال(أكمل فريد) بالفعل يومًا ما..هو ثري نعم، مترف نعم، ولكن أين ذهبت آدميته؟ لقد التهمته الرأسمالية التهامًا، ومحته محوًا.. إنه يتحدث كآلة تستدعي أشياء من الذاكرة المخزنة.. أين ذهبت نسخته البشرية؟!

أما (أكمل)، فيتذكر نفسه منذ حوالي عشرين عامًا عندما كان صغيرًا قرب سن (عمر)،كان يظل في العمل حتى وقت متأخر ويعود،كان يتمنى الموت، لو كانت هذه هي الحياة فالموت أفضل إذًا، هكذا كان يفكر وهكذا جرفته الحياة حتى نسي كل ذلك.

يقول (أكمل):

-مشكلتك الحقيقية يا (عمر) هي أنك تبحث عن المعنى في عالم بلا معنى.

=هكذايقول لي أصدقائي أيضًا!

يقولها عمر مبتسمًا..

-فلتصغ إليهم إذًا!

يقولها أكمل ضاحكًا، ثم يكمل:

-ربما تتمنى أن تتخلص من عبودية الوظيفة وتمتلك مشروعك الخاص الذي سوف تُطبق فيه مبادءك وأفكارك يومًا ما.. أليس كذلك؟

يومئ عمر برأسه.

-هذا هراء يا (عمر)..ليس هكذا تُدار الأمور

=ولكن هناك الكثيرون..

-نعم، نعم، هناك الكثيرون ممن لديهم مشاريعهم الخاصة وإلا لدى من نعمل؟ هذه الشركة لها مالك بالطبع، وكل شركة كذلك، وكل مشروع كذلك.. ولكن ما النسبة؟ ما نسبة من لديهم مشاريعهم الخاصة إلى من هم موظفون في هذه المشاريع؟

يصمت (عمر) قليلًا، ثم يقول:

=اسمع بعض رواد الأعمال وهم يتحدثون على تيدكس مثلًا وسوف تعلم أن الأمر ليس مُستحيلًا.

-لم أقل أنه مستحيل ولكنه نادر، هؤلاءيعرضون تجاربهم الشخصية على أنها دستور يصلح لكل زمان ومكان!

=هذا لا يمنع من المحاولة.

-ثم أن هؤلاء أيضًا يدورون في فلك الرأسمالية التي تبغضها! لن تستطيع الخروج عن هذا الفلك يا (عمر).. لقد صار حتمية تاريخية لا مفر منها!

=لا.. لا.. لا أستطيع تقبل هذه الحتمية!

-لا تجهد نفسك بلا طائل وتعلو بسقف طموحاتك فينهار عليك.. كثيرون جدًا من قبلك سألوا عن العدل وشعروا بالظلم والذل كونهم يعملون كموظفين مُستعبدين وظلوا طوال حياتهم يحلمون ببناء كيان خاص بهم وماتوا وهم موظفون.

=فلأمت وأنا أحاول.

-حتى لو فعلت، حتى لو صرت تملك مشروعك الخاص.. سيصير لديك موظفون أيضًا، وستقيم نفس النظام، وستجد منهم أحدًا لا يرضى بذلك.

=لن أفعل، لا أحلم بمشروع عادي، ولن أقيم النظام الحالي المعروف، ولن يكون هناك موظفون بالمعنى الحالي، سأقيم نظامًا مختلفًا.

-لا أعتقد أنك ستنجح في ذلك. وأنا أرى أن النظام الحالي هو أفضل نظام توصلت له البشرية وأفضل نظام ممكن ولا أعتقد أن البشرية ستصل إلى نظام أفضل من ذلك.

=أنا أعتقد العكس.

-أتعتقد أنك ستأتي بما لم يأت به الأولون؟

=لا أعتقد ذلك، ولكن أيضًا لو فكر الأولون بهذه الطريقة، ولو اعتقد

كل المفكرون والفلاسفة وكل من أحدثوا تغييرًا عبر التاريخ بأنهم لن يأتوا بما لم يأت به الأولون، لما حدث أي تغيير من أي نوع عبر التاريخ. الرأسمالية نفسها وكل ما نحن فيه وأنا معترض عليه هو تغيير لم يأت به الأولون.

-لا أفهم.. ما مشكلتك الحقيقية يا (عمر)؟! مهما رفضنا هذه الحياة، فهذا أمر واقع لا مفر منه!

=وتلك هي تحديدًا مشكلتي.. أنه أمر واقع لا مفر منه.. هي أنني أريد أن أحيا حياة آدمية.

-وهل هذه ليست حياة آدمية؟

=لا يا سيدي!

-وماالحياة الآدمية إذًا؟

=هي ببساطة شديدة الحياة التي تشعر فيها أنك إنسان ولست آلة أو ترسًا في ماكينة.. هي الحياة التي لاتتحول لمجرد أثر جانبي لحياتك العملية.. هي التي أشعر فيها أنني لي وجود إنساني حقيقي وليس زائفًا!.. هي التي يمتلئ وقتها بالأنشطة الإنسانية الحقيقية المختلفة.. وليست فقط تدور حول العمل.. والعمل.. ثم العمل!

يحاول (أكمل) البحث في خلايا مخه الرمادية عما يشبه ما يقوله (عمر).. يحاول أن يتذكر أنه كان يقرأ أو يسمع أو يقول هذا الكلام يومًا ما، أو يفكر فيه أو يعتقده..في حياة أخرى، في زمان آخر..متى وأين؟

ولكنه لا يتذكر.. لقد كست سنوات عمره التي قضاها في العمل وجمع الأموال والاستهلاك والترفيه والبحث عن الذات هذه الخلايا..

يكذب نفسه.. يهز رأسه نافيًا ويقول ل(عمر):

-ليس لهذه الدرجة يا (عمر).. نحن نحيا حياة آدمية ولا مشكلة.. العمل هو أساس الحياة، ولا أجد أي مشكلة في جعله الأولوية.. لا أدري لماذا تصر على ثنائية الحياة-العمل.. لماذا ينفصلان من الأساس؟

=لأنهما لم ولن يكونا كيانًا واحدًا..

-ربما.. ولكن العمل هو الكيان.. هو كيانك وحياتك وكل شيء الآن.. هو على الأقل جزء من هذه الحياة يجب أن تستسلم لهذه الحقيقة!

=نعم، وتكون الحياة جزءًا صغيرًا تابعًا للعمل فقط.

وصمت (أكمل).. لم يدر ما يقول..

شعر بصدمة..إن (عمر) هو الصوت الذي حاول طويلًا، طويلًا أن يكتمه في نفسه.. ونجح كثيرًا في ذلك بالفعل.. ولكن (عمر) يوقظ كل شيء الآن.

لقد أطلق (عمر) شرارة في ذاكرته أشعلت أشياء كثيرة، لم يكن يريد لها أن تشتعل..!

كأنما كان منومًا مغناطيسيًا وأطلق أحدهم إشارة إيقاظه! كأنما كان مُصابًا بفقدان للذاكرة واستعادها دفعة واحدة!

ولم يُرد (أكمل) أن يُصدَمَ أكثرَ من ذلك، فقال:

-حسنًا يا (عمر).. يمكنك الانصراف الآن.. سعدتُ بالحديث معك.

أومأ (عمر) برأسه وقال:

=شكرًا يا سيدي.. وأنا أيضًا..

وانصرف (عمر)..

انصرف تاركًا (أكمل) في إعصار دائر في رأسه..!

***

أريد أن يُضرب على أذني فأنام لأكثر من ثلاثمائة عام مثل أصحاب الكهف.. أريد أن أستيقظ في زمان آخر، في مكان آخر.. زمان ليس فيه كل هذا الشقاء وكل هذه المكابدة وكل هذه المعاناة.. زمان هادئ سالم، أشعر فيه بوجودي الحقيقي.. وليس زمانًا طاحنًا كاسحًا ليس به رحمة ولا عدل ولا إنسانية ولا فرصة لالتقاط الأنفاس.. !

زمان ليست الحياة فيه مجرد (أثر جانبي)...!

***

كان (عمر) متجهًا إلى منزل خطيبته (نهى) ليزورها الزيارة الأسبوعية المعتادة، وقد اقترب موعد زواجهما..

كان شاردًا طوال الطريق، وقد اقتربت مرحلة جديدة من حياته، ويتساءل، هل ستجرفه الحياة كما جرفت الكثير ممن خلوا من قبله، هل سينغمس في التسوق والاستهلاك ومتطلبات الزواج والحياة والطعام والشراب والإنجاب فقط..

أم هل سيكون مُختلفًا، وسيبني بيتًا مختلفًا بحق، بيتًا ليس تقليديًا عاديًا كسائر البيوت؟..

بيتًا يجد هذه الأشياء مجرد أمور ثانوية جانبية وليست هي أساس الحياة؟..

بيتًا يدرك جيدًا أن في الحياة أمورًا هامة كثيرة نفعلها غير هذه الأمور..

في الحقيقة هو يعلم أنه سيسعى.. ولكنه ليس متأكدًا من أنه سوف ينجح!

يصل (عمر) إلى منزل (نهى)، ثم يجلس معها..

يتحدثوا قليلًا عن بعض الأمور العامة، ثم يقول (عمر):

هناك أشياء كثيرة يجب أن نتحدث عنها أولًا قبل أن نتزوج يا (نهى)..

تعتدل (نهى) وتسأله في توجس:

=وما هي؟

-ربما يجب ألا ننسى أننا موجودون هنا في الدنيا لهدف ما.. لسنا موجودين لكي نأكل ونشرب ونتزوج وننجب ثم نموت فقط.. هكذا!

=بالطبع يا (عمر)!

-نعم.. بالتأكيد.. لكننا نحتاج أن نتذكر قبل أن تجرفنا الحياة.. لأننا ننسى ونركن إلى الكسل.. الكسل في الفعل والكسل في التفكير.. يرهقنا مجرد التفكير فيما هو من المفترض أن نفعله وما هو من المفترض أن نكون عليه.. فنتخلص من كل ذلك ونريح أنفسنا بأن ننغمس في الحياة وملذاتها ورفاهيتها..

تومئ (نهى) برأسها.. تتوتر قليلًا.. تُوْجِسُ في نفسها خيفة من مسئوليات الزواج والحياة..

-لا نريد أن يكون بيتنا مجرد بيت تقليدي بائس آخر!

تومئ (نهى) برأسها مرة أخرى.

-عن نفسي لا أريد أن أحيا مجرد ترس في آلة كبرى، أظل أدور حتى أموت!.. يجب أن نكسر الآلة بتروسها..

تسرح (نهى) بخيالها.. ما هذا الذي يقوله (عمر)؟ هي تريد أن تحيا حياة كريمة وسعيدة وحسب.. ما كل هذه العُقد؟

-أريدك أن تكونين عونًا لي يا (نهى)..

=على ماذا بالتحديد يا (عمر)؟!

يتنهد (عمر).. يقول:

-صدقيني يا (نهى).. أنا نفسي لا أدري ما سأفعله بالتحديد.. ولكن كل ما أعرفه أنني سأسعى بكل قوتي لتغيير كل ما نحن فيه..

تمط (نهى) شفتيها، وتهز كتفيها وتقول في شيء من الضجر:

=حسنًا!

ويتظر (عمر) إلى اللا شيء.. ويسرح بخياله بعيدًا.. ويشعر ببعض القلق..

هو بالفعل لم يُعد يدرِ ما الذي يريده بالتحديد! عندما سألته (نهى) توتر ووجد صعوبة في استعداء ما يريده من خلايا مخه.. اعتصر عقله اعتصارًا ليفكر في ما يريده بالضبط.. ففشل في ذلك!..

أما (نهى) فامتلأت قلقًا ورهبةً مما هي مقبلة عليه، لكنها تحب (عمر)، وزواجهما اقترب، ولا تستطيع التراجع الآن..

فلتترك الحياة لتأخذ مجراها، فالاحتمال الأكبر أن التيار سيجرفه ويجعله يحيا حياة عادية رغمًا عن أنفه..

فلتجاريه الآن إذًا ولتترك الأمور تسير كما تسير!

اسمي هو (نهى حمدي)..

وأعتبر نفسي فتاة عادية.. عادية جدًا..

لا أرغب في التميز في أي شيء.. أرغب فقط في أن أعيش حياة هادئة هانئة..

لا أرغب في تغيير العالم، ولا في ثورة ولا في أن أحقق ذاتي وكياني وهذا الهراء..

أرغب فقط في أن أكوّن أسرة هادئة، وأكون أمًا صالحةً..

الكثير لا يفهمون هذا الأمر في هذا الزمان، هم يفهمون أن تكونين متمردةً، عنيدةً، تناطحين الرجال في الحياة وفي سوق العمل وفي أي مكان، يفهمون أن تتشدقي طوال الوقت أن لا فارق بين المرأة والرجل وأنه يجب تحقيق المساواة..

ولكن الأمر ليس كذلك، ليس الذكر كالأنثى، أنا مؤمنة بذلك تمام الإيمان، لم نُخلق بنفس الصفات ولا الخلقة ولا المسئوليات ولا نفس القدرة على تحمل مختلف الأمور..

فليقُلن ما يقُلن، سأظل ثابتة ومؤمنة بذلك تمامًا..

حتى في دراستي، أكملت الدراسة الجامعية لا لأعمل بشهادتها ولكن لأعد نفسي لأكون أهلًا للأمومة من كل النواحي الممكنة، فيجب أن أكون متعلمة حتى أقصى حد ممكن لأكون أهلًا للتربية السليمة..

أما (عمر)، فأحيانًا كثيرة لا أفهمه، هل يقصد كل ما يقوله فعلًا، هل سيسعى لنحيا حياة بكل هذه المعاناة والجدية بالفعل، أم سيغير هذه الأفكار

عندما يدخل معترك الحياة وسيسعى مثلي لتكوين أسرة هادئة مستقرة فقط؟

أدعو الله من كل قلبي أن لا يخيب ظني!

سأتزوجه، فأنا أحبه بالفعل، لن أتركه..

سنبني بيتنا معًا، وآمل أن يكون بيتنا كما أتمنى..

بيت هادئ هانئ، لا يوجد ما يكدره إلا القليل من الخلافات أو المشاكل الصغيرة العادية..

سنرى!

***

كان (عمر) عائدًا من عمله، ودخل من باب البناية التي يقع بها منزله، فقابل السيد (جلال)..

صافحه، وسأله عن أحواله، فقال له (جلال):

-لم لا تُشرفني بالزيارة لقليل من الوقت، نشرب القهوة سويًا؟

كان جاره السيد (جلال هادي) رجلًا وقورًا هادئًا في العقد السادس من عمره، ناعم الشعر أشيبه، يرتدي نظارة طبية، ذا لحية خفيفة، وبشرة قمحية، وعين واسعة، وملامح هادئة طيبة، تشعر بالسكينة عندما تراه، يعيش وحيدًا، وكان عنده أنواع مختلفة من النباتات في شرفته يهتم بها وتعطي شكلًا مبهجًا لها..

كثيرًا ما كان السيد (جلال) يعرض على (عمر) استضافته ليشرب معه كوبًا من الشاي أو القهوة ويتحدث معه قليلًا، وكان (عمر) يتحجج بأي شيء، مشغول، عمل، مشوار، أي شيء لأنه لم تكن لديه رغبة في هذا الأمر..

ولكنه مع الوقت راجع نفسه وفكر، لماذا يرفض بالفعل؟ لماذا لا يُجرب؟ لماذا لا يعطي فرصة لهذا الرجل الطيب اللطيف خاصةً أنه وحيد ولعله يحتاج بالفعل لمن يجلس معه..

وافق (عمر) على دعوة الرجل، والذي لم ييأس وظل مُصرًا على دعوته رغم إحراجه ولكنه رجل صبور وليس لديه الكثير من المشاعر السلبية..

دخل (عمر) بيت الرجل، وشعر براحة نفسية كبيرة، فالمنزل أثاثه بسيط للغاية وألوانه هادئة ومريحة، وكان صوت إذاعة القرءان الكريم يبعث الوَنَس والطمأنينة في المكان..

-لا أطفئ المذياع أبدًا.. دائماً وأبدًا إذاعة القرءان الكريم.. فهي تبعث في نفسي الأمان والطمأنينة طوال الوقت..

أومأ (عمر) برأسه متفهماً وقال:

=بالطبع يا سيد (جلال)، أتفق معك تمامًا.

-القرءان يحميني من الجنون ومن الخَرَف ومن الاكتئاب، فالوحدة صعبة بالفعل.

=بالتأكيد.

-لا، أنت لا تعرف شيئًا، المعلومات شيء والتجربة شيء آخر، الوحدة قاتلة بحق، تصيب بالجنون بحق.

مط (عمر) شفتيه آسفًا ولم يجد ما يقوله، فأسرع السيد (جلال) قائلًا:

-أنت لست مضطرًا قط للرد على كل ما أقول، أنا أحتاج للكلام، الكلام فقط وليس لكل الكلام رد، لو وجدت ردًا كان بها، لو لم تجد فليس عليك

حرج.

تنهد (عمر) في راحة وابتسم في ود، فهو لديه مشكلة حقيقية في الردود بالفعل، فهو ليست لديه هذه المَلَكة على الإطلاق.

بادله السيد (جلال) الابتسامة، وسأله:

-هل تحب الشطرنج؟

أسرع (عمر) بالإجابة:

=نعم بالطبع، وبشدة، ولكني أعاني لأني بالكاد أجد من يشاركني.

ضحك (جلال) وصفق في مرح طفولي وقال:

-ها قد وجدت أنت ضالتك، وكذلك أنا!

=حسنًا، هيا نبدأ إذًا، ولكن سامحني لن أستطيع لعب أكثر من دور لأنني لم أخطط لزيايرتك، في المرة القادمة بإذن الله سأرتب أموري بحيث أقضي معك وقتًا أطول.

أومأ (جلال) برأسه متفهمًا، وقال:

-أقدر هذا تمامًا.

أحضر (جلال) رقعة الشطرنج الخشبية المطوية، وقام بفردها على منضدة صغيرة بالشرفة، ثم سأل (عمر):

-قهوة؟

= إن لم أكن سأتعبك.

-لا تعب، أنا أستمتع بهذا، كيف تشربها؟

-مظبوط، بُن سادة.

وقام (جلال) لإعداد القهوة، وسرح (عمر) بتفكيره..

لماذا لا نعطي وقتًا حقيقيًا لهذه العلاقات الإنسانية البسيطة؟

لماذا نركض ونلهث دائمًا ولا نجد وقتًا لأي شيء؟

رغم أننا لو تأملنا، سنجد أن الوقت لدينا بالفعل ولكنا لا نشعر بوجوده ولا نكاد نلحق به ونتركه يتفلت من أيدينا تفلتًا..

يرص قطع الشطرنج بهدوء، هدوء نفتقده جميعًا، هدوء أصبح عملةً نادرة في زمن الصخب والتعجل في كل شيء..

يفكر، الشطرنج لعبة تعطيك فرصة لهذا الهدوء، فرصة لترتيب عقلك المزدحم والتفكير والتروي، ربما لهذا لا يحبها الكثيرون، لأنها تحتاج للتركيز، ولم يعد أحد يمتلك رفاهية التركيز، صار الكل = إلا قليلًا من الناجين - مشتت الذهن وحائر الفكر شاردًا.. لا يكاد يفكر في شيء واحد لخمس دقائق مستمرة..

يعود (جلال) بالقهوة وعلى وجهه تبدو علامات السعادة البسيطة، ويعطي (عمر) قهوته، ويقول:

-ها أنت ذا قمت برص القطع، دعنا نرى مهارتك!

ضحك (عمر) ضحكة قصيرة وقال:

=لا عليك، لم ألعبه منذ زمن طويل!

-فلنبدأ إذًا..

وبدآ اللعب، وبعد قليل، بدأ (جلال) في الحديث..

-طلقت زوجتي منذ عشر سنوات تقريبًا، كان طلاقًا هادئًا للغاية، وراقيًا، ولا زلت لا أذكرها إلا بكل خير، فقط لم نتفق كثيرًا، ولم يكن هناك بيننا (كيمياء) كما يقولون، ولم يرزقنا الله بالأولاد.. وها أنا ذا، أعيش وحيدًا منذ عشر سنوات، وقد تُوفي والداي قبل ذلك..اعتدتُ الوحدة، ولكني إنسان، أحتاج للأنس، تعبت كثيرًا وعانيتُ كثيرًا ولكن الحياة تمضي..لا تتوقف لأحزاننا، ولا تعطينا هدنة لأوجاعنا، بل تمضي وتستمر ولا تقف على شيء أو أحد.. هذا ما توصلت إليه وجعلني أستطيع المضي قدمًا والصبر..

ابتسم (عمر) في شيء من الشفقة وأومأ برأسه متفهمًا، وأكمل (جلال):

-صدقني صرت أفهم الناس أكثر.. حتى عندما كنت ألح عليك كثيرًا لتمضي معي بضعة دقائق وكنتَ تعتذر لم أشعر بأي ضيق أو حزن، أفهم تمامًا كيف جعلتنا الحياة الحديثة متعجلين دومًا، حتى أننا كثيرًا لا ندرك لم نحن متعجلين ولكننا فقط لا نريد أن نفعل أي شيء)خارج الخطة (أو خارج الروتين اليومي لأنه سيربكنا..

تنهد (عمر)، وقال:

=نعم، نعم صدقت يا سيد (جلال)، أتفق معك تمامًا، ربما هذا الأمر أكثر ما يؤرقني في هذه الحياة!

-الناس كلهم في سباق سرعة سرمدي، كل شيء سريع، لا وقت، حتى الإعلانات دومًا تقول (لأنه ليس هناك وقت، اشتر كذا أو اشترك في الخدمة الفلانية)..تفكر.. لماذا ليس هناك وقت؟ رغم أن الوقت كثيرًا ما يكون موجودًا.. لكنه مملوء بشيءٍ ما.. شيء مجهول غير مرئي وغير ملموس.. لماذا لم نَعُد نجد وقتًا لأي شيء؟ رغم أن الوقت موجود، ولكن فراغه مملوء بشيء ما.. شيء لا تدرك كنهه بالتحديد.. هل هو مملوء بإحباطات البشرية؟ مملوء

بأشباح الماضي ومخاوف المستقبل؟ هل هو مملوء بالضغط النفسي والعصبي؟ لا أدري.. نحيا في ضغط دائم.. في قلق دائم.. هناك شعور سرمدي بعدم الراحة وعدم الأمان وبالحيرة.. طوال الوقت نشعر أن هناك ما ينقصنا.. طوال الوقت نشعر أن هناك ما يضغط علينا حتى يكاد أن يسحقنا سحقًا..

انبهر (عمر) بكلام (جلال) لأنه يتسق تمامًا مع أسلوب تفكيره..

انبهر بشدة بعمق أفكاره وترابطها وترتيبها..

كم يفتقد هذه العقليات، كم يفتقد من يجلس معه ليملأ عقله وكيانه بحديث عميق بحق، صحيح أنه يحب حديث والده، وتعجبه آراؤه السياسية والاقتصادية وحديثه عن التاريخ، ولكنه مهتم أكثر بالإنسان، الإنسان الحديث وما طرأ عليه من تغيرات، يهتم بالمعرفة التي تتجاوز حدود التجربة، تتجاوز حدود الواقع، المعرفة التي تعتمد أكثر على الحسّ والحدس، على الفكر والمنطق والفلسفة الحقيقية لا الفارغة والزائفة، المعرفة التي تنتج أفكارًا لا التي تعرضها فقط..

وكانت هذه بداية صداقة من نوع خاص.

***

تمر الأيام، وتتكرر زيارة (عمر) للسيد (جلال)..

كان هناك سؤال يلح على (عمر) ليلقيه على (جلال)..

يسأله:

=ما الذي أوصلك لهذه الأفكار والمبادئ يا أستاذ (جلال)؟

يحرك (جلال) قطعة شطرنج، ثم يفكر قليلًا، ثم يقول:

-يا (عمر) يا بني، إن مما أدركته من سنوات عمري الثمانية والخمسون التي عشتها، أنني -حقًا - لا أعلم شيئًا، يخبرك أحدهم أنه (لافف وداير) و يفهم الدنيا والناس جيدًا) ثم تكتشف أنه دائر بالفعل ولكن في دائرة التيه واللا شيء... تكتشف أنه لا يفقه شيئًا ولا يعلم شيئًا بحق، قشور، فقط قشور.. تكتشف أن الكلام شيء والحياة شيء آخر..

دائماً أفكر...لا أدري ماذا دهانا؟... ما هذه الأنانية المفرطة التي صرنا إليها؟! نبحث عن المتاع، والرفاهية، والراحة، وندور حول ذواتنا وكأننا نعبدها، ولا نتوقف لحظة لنفكر في السؤال الوجودي الأهم على الإطلاق: لماذا نحيا؟!

يحرك (عمر) قطعة شطرنج هو الآخر، ويرشف رشفة من القهوة ثم يقول:

= أجل يا سيد (جلال)، إن هذا الأمر يؤرقني كثيرًا أيضًا، ما الغاية التي نحيا من أجلها إذا كانت حياتنا كلها تدور حول السعي إلى الترف والرفاهية وزيادة خيارات الرخاء والاستهلاك المُطلق؟

يومئ (جلال) برأسه، ويقول:

-بالضبط يا عمر، أيضًا إهمالنا للتفاصيل البسيطة الجميلة، تفاصيل إنسانية تشعرنا أننا لا زلنا أحياء، ابتسامة تلقيها لجارك، توقفك بالسيارة ليعبر الناس بابتسامة ودودة، إلقاؤك للسلام على صاحب هذا الكشك الصغير على ناصية الشارع وسؤاله عن أحواله، أن تربت على كتف طفل صغير وتبتسم له ابتسامة رقيقة لتشعره بالأمان، تجاوزك وتغافلك عن من أخطأ في حقك وحفاظك على الود معه... تفاصيل صغيرة، ولكنها هي ما تصنع يومنا وتحافظ على توازن الفطرة بداخلنا..

يهز (عمر) رأسه آسفًا، ويقول:

=أنت على حق، لقد نسي كل منا كيف يصبح إنسانًا!

-نعم، نعم، تروس، مجرد تروس في آلة كبيرة، لا تدرك لماذا تدور بالتحديد!

=نعم، ودائما تشعر أن هناك شيء ما خطأ، أحيانًا لا تدرك ما هو بالتحديد..

- نعم، نعم صحيح.. هناك شيء ما.. شيء لا تشعر به بسهولة..

مرض منتشر.. ربما هو فيروس غير مرئي.. لقد تسلل في كل شيء.. وصار كل شيء مصبوغًا به.. بخبث ومكر..

تسلل بداخلنا، تسلل في معاملاتنا، تسلل في علاقاتنا الإنسانية، أصاب كل شيء بالهشاشة، بالزيف، بالاصطناع، وضع قناعًا غير مرئيًا على وجوه الناس، أن تكون (أصليًا) أو (حقيقيًا) صار عزيزًا، عزيزًا للغاية..

عندما تشرع في وصف ما أصاب البشرية بالتحديد تعجز، لا تجد وصفًا مُحددًا، هو فقط شيء ما، انتشر وتسلل وملأ كل شيء، ملأ الهواء والماء والشوارع والطرقات والبيوت، ملأ النفوس والوجوه..

شيء لا تدرك كنهه !شيء ميتافيزيقي!

يزداد انبهار (عمر) ب(جلال)..

ويتفاجأ أنه ما زال هناك في هذا العالم من يحمل هذه الأفكار وهذه الفلسفة..

يسأله في اهتمام:

=من الواضح من كلامك أنك تقرأ كثيرًا، أليس كذلك؟

-بلى، بالطبع، إن لم يقرأ مثلي فسيصاب بالجنون!

ثم يكمل:

-لدي مكتبة لا بأس بها، لم لا تقوم وتلقي نظرة عليها.

أجاب (عمر) في حماس:

=بالطبع، بكل سرور.

يقوم (جلال) ويقوم (عمر) خلفه، ويتجها إلى غرفة المكتبة، فيدخلاها، ويبدأ (عمر) في التجول بعينه في الغرفة، فينبهر أكثر..

كتب في مجالات لا تُحصى، فلسفة، علم نفس، تاريخ، سياسة، علوم شرعية، علوم اجتماعية، أدب، وأكثر من ذلك..

ينظر (عمر) إلى (جلال) ويقول:

=ما شاء الله، زادك الله علمًا يا أستاذ (جلال).

يبتسم (جلال) في خجل ويقول:

-هذا من فضل الله علي، ومن أكثر ما قضيتُ به وحدتي الطويلة..

=وهو خير ما تقضيها به!

وشعر (عمر) بالامتنان..

الامتنان لأنه لا يزال هناك في هذه الحياة أناس مثل (جلال)..

أناس حقيقيون!

***

اسمي هو (هديل حسن).

في الحقيقة..

لحظة من فضلكم لكي أشعل السيجارة.. حسنًا..

في الحقيقة كل ما تعرفوه عني حتى الآن هو أنني زوجة (أكمل فريد)، وأنني مدير عام شركة (مودرن لايف)..

أنتم لا تعلمون أي شيء عني حتى الآن إذًا...

أنا أحيا حياة مرفهة طوال عمري.. ظللت مُدللة طوال حياتي..

لم يحرمني أبي من أي شيء، كانت كل طلباتي مُجابة وكل أحلامي أوامر.

تخرجتُ في كلية (إدارة الأعمال) بالجامعة الأمريكية..

حصلتُ على دبلومات وشهادات كُبرى كثيرة..

ربما تدركون الآن أنني لست مُستعدة لأن أفقد أي شيء من نمط حياتي.. شيء واحد..

أنا لا أسافر إلا لأماكن ذات مستوى معين، مستوى مرتفع بشدة، لا آكل إلا أغلى الأطعمة، لا أرتدي إلا الماركات الغالية.. أولادي في مدارس دولية رفيعة المستوى..

ليس لأحد أن يحرمني من أي من ذلك، مهما يكن...

كيف تعرفت على (أكمل)؟ آه، حسنًا، والدي هو مالك لشركة الاستثمار والتطوير العقاري الكبرى التي يعمل بها (أكمل) كرئيس مجلس إدارة..

أعتقد أن الأمر واضح الآن.

إن ما نحن فيه هو محض أمر واقع، ويجب الحفاظ عليه بكل ما أوتينا من قوة، وألا نسمح بأي شيء أو شخص بأن يكدر صفوه بأي شكل.

لم أتعود أن أرغب في شيء ولا أحصل عليه.

اعتدتً أن يدور كل من حولي حولي، أنا وحسب.

نعم فبالتأكيد أهم شخص في حياتي هو أنا! من يكون إذًا؟!

أهتم بشكلي وبصحتي إلى أقصى حد ممكن

لا أسمح لنفسي ألا أبدو في أفضل حال ولو للحظة واحدة!

حسنًا.. ليس هناك أفضل من أن تأمر فتُطاع..

تطلب فتستجاب طلباتك على الفور..

تحيا بلا مشاكل أو منغصات على الإطلاق!

ما أجملها من حياة.

لذلك أنا متمسكة بها إلى أقصى حد.

أعشق الحياة بشدة.

أستمتع بكل لحظة بها...

تلومونني على ذلك؟ لا بأس فالكثير يحقدون عليَّ ويتمنون نصف ما أنا فيه.

أعشق المال، والذهب، والتسوق، والتليفيزيون، والخروج والانطلاق، أعشق كل لحظة أعيشها في حياتي..

إن حياتي رائعة بحق..

الملل؟ من حين لآخر أشعر به ولكن للحاجة للتغير فقط، ولكنه ليس عنوانًا لحياتي، فحياتي ليست مملة على الإطلاق!

نقطة ضعفي هي (أكمل).. نعم، زوجي، أحبه حبًا غريبًا..

لا أعلم لماذا أحبه بهذا الشكل العجيب! ولكنها حقيقة!

ولكنني لا أخبره بذلك، لا أجعله أبدًا يشعر أنه نقطة ضعفي، لكي لا يستغلها!

ولكنني، والحق يُقال، أحب نفسي أكثر!

اسمي هو (هديل حسن)..

وأنا لا أقبل الخسارة بأي شكل من الأشكال، ولا أقبل القسمة على اثنين، ولا أقبل التنازل على الإطلاق، ولستُ من هواة التضحية ولا من هواة خداع نفسي كثيرًا..

أنا كذلك وسأبقى كذلك ولن أتغير..

غرور؟ ربما! لا أهتم كثيرًا بوصف ما أنا عليه، بل أهتم فقط بالحفاظ عليه وعدم تغييره قط!

الكثيرون حاولوا لفت نظري من قبل ل(عيوب) في شخصيتي كما يزعمون ويدعون، ولكني لا أراها عيوبًا، بل أراها نقاط قوة في صالحي ليس إلا، وما أراهم إلا حاقدين عليَّ لا أكثر..

منذ ولدت وكل طلباتي مجابة، كنت ولا زلت مدللة بشدة، لذلك لا أقبل الرفض، ولا أتحمل كلمة (لا)، أعيش حياتي كما أرغب، ولا أسمح لأحد أن

يملي علي شيئًا أو أن يعين نفسه واصيًا علي.

لذلك تأخرت بعض الوقت في الارتباط، لأنني لا أتحمل القيود، أية قيود!

لماذا اخترت العمل في البداية كمديرة للموارد البشرية تحديدًا؟

لأن هذه بالذات يعطيني الشعور بالسطوة والسلطة اللذين أريدهما، ربما أكثر من منصب المدير العام نفسه، وربما لأن أبي -صاحب الشركة ورئيس مجلس إدارتها- لم يُرد لي في البداية منصب المدير العام لأكثر من سبب، ربما لمصلحة العمل وأنني أحتاج لبعض الوقت للتأهيل لهذا المنصب..ربما، المهم أن منصبي الحالي يناسبني إلى حد لا بأس به على الإطلاق.. وقد فضلت الانتظار بعض الوقت بعد التخرج لدراسة بعض الأشياء وللالتحاق بدورات تدريبية والحصول على بعض الشهادات وليكون سني مناسبًا للمنصب بعض الشيء..

أما لماذا ارتبطت ب(أكمل) ووافقت على الزواج به بهذه السهولة، ربما لأنني وجدت فيه شيئًا مختلفًا بحق، هو رجل، ولكنه لن يقيدني، لن يتحكم في أو يسيطر علي دون أن ينقص هذا من رجولته شيئًا، ملئ بالطموح والتحديات، عيناه فيهما لمعان واضح، لمعان التطلع وعدم الاكتفاء، لمعان الطمع المحمود والجرأة المرغوبة..

أحببت فيه كل ذلك، وأحببت جرأته على الاقتراب مني، فأنا -بالطبع- أمثل تحديًا كبيرًا لأي أحد..! أنا لستُ كالأخريات!

فلينعتونني بالغرور أو التكبر أو النرجسية أو بما يشاءون، فرأيهم في لا يهمني، حقيقة وصدقًا لا يهمني على الإطلاق..!

وبمناسبة (صدقًا) فأنا لا أكذب على الإطلاق!

ليس لفضيلة في، ولكن لأن من يكذب على أحد يخشاه أو يخشى رد فعله بشكل ما، وأنا لا أخشى أحدًا!

أنا (هديل حسن)..

وأحب نفسي بشدة!

أنا، (هديل حسن)، صعبة المراس، وصعبة المَنال!

أنا، (هديل حسن)، أرقى وأفضل إنسان قابلته في حياتي!

***

يوم عمل عادي..

ولكنه بالنسبة ل(عمر) كان كئيبًا لسبب يجهله..

كان يسير وكأنما أثقلت قدماه بالأغلال وأكياس الرمال..

ينظر حوله..

هناك شيءٌ ما..

مكاتب متراصة جانب بعضها البعض، بفواصل صغيرة بينها، وينكب كل موظف على جهازه، سواء كان يعمل أم يعبث أم يتظاهر بأنه يعمل..

هناك شيء خطأ..

مقايسات، وعقود، وبنود، وحسابات، وتخطيط وتكاليف وموارد بشرية..

هناك شيء خطأ..

نعم، كل هذا يجب أن يتم، ويجب أن يقوم شخص ما أو مجموعة من الأشخاص بعمله وإلا لن تستقيم الأمور، نعم، هناك من يعملون بمهن أشد وطئًا وأصعب من هذه المهن بكثير جدًا، نعم، هناك الآلاف ممن يتمنون أن يعملوا هذا العمل.. ولكن..

هناك شيء خطأ!

ما هو؟ لا أدري بالتحديد! ربما يجب أن تتم هذه الأمور بأسلوب آخر.. نمط آخر..بشكل آخر..

ربما تحول الإنسان إلى شيء أو آلة..لا أدري.. حقيقة لا أدري ولكن ما أدريه جيدًا أن..

هناك شيء خطأ!!

لماذا معظم الناس زائفون؟ لماذا هم مُصطَنعون؟ لماذا لا نُظهر ذواتنا الحقيقية؟ أم نحن لم نعد نعرف ما هي ذواتنا الحقيقية بالتحديد؟!

لماذا فرض علينا العمل المؤسسي كل ذلك الزيف والاصطناع والنفاق؟ لماذا كل هذه الأقنعة؟

يحمل كل منا هوية تُعرف اسمه وسنه وعنوانه.. ولكنها لا تُعرف ذاته.. لا تُعَرِّف هُويته الحقيقية!

على كلٍّ، حيا (عمر) زملاءه، وجلس على مكتبه، وفتح جهازه..

لم يكن لديه عمل كثير هذا اليوم، ولكنه يجب أن يتظاهر بالعمل، فالمهم أن يراك الناس تعمل، أهم من إنجاز العمل الحقيقي نفسه..

كان يتوتر بشدة لمرور الناس خلفه وهو يعمل، كان غير مستريح لفكرة

أنه مستباح دائمًا وفي أي وقت يلقي أي شخص عليه النظر وهو يعمل أو يفعل أي شيء..

وكان هناك زميل له كلما يمر يختلس النظر، ويجلس مع مديره كثيرًا، هو يدرك جيدًا أنه ينقل أخبار الموظفين إلى هذا المدير..

يا له من عمل خسيس!

كيف من الممكن أن يتعايش أي شخص مع هذا القدر من الخسة؟ حقيقة هو غير قادر على الاستيعاب!

ولكن هذه هي الحياة، وهؤلاء هم البشر، نماذج مختلفة، خيرٌ وشرٌ وما بينهما..

يأتي موعد اجتماع من المفترض أن يحضره (عمر)..

يا للملل الأزلي! كم يبغض هذه الاجتماعات الجوفاء!

يحضر (عمر) الاجتماع، ويبدأ الحاضرون في الحديث وعرض ما لديهم..

كان في قرارة نفسه يشعر بسخافة ما يحدث، لماذا يتحدث أناس كلهم بلا استثناء عرب بهذا الكم من المصطلحات الإنجليزية؟! تصنع وزيف وانبطاح ثقافي مبالغ فيه!

من نحن؟ لماذا لا نسأل أنفسنا هذا السؤال؟ لماذا لا نعطي أنفسنا فرصة لكي نتوقف ونتساءل عن ماهيتنا وهويتنا؟

فرصة لنفكر فيما نفعله، لماذا نفعله بالتحديد؟

من نحن؟ هل نحن عرب أم أمريكان أم إنجليز أم فرنسيون؟ هل صرنا بلا هوية لهذه الدرجة؟ هل صرنا مسوخًا بلا معالم محددة؟

لماذا لا يكون لدينا نمطنا الخاص؟ طابعنا الخاص؟ لماذا كل أو معظم أمورنا مستوردة من الخارج؟

لماذا ينجرف الكثيرون خلف أي تقليعة أو موضة من الخارج، خلف أي عيد أو احتفال أو نمط حياة، لماذا لا نخلق نمط حياتنا بنفسنا؟

أحضرنا من الخارج عشرات الأنظمة للتخطيط والإدارة ولم نفكر لحظة في نظام يناسبنا بحق!

أنشأنا آلاف الشركات ونسخنا آلاف القواعد وقوانين العمل دون أن نحدد ما هو مناسب لنا وما هو ليس مناسبًا!

على كل، ينتهي الاجتماع أخيرًا و(عمر) طوال الوقت يتظاهر بالاستماع فقط ولكنه لم يكن يسمع شيئًا وكان غارقًا في أفكاره..

ينهي (عمر) عمله بعد يوم مجهد ذهنيًا.. فالتظاهر بالعمل يجهده أكثر من العمل الحقيقي نفسه!..

اليوم الروتيني المعهود.. الروتين القاتل ونحن نعلم جيدًا أنه قاتل..

ولكننا نستمر في قتل أنفسنا قتلًا بطيئًا..

نظن أنه سوف يأتي اليوم الذي سيتغير فيه كل شيء.. سوف يأتي وحده هكذا دون أن نسعى إليه.

نظل ننتظر وننتظر حتى تنتهي حياتنا قبل أن يتغير أي شيء!

تمر الحياة بروتين قاتل..

نفعل نفس الأشياء كل يوم..

تشبه كل الأيام بعضها..

ملل قاتل..

ما السبيل للخلاص من هذه الدوامة؟

ندور وندور دون توقف..

ويعيش الناس ويموتون دون أن يدركوا لماذا عاشوا من الأساس؟

لماذا صارت كل تفصيلة في حياتنا مرهقة ومنهكة.. تمتلئ بالمكابدة..

لماذا لم تعد الحياة بسيطة كما كانت من قبل؟

هل نحن من تغيرنا أم الحياة هي التي تغيرت؟

يتحرك بالسيارة.. ينظر في الطرقات..

تحيطك الإعلانات في كل مكان.. تسير في الشوارع فتجد لافتات الإعلانات في كل مكان.. حصار..

إعلانات عن منتجات.. وعن سلع ترفيهية.. وعن قرى سياحية ومجمعات سكنية..

امتلك الآن وادفع بالتقسيط.. امتلك الرفاهية.. المهم أن تظل طوال حياتك تدور في الساقية لتبحث عن المال الذي تحصل به على كل هذا.. وستكتئب وتبتئس لأنك بالتأكيد لن تستطيع أن تملك كل ذلك ولو ظللت طوال حياتك تجمع الأموال..

وتستمر اللعبة، اللعبة التي تعتمد بشكل أساسي على أن البشر لن يبلغوا الإشباع التام قط، لكل هذه الرغبات والملذات..

لذلك سيظلوا طوال حياتهم في صراع دائم وسعي مستمر لإشباع كل الرغبات..

سعي لا نهائي.. لن ينتهي إلا بالموت!

لذلك صار الناس متوترين دائماً.. لا يطيقون بعضهم البعض لأنهم بطبيعة الحال منافسون في هذا الماراثون السرمدي..

صار شعار كل أحد:

"لن يأخذ أحد مكاني ولن يسبقني أحد"

يسير (عمر) في الطرقات بسيارته الصغيرة ويلاحظ السلوك العدواني عند الغالبية العظمى من سائقي ومالكي السيارات..

تشعر دائماً أنك في سباق، سعار دائم للوصول والتحرك بسرعة والعبور قبل الآخرين سواء كنت متعجلاً أم لا، المهم ألا يسبقك أحد لأنهم ليسوا أفضل منك في شيء!!

يسير في الشوارع ويتأمل.. يتأمل البنايات والواجهات وأشكالها المفتقدة للفن والمعمار الحقيقي..

لقد اعتادت أعيننا القبح وألفته حتى صار هو الأساس والأصل..

التراث والأصالة والجمال صاروا أساطير الأولين..

يمر على مبنى قديم فيجد عمليات هدمه لإنشاء مبنى تجاري حديث، فيشعر بالحسرة..

هو يدرك أن هذه آثار الحداثة وأن قطار التحديث سيدهس كل شيء ولكن تظل هناك غصة..

يعود (عمر) إلى بيته، يسلم على أهله ثم يدخل غرفته..

يمدد ظهره على سريره.. يتأمل في ملابسه الملقاة على الأرض بعشوائية..

هكذا عقله وأفكاره.. تزاحمت وتراكمت عليه حتى صارت غير مُرتبة بهذا الشكل..

حسنًا، ها هو يوم آخر من ضمن الأيام التي تتكاثر عليه همومه بها..

لماذا هو مهموم هكذا؟

لماذا يشعر بهذا الإنهاك المُزمن والإرهاق الذهني الدائم؟

ليس من المُفترض أن يكون بهذه التعاسة، فحياته ليست بهذا البؤس، بل بالعكس، حياته ظاهرها النجاح بشكل كبير، فهو من أسرة مُحترمة ويحيا حياة كريمة، مستريح ماديًا إلى حد لا بأس به، ليست هناك مشكلة كبيرة أو ابتلاء عظيم في حياته..

لماذا إذًا كل هذا الغم؟

ما الذي أوصله إلى هذه المرحلة؟

"أنا أفكر إذًا أنا موجود"

قالها ديكارت، ولكن أيضًا (أنا أشعر إذًا أنا موجود)، أنا أحلل ولا أقبل الأمور كما هي إذًا أنا موجود، أنا أرفض الواقع البائس إذًا أنا إنسان!

ربما لهذا أنا متمسكٌ بما أنا فيه، متمسك بمبادئي، لكي أستمر في الشعور بآدميتي، الشعور بوجودي الإنساني الحقيقي..

ربما لهذا أكابد كل هذه المكابدة، لهذا أحمل كل هذه الهموم، كي أظل حيًا، كي أظل أنا!

ربما أكثرتُ من الأسئلة، وقد قال الله في كتابه (لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم) وقد ساءني الكثير مما بدا لي بالفعل!

وها أنا ذا..مكدرٌ صفوي باستمرار، معكّر مزاجي دومًا، لا أكاد أظفر بلحظةِ سلام نفسي..لا نكاد نظفر بلحظة لأنفسنا، اليد مشدودة بالهاتف المحمولَ، والَعين والعقل مشدودان لشاشته، والقدم متسمرة في مكانها لا تتحرك لشيء، والجسد منهك ويحتاج الراحة بلا مجهود يُذكر ولكنه مُنهك على أي حال، لا نكاد نستطيع التركيز في شيء واحد لدقيقة واحدة دون تشتت.. كم المشتتات رهيب وغير طبيعي وغير مسبوق، وكم الاختيارات في الحياة كذلك أيضًا، نستغرق في آلاف التفاصيل في أمور أبسط من أن يكون بها أكثر من تفصيلة واحدة أو اثنتين على الأكثر، لقد فعلت بنا الحداثة الأفاعيل، والتهمتنا وتركتنا حائرين مشتتين مشردين تائهين في الأرض وفي أنفسنا، أمسينا لا ندري من نحن وماذا نفعل في حيواتنا بالتحديد، حتى مشاعرنا صارت مرتبكة، صرنا لا ندري هل نشعر بالسعادة أم بالحزن أم بالحماس أم بالبلادة، بالحب أم بالكراهية، بالملل أم بالتوتر أم.. أم..؟

أحيانًا أشعر أن ما نحن فيه مثل سنوات تيه بني إسرائيل، (أربعين سنة يتيهون في الأرض)، نعم، نحن في سنوات تيه في أنفسنا، في عالمنا الغريب المُريب الذي لا تكاد تجد له نمط محدد، هل هو يسوده الشر المطلق، أم فيه الخير الكثير؟ هل هو عالم بائس تعيس بالفعل أم هو عالم مُشرق يبعث التفاؤل والأمل؟

وأنا.. هل أنا بالفعل ذو مبادئ، أم سأفقدها مع أول اختبار حقيقي وأقتلعها من جذورها؟

أين مكاني الحقيقي، أين وجودي الفعلي؟

وهل أكمل حياتي ببلدي الذي لم أجد نفسي فيه ولم أجد متنفسًا، ولو وجدت لوليت إليه مقبلًا ولن أعقب، أم هل أكمل حياتي ببلد لم أعرفه ولم

يعرفني، وأعيش به كالطفيليات؟

(إن الأرض لله) نعم، أرض الله واسعة، وربما أجد في مكان ما ما لم أجده في آخر، ولكني حائر، ماذا عليَّ أن أفعلَ بالتحديد؟ حقيقة لا أجد حلًا جذريًا، جسدي وروحي يتصارعان باستمرار، صراعًا أنهكني، جسدي وروحي وعقلي وقلبي ونفسي، معركة كبرى تدور في جنبات وجودي، بلا هدنة أو هوادة..

أنا مُنهك إنهاكًا لو تعلمون كبيرًا..

والإنهاك النفسي أشد وطئًا من الإنهاك البدني، لأنه أثناء المجهود البدني لا يستسلم المرء لصراعات نفسه وعقله، بل يكون جسده مشغولًا وكيانه كله كذلك..

قلبٌ حائرٌ.. وعقلٌ ثائرٌ.. وجرح غائرٌ..

أنى لهذا القلب الحائر أن يهنأ..

وأنى لهذا العقل الثائر أن يهدأ..

وأنى لهذا الجرح الغائر أن يطيب...؟!

أحيانًا يُفكر، لماذا لا يستسلم ويترك نفسه لتيار الحياة يجرفه.. ولكنه لا يستطيع، لقد حمل همًا لن يتركه حتى يموت..!

إيبه يا عمر.. لقد خضت بحرًا ما له من قرار ولا مرسى.. ليتك ظللت ساذجًا، لا تهتم بشيء ولا تحمل همًا!

إيييه يا (عمر)، ما كان لك أن تخوض هذا البحر..

"لماذا؟!"

سؤال يراودني كثيرًا، وهو "لماذا؟!"

لماذا كل هذه المكابدة الإنسانية؟

لماذا كل هذا العناء الشديد للحفاظ على سلامة الفطرة وسلامة العقل والسلامة النفسية؟

لماذا علينا أن نتمسك بشدة بمبادئنا وآدميتنا وإنسانيتنا ضد التيار الجارف؟

لماذا على البشرية أن تعاني كل هذه المعاناة...وعلى البشر أن يكابدوا كل هذه المكابدة فقط ليلتقطوا أنفاسهم ويحيوا حياة طبيعية ومستقرة وآدمية؟

"كيف"

كيف يحافظ الإنسان على اتزانه العقلي والنفسي وسط كل هذا؟

كيف ينجو؟

كيف يتحمل؟

كيف يتخلص من كل هذه الأحمال التي تجثم على صدره؟

هل من مخرج؟

هل من سبيل؟

هل من أمل؟!

***

يوم آخر..

يستدعي (أكمل) عمرًا إلى مكتبه مرة أخرى..

يعرض عليه القهوة فيرفض..

كان (عمر) عاشقًا للقهوة بحق، وفي هذه اللحظة بالذات كان في احتياج شديد إلى كوب من القهوة، ولكنه لم يرغب في تناولها مع (أكمل) لعدم ارتياحه له ولحاجة في نفسه..

وتأمل في المكان، فهو لم يتأمل فيه في المرة السابقة، ما كل هذا؟ عمود في المنتصف مكسو بالرخام، وحائط المكتب نصف ارتفاعه مكسو بالرخام والنصف الآخر مكسو بورق حائط شديد الفخامة.. والأثاث، أرائك وثيرة، ومكتب كبير شديد الفخامة، على يمينه مكتبة كبيرة شديدة الفخامة أيضًا، تمتلئ بالكتب التي يثق (عمر) أن (أكمل) لم يقرأ حرفًا منها، وركن للقهوة، وأرضية من البورسلين الفخم.

رغم ذلك لم يشعر (عمر) بالانبهار بل شعر بالسخط.. ما كل هذا؟ ولأجل ماذا ومن؟!

ولماذا يسعى الإنسان دائمًا إلى بناء جنة دنيوية أرضية، هل خوفًا من ألا ينال جنة الآخرة؟

ما هو النقص الشديد الذي يحاول الإنسان تعويضه بكل هذا البذخ والترف؟!

قطع (أكمل) تسلسل أفكار (عُمر) عندما عاد بالقهوة، وجلس، ثم قال:

-ربما أنت تتساءل منذ المرة السابقة لماذا قمت بهذا التصرف العجيب.

هز (عمر) كتفيه وقال:

=ربما.

مط (أكمل) شفتيه متعجبًا من رد فعل (عُمَر)، وقال:

-لقد أحببت أن أُجرب شيئًا جديدًا، وأختبر طبائع الناس، وردود أفعالهم تجاه الخطر، ولو سألتني لم بالتحديد وما الهدف من ذلك، سأقول لك حقيقةً لا أدري بالتحديد.. فقط أردت ذلك، وجاءتني الفكرة فنفذتها..

لم يجد (عُمَر) ما يقوله، وتعجب في داخله من هذا الرجل العجيب الذي يجلس أمامه، واستمر (اكمل) في حديثه..

-الحقيقة أنا مهتم بتصرفات البشر، وأكره الضعفاء والجبناء.

=ومن هم الضعفاء والجبناء تحديدًا؟

-الذين يكرهون المخاطر، والمخاطرة، ويرضون بوضعهم ولا يسعون لتغييره بأي شكل.

=وما أدراك بظروفهم وبحياتهم؟

-لا أدري غير أن الحياة مليئة بالفرص التي تنتظر من يستغلها.

=عُذرًا سيدي ولكن هذا كلام مُرسَل، والكلام سهل.

-وما الصعب إذًا؟

=الحياة بالفعل صعبة، ومن حصل على فرصة فهو رزقه ونصيبه، وليس فقط لأنه استغل الفرصة وسعى وراءها وما إلى ذلك.

-هراء يا (عُمَر).. هذا كلام يقولونه ليصبروا به أنفسهم.

=بل هذه هي الحقيقة.

-بل هي وجهة نظرك فقط.

=ليست وجهة نظري، هي حقيقة لا تخضع للتأويل.

-وما هي الحقيقة؟ وما تعريف الحقيقة؟ وهل كل ما تراه هو الحقيقة؟

=الحقيقة هي الأشياء كما هي، بدون تزييف أو تأويل أو بحث عما وراءها.

-وما أدراك أنك ترى الأشياء كما هي بالفعل؟ لماذا لا تكون مختفية خلف قناع أو غطاء؟ لماذا تعتقد أنك ترى الشيء دون تزييف أو تأويل؟

=لأن الحقيقة، المبادئ، الأخلاق والمثل العليا لا تحتمل التأويل ووجهات النظر.

-الحقيقة بالنسبة إليك هي ما يدركه عقلك، وما يدركه عقلك ليس بالضرورة حقيقيًا. فالآخرون يدركون الشيء بعقولهم أيضًا ويكون إسقاطه مختلفًا.

=لا.. لا يا سيدي.. الحقيقة ثابتة ومطلقة.. النسبي هو الإدراك.. المعرفة.. الحَدَس.. هذه الأمور تختلف من شخص لآخر بالفعل.. لكن الحقيقة ثابتة لا تختلف.

-الحقيقة شيء غير ملموس.. غير مادي.. لذلك هي نسبية.

=عذرًا يا سيدي، ولكن هذه فلسفة زائدة، الحقيقة أبسط من كل ذلك.

-وما الحقيقة في هذا الأمر إذًا؟

=الحقيقة أن هؤلاء من تقول عنهم ضعفاء وجبناء، مطحونون تحت من تتحدث عنهم ممن (استغلوا الفرص) ومُستغَلُّون من قِبَلِهم، وهكذا هي الرأسمالية.

-وما المشكلة الحقيقية في الرأسمالية؟

=أنها تعد الناس بجنة أرضية فيجدون أنفسهم في جحيم أرضي في نهاية الأمر.. تعدهم بالرفاهية والرخاء ثم يجدون أنفسهم في عذاب وشقاء لا ينتهي.

-هذه المشكلة ليست في الرأسمالية في ذاتها.

=إذًا فأين المشكلة؟

-في أصحاب الأعمال أنفسهم، وليست في الرأسمالية كمبدأ.

=وأصحاب الأعمال لم يكونوا ليفعلوا ذلك لو أن الرأسمالية مبدأ أخلاقي نظيف. ولكنها ليست كذلك، هي فيروس خبيث.

-لا تتحامل عليها إلى هذا الحد.. الحقيقة أن الرأسمالية هي أفضل نظام اقتصادي توصلت له البشرية على الإطلاق! ولا أعتقد أن هناك ما هو أفضل منها!

=كيف تقول ذلك وقد كانت وبالًا على الملايين وتسببت في فقرهم وبؤسهم وشقائهم؟ هل تستطيع أن تخبرني لماذا زادت حالات الانتحار بشدة؟ لماذا انتشر الإدمان بشكل مخيف؟ لماذا صار الاكتئاب مثل نزلات البرد والصداع؟ لقد تسببت في كل ذلك آثار الرأسمالية والحداثة!

-وأيضًا تسببت في ثراء الكثيرين وسعادتهم ورخائهم.. لماذا لا تنظر للأمر من الناحية الأخرى؟

=لأن الناحية التي أنظر منها أكثر آدمية.. أكثر إنسانية وأقرب للفطرة.

-ولم لا نقول أن هؤلاء من تسببت الرأسمالية في فقرهم وبؤسهم هم فقط لم يستغلوا الفرص استغلالًا صحيحًا وأنهم سبب في ما هم فيه بشكل ما؟

=أي فرص يا سيدي؟ هل تستطيع أن تحدد لي طبيعة الفرص التي تتحدث عنها؟ ما هي بالتحديد الفرص التي تُتاح لبائعة خضروات بائسة على الأرصفة، أو عامل نظافة تخطى الستين من عمره ولكنه مضطر للشقاء في عمله لجلب لقمة العيش؟ ما هي الفرص التي تُتاح لعسكري مرور تعيس يقف في حرارة الشمس الشديدة لكي ينظم حركة السيارات؟

يصمت (أكمل).. لا يجد ما يقوله بالتحديد.. يضم يديه أسفل ذقنه ويفكر.. غريب (عمر) هذا.. وغريبة نظرته للأمور.. وغريب أن يفكر مثله بهذه الطريقة وفي هذا الزمان..

أخيرًا يقول (أكمل):

=وما دخل الرأسمالية تحديدًا بفقر هؤلاء من تتحدث عنهم؟ هناك أسباب أخرى وعوامل أخرى كثيرة لما هم فيه! .. أنا أتحدث عمن يظل طوال عمره موظفًا دون أن يسعى للارتقاء في السلم الوظيفي أو امتلاك شركة أو تجارة ما.. هؤلاء هم من يرفضون المخاطرة ويخافون منها ثم يذمون أصحاب الأعمال!

-وما أدراك بظروفهم أيضًا؟ وما أدراك أنهم لم يُحاولوا! أنا أعرف الكثيرين ممن خاطروا وخاضوا التجربة وحاولوا أكثر من مرة ولكنهم كانوا في كل مرة يفشلون لتوحش السوق ولأسباب أخرى كثيرة..!

يفكر أكمل قليلًا ثم يقول:

=الرأسمالية هي الدواء، ودواء يجب أن يكون له أثر جانبي.. هنا الأثر الجانبي هو فقر البعض ومعاناة البعض الآخر.. وذلك في سبيل رخاء الآخرين ورفاههم وراحتهم.. هكذا هي الدنيا..

يقول (عمر) في ذهول غير مصدق:

-ماذا تقول؟! أي تفكير هذا؟! من أنت بالضبط؟!

=أنا شخص عادي جدًا، واقعي جدًا... هل تعلم يا (عمر)؟ لقد كنت أقرأ.. أقرأ كثيرًا.. وكنت أحب الذهاب إلى السينما والمسرح أيضًا.. وكنت أستمتع بذلك بشدة وبتذوق الآداب والفنون، ولكن الأمور تغيرت.

-ولماذا إذًا تركتَ كل ذلك؟

=لأنه لا ينفعني

-كيف لا ينفعك؟ وما الذي ينفع إذًا إن لم تنفع القراءة والثقافة؟!

=لأنه لا يجلب لي المال..النفع في هذا العالم هو النفع المادي، وما دون ذلك فهو محض إضاعة للوقت.

-ما هذا الهراء!!

=الوقت هو المال(*)

ينفعل (عُمر) بشدة وهو يقول:

-الوقت ليس هو المال! هذه مقولة رأسمالية حقيرة مُنحطة، تحط من قيمة الإنسان وذاته، وتُعطى له ذاتًا أخرى مادية نفعية بائسة حقيرة! الوقت هو كل شيء! الوقت هو الحياة، هو كل لحظة ترتقي بنا وترتقي بإنسانيتنا وآدميتنا، وكل لحظة جميلة نقضيها بين دفتي كتاب نافع، وكل لحظة نقضيها بين أصدقائنا أو أهلنا! وهو العمل أيضًا.

(*) الوقت هو المال أو Time is money، مقولة شهيرة للغاية في عالم الأعمال وهي تعني استغلال كل لحظة في جلب المال أو أن الوقت الذي يضيع معناه أموال ضائعة.

اختزال الوقت في (المال) وحسب هو أكثر الأشياء بؤسًا على وجه هذه الأرض!

=لن تستطيع أن تستمع بكل ذلك إلا إذا كنت تمتلك الأموال الكافي.

يهز (عُمر) رأسه يائسًا، لن يفهم قط، لن يفهمه وهو الغارق حتى النخاع في ماديته..

يعتدل (أكمل) فجأة، ثم يقول:

-عمر! ما رأيك أن أصدر أمرًا لقسم الموارد البشرية أن يقوموا بزيادة راتبك!

يرتبك (عمر) ويهز رأسه غير مستوعب، ثم يقول:

-وما دخل ذلك بما نتحدث فيه يا سيدي؟!

-دخله أنك ربما تغير رأيك قليلًا عندما يجري المال في يدك وتتيسر لك الأمور.. ربما تشعر بقيمة المادية الاستهلاكية التي تنتقدها ليل نهار!

-لا أدري أيضًا ما دخل هذا بذاك! ليست هذه هي مشكلتي على الإطلاق!

-بل صدقني أنت فقط تعتقد أنها ليست مشكلتك!

-بل هي ليست مشكلتي بالفعل! هذا مبدأ ثابت لن يتغير ولو صرتُ مليونيرًا!

يضحك (أكمل) وتتعالى ضحكته في سخرية شديدة، ويظل يضحك لبرهة، ويسخط (عمر) بشدة، ثم يقول (أكمل):

-ستختفي كل هذه المبادئ عند أول مائة ألف جنيه تجمعها حُرًا، وليس

مليون!

-سيدي، هل شاهدت فيلم (فارس الظلام)؟ (*)

-نعم شاهدته.

-هل تتذكر مشهد الجوكر وهو يقف أمام جبل من المال، ثم يشعله لتأكله النار في دقائق معدودة؟

-نعم أتذكره.

-هل تتذكر ما قاله في هذا المشهد: (كل ما تهتمون به هو المال.. الأمر لا يتعلق بالمال.. الأمر يتعلق بالرسالة.. كل شيء يحترق!

يبتسم (أكمل) في سخرية، ثم يقول في تهكم:

=وما هي (الرسالة) إذًا يا عم الجوكر؟

-الرسالة هي الإنسانية! حق الإنسان في الحياة.. الحياة الحقيقية! الرسالة هي ألا نستغرق في تفاصيل الاستهلاك، ألا نغرق في الماديات وننسى أرواحنا وأنفسنا، ألا نبني البرَّاني وننسى الجوَّاني، ألا يكون كل همنا هو أي نادي سنشترك به وأي سيارة سنركبها وأي هاتف محمول جديد سنشتريه وأي ماركة ملابس سنرتديها وأي مطعم سنأكل فيه، الرسالة هي أن ننظر في أنفسنا، وليس لأجسادنا فقط، هي أن نتنقل في طرقات أرواحنا بحثًا عما يكملها ويملأها بالسكينة، ألا نعمل ونتعلم فقط لكي نشتري منزلًا أكبر أو سيارة أحدث، بل لنبني أنفسنا، لنزيد تجربتنا في الحياة ثراءً وخبرةً.. ها نحن نرى حالات الاكتئاب الحادة والرغبة في الانتحار المتزايدة، والأمراض النفسية التي لم نكن نسمع عنها حرفًا ولم نتطرق إليها في أسوأ كوابيسنا، والأزمات الحديثة التي يحتار أمامها المعالجون النفسيون فلا يستطيعون تحديد

علاج محدد لها أو أسلوب حياة يتماشى معها.. كل ذلك بسبب الاستغراق الرهيب في الماديات على حساب الإنسانيات والروحانيات، أين بناء الإنسان نفسه؟ ماذا فعلنا بكَمٍّ الاختيارات الرهيب هذا في جميع السلع، ماذا فعلنا بالهاتف الجديد والسيارة الحديثة وماركات الملابس شديدة الغلاء، ما الإضافة الحقيقية التي أضافتها لنا كل هذه الأشياء؟ ما المعنى الحقيقي الذي أضفناه لأنفسنا؟

نحن نبحث عن المأوى في بيوت من ورق، نبحث عن الغائب في الحاضر والحاضر في الغائب، نبحث عن طمأنينة المستقبل في قلق الحاضر، ونتمنى أن نجد أنفسنا في قلب التيه، نملأ واقعنا بالضجيج بحثًا عن الهدوء، وبالضغط والتوتر بحثًا عن السكينة..!

أنى لنا هذا! أنى لنا وقد فقدنا أنفسنا وهويتنا ووجودنا الحقيقي؟

كان (أكمل) عاقدًا لحاجبيه وهو يستمع لكل ذلك، وغصة تتكون ويزيد حجمها في حلقه، يتجرع مرارة كل ما يُقال، يشعر بضيق في التنفس، لا يجد ما يقوله، فيكمل (عمر):

-الرسالة هي الحياة!

وبالرغم من أن (أكمل) تأثر بشدة، إلا أنه لم يجد ما يقوله فأشاح بيده مستهزئًا..ويقول:

=يا رجل،ألم يقل صديقك الجوكر أيضًا (لماذا كل هذه الجدية؟)

وضحك ساخرًا..

-عذرًا يا سيدي، ولكن الاستهزاء ضعف وقلة حيلة ، وأنا أعلم أنك لجأت إليه لأنك لم تجد ردًا مناسبًا!

=حيلة؟ من ذا الذي يتكلم عن الحيلة؟ وما حيلتك أنت في أوهامك هذه يا جهبذ الجهابذة؟

بُهِتَ (عمر)، وشعر بغصة في حلقه، وقال بصوت متهدج:

-على الأقل أنا لم أجد طريقة لتطبيق ما أؤمن به على أرض الواقع لعدم وجود حيلة بعد، لا لأنني أعاديه وأحاربه!

=حظ سعيد يا دون كيشوت!

سكت (عمر) ولم يجد ما يقوله..

يقول (أكمل):

=أتعلم؟ قديمًا كنت أفكر مثلك.. ولكن الفارق بيني وبينك أنني تركت الأوهام وعِشتُ على أرض الواقع، قلت لنفسي: أفق! كفاك أحلامًا وأوهامًا..

=ليست أحلامًا ولا أوهامًا، بل هي مبادئ راسخة، يجب أن يخضع الواقع لها وليس العكس.

يشعل (أكمل) سيجارًا، فيقول له (عمر):

-أنت حتى لا تدخن هذا السيجار لأنك تحب ذلك بالفعل، بل فقط شعرت أن له وجاهة اجتماعية ما..

هز (أكمل) كتفيه وقال:

=وما المشكلة؟ أنا متصالح مع هذه الحقيقة تمامًا ولم أنكرها يومًا!

-التصالح مع الأفكار والمبادئ التافهة السطحية أمر مشين.. أما أنا فتشغلني فكرة عظيمة، ولا أنشغل بالتفاصيل التافهة!

=أي فكرة أيها العبقري؟

-فكرة الخلود..كلنا نعلم أننا سنموت ولكن لم لا نموت دون أن نترك أثرًا في تاريخ البشرية والإنسانية؟

الفكرة التي تناول تفاصيلها (ميلان كونديرا) في رائعته (الخلود)..

أشار (أكمل) بسبابته وقال:

=هنا تحديدًا مربط الفرس، التاريخ يذكر من هم مثلي وليس من هم مثلك.. التاريخ يذكر أرباب الرأسمالية وليس من حاربوها!

-ما هذا الهراء الأجوف؟ بالطبع لا.. التاريخ يذكر من حاربوا من أجل الإنسانية ورفضوا الاستعباد.. (تشي جيفارا)..(مالكوم إكس)..(مارتن لوثر كينج)....

=ويذكر وسوف يذكر أيضًا (آدم سميث)، (بيل جيتس)، (ستيف جوبز)، (إيلون ماسك) ، وغيرهم!

-يذكرهم نعم، يذكر إنجازاتهم نعم، ولكن من عندما نقرأ عنهم نشعر بالإجلال الحقيقي والاحترام والتقدير!

=هذه مشكلتك، لم تعمم ما تشعر به على البشرية جمعاء؟

-لأن هذا هو ما يتفق مع الفطرة!

=فطرتك أنت، دع لكل إنسان فطرته!

يهز (عمر) رأسه أن لا فائدة من الحديث مع مثل هذا..

-لا فائدة.. اعذرني يا سيد (أكمل)، سأنصرف!

أشار إليه (أكمل) أن يمكنه أن ينصرف لأن لديه عمل..

وبعد انصراف (عمر)، أراح (أكمل) رأسه على ظهر كرسي المكتب، ورفع قدميه على المكتب نفسه، وسرح بفكره في الحوار الذي دار منذ لحظات..

يا له من تخبط، ويا لها من حيرة تمتلكه، ويا له من صراع ثائر يدور داخله..

أنّى له أن يتخلص منه؟

ولماذا يفعل ذلك بنفسه، لماذا يستدعي (عمرًا) للحوار طالما أن هذا الحوار يثير كل هذه الصراعات في نفسه؟

لماذا؟

***

كان (أكمل) مترددًا وهو يقود السيارة، حيث حدد موعدًا مع طبيب نفسي كبير ومخضرم..

هل سيذهب بالفعل، هل سيأخذ هذه الخطوة غير المسبوقة، هل ستكون نقطة تحول في حياته، أم هي خطوة عادية؟

لا، لن يغير رأيه، لقد اتخذ قراره...

وصل عند المبنى الذي تقع به عيادة الطبيب، ونظر نظرة إلى الأعلى، ثم دخل المبنى وصعد..

انتظر قليلًا حتى قال المساعد له أن يدخل..

فدخل متوجسًا، مرتبكًا، فاستقبله الطبيب بابتسامة هادئة مُطمئنة، فجلس وهو يأخذ نفسًا عميقًا..

وبدأ في الكلام..

-الحقيقة يا دكتور أنا لا أعلم بالتحديد لماذا أتيت إلى هُنا.. ولكن بصراحة وجدت أنني لن أخسرَ شيئًا بمجيئي.

أومأ الطبيب برأسه.. وقال:

-في المقام الأول أنا هنا لأستمع فقط.. لتتحدث معي دون حسابات أو قيود.

-اسمي هو (أكمل فريد).. الحقيقة أنني ليس لدي مشكلة معينة، ولكني فعلتُ كل شيء أردته.. ووصلت إلى كل ما تمنيته... ولكنني لا زلت أشعر أن شيئًا ما ينقصني.. لا زلت أشعر أنه هناك ما هو من المفترض أن أفعله وأصل إليه.. لا أدري ما هو بالتحديد؟!

أومأ الرجل برأسه، وأشار له أن يستمر..

-ما السبيل إلى المعنى؟ إنني أحيا حياة بلا معنى وبلا غاية مُحددة..نعم هي حياة مُترفة مُرفهة، نعم هي حياة يتمناها أكثر من نصف سكان هذا الكوكب، ولكن، هناك شيء خطأ..

يتكلم الطبيب فيقول:

=الغرق في المادة سيد (أكمل)، المادة اغتصبت الروح وسلبتنا النسبة الأكبر من فطرتنا الإنسانية.. هذا مفهوم..

زفر (أكمل) وقال:

-بالضبط يا دكتور، هذا هو بالتحديد ما أتحدث عنه..

= الإنسان الحديث مغموس غمسًا في المادة، ويشعر بالبؤس لفقده

البوصلة الحقيقية والهوية المُحددة..

فعندما يفقد الإنسان الاهتمام بقضاياه الكبرى في الحياة، يحدث له خواء، خواء عقلي، وخواء روحي.

فيستبدل بهذا الاهتمام الاهتمام بقضايا تافهة كثيرة، الاهتمام بالاستهلاك، بالتسوق، الانغماس الشديد في الأفلام والمسلسلات ومباريات كرة القدم، أنا لا أرفض هذه الأمور رفضًا مطلقًا بالطبع فهي ترفيه مُحبب ولا أنكر ذلك، ولكن المشكلة هي الانغماس التام فيها، والحياة لها فقط، وترك القضايا الكبرى، والأسئلة الوجودية الحقيقية التي يجب أن تشغل الإنسان. لماذا أنا هُنا؟ وهل من المفترض أن آتي إلى الدنيا وأحيا وأموت تمامًا كما لو لم آت؟

يمر الزمن لتدرك أن محاولاتك الحثيثة للاستغراق في التفاهات وسفاسف الأمور هربًا من المسئوليات الحقيقية والأمور الجادة الجلل ما هو إلا هروب مؤقت سرعان ما سينتهي بتراكم الهموم والأمور العظيمة على قلبك حتى يمتلئ همًّا وغمًّا.... ستواجه الأمور الجادة شئت أم أبيت أو ستواجهك هي..

وسينطلق صوت بداخلك يقول لك: لماذا تحيا؟

ما الذي تفعله في حياتك؟

ما الذي تضيفه؟

ستسأل نفسك عندما تعود من عملك ثم تأكل ثم تجلس لتحدق في التلفاز أو في هاتفك المحمول أو في اللا شيء.. ما الذي أفعله؟ هل خُلقت لذلك فقط؟ وما الذي من المفترض أن أفعله لكي أدرك لماذا خُلقت بالتحديد؟

لن تخضع فطرتك بشكل كامل لسعيك للانغماس في التفاهة قط!

-نعم، نعم يا سيدي، هذه هي المشكلة الكبرى..لقد أصبت الجرح تمامًا!

وسكت قليلًا ثم قال:

- هناك مشكلة كبرى أخرى أيضًا تؤرقني... وهي أنني خُنت ضميري في أكثر من موضع.. وقتلته قتلًا..

وفي الحقيقة لم يكن ضميري فقط هو من مات.. بل ماتت أشياء كثيرة جدًا بداخلي..

لا أدري بالتحديد كيف صرت إلى هذه الحال؟

لو نظرت في عيني لن تجد حياة، لن تجد حسًا إنسانيًا، ستجد عينًا خاوية.. باردة.. متبلدة!

=لا تقنع نفسك بذلك تمامًا، لأن من يفعل سيتعايش مع هذه الحقيقة وسيقابل الأمور ويعامل الناس بتبلد وبرود بالفعل.. عمومًا، احكِ لي، استمر في الحديث..

تنحنح (أكمل)، وقال:

-ما سأحكيه قد يبدو لك عجيبًا وغريبًا، وربما لم تسمع به من قبل.

عقد الطبيب حاجبيه قليلًا، وقال:

=ابدأ، وسأحدد ما إذا كنت سمعتُه من قبل أم لا..

أومأ (أكمل) برأسه، وبدأ في الحديث..

وكانت قصته بالنسبة للطبيب عجيبة بالفعل..

إلى حد غريب

***

الليل..

كان (أكمل) ينتظر الليل..

يقوم من سريره ويطمئن لنوم (هديل)، ثم يقوم بتشغيل الكشاف الضوئي بهاتفه المحمول، ثم ينزل بالسلم، ثم ينزل مرة أخرى ليتجه إلى قبو صغير يخفيه ولا يعلم أحد غيره شيئًا عنه..

يفتح باب القبو بمفتاح خاص أخرجه من جيبه..

يُحدث الباب صريرًا عاليًا..

يمشي في بطء، ينظر إلى الداخل..

كان هناك شخص قابع في الظلام، مُقيَّدٌ بأغلال مُثبَّتة في الحائط..

شخص أشعثُ أغبرٌ هزيلٌ، لا يُدرَك أنائمٌ هو أم مُستيقظ..

نظر إليه (أكمل) في برود وقال:

-كيف حالك الآن؟

يرفع الشخص رأسه في بطء وتعب، ينظر إليه في مقت، ولا يرد لكنه يهذي ببضعة كلمات..

يقول (أكمل):

-أنا أعلم أنك لن ترد فقد أخرستك تمامًا.. أنا فقط أطمئن أنك لا زلت خائر القوى عديم الحيلة!

يستمر الشخص في الهذيان..

وينظر إليه (أكمل) قليلًا، ثم يتركه عائدًا..

ويغلق خلفه باب القبو بإحكام.

***

يقبع هناك، وحيدًا، في غرفة مظلمة تمامًا، أشعث أغبر، يجلس القرفصاء ويبكي بحرقة..

يدخل عليه (أكمل) ويشعل عود كبريت، ويقترب منه ويسأله:

-ما بك يا (عمر)؟

يرفع (عمر) رأسه في بطء شديد، وينظر إلى (أكمل) في كراهية ويقول:

=ماذا بي؟ أحقًا لا تدري ماذا بي؟ لا تدري ما الذي فعلتَه بي وكيف دمرتني تدميرًا؟

-لم أفعل إلا ما رأيته صوابًا.

-صوابًا؟ أنت لم تفعل إلا الخطأ.. لقد ارتكبتَ جريمة كُبرى في حقي.. ولن أسامحك قط!

يصمت (أكمل) قليلًا.. يُفكر..

-إحم.. في الحقيقة لا يُشكل هذا فارقًا عندي.. سامحني أو لا تسامحني!

كان يجب أن أقوم بحبسك وتقييدك يا (عمر).. كان يجب أن أفعل ذلك فلا يجب وجود مثلك حرًا في حياتي..

ينظر إليه (عمر) في كراهية وغضب..

يقول:

-كان من الممكن أن أخرج من حياتك تمامًا دون أن تحبسني وتقيدني بهذا الشكل المهين!

=لا، لا، لن أستريح هكذا قط.. هكذا فقط أضمن ألا تُحدث تغييرًا ما..

-يا لك من وغد.

=لست وغدًا، فقط اضطررت أن أفعل ذلك لكي تستمر الحياة ولكي أحيا في هدوء.

-كل الأوغاد يبررون لأنفسهم ما يفعلونه.

يهز (أكمل) كتفيه في لا مبالاة ويقول:

=وغد أم لا، كان يجب أن أفعل ذلك.

-وهل أنت مستريح بالفعل الآن.

=للغاية، لن تتخيل مدى الراحة النفسية التي أحيا بها.

-كاذب.

=لستُ كاذبًا، لم أكن صادقًا من قبل مثلما أنا الآن!

-لن تحصل على الراحة الحقيقية قط!

=خمّن ماذا؟ حصلتُ عليها بالفعل! مُت بغيظك!

-لن أموت الآن يا (أكمل) وأنت تعرف هذا جيدًا!

=لا أعرف.. لا أحد يعرف متى وأين وكيف سيموت.. أنت فقط تختار على أي حال ستموت ..وأنا قررت ألا أموت أحمقًا!

-الأحمق خير من الوغد.

=ولكنه ليس له مكان في هذا العالم.

-لا يهم، فهو عالم حقير على أي حال.

=أنت أحمق حالم يا (عمر) لذلك كان يجب أن تختفي.

-ربما، ولكنها ليست صفات للشر في هذا العالم على أي حال، ولأن أكون أحمقًا حالمًا خير لي من أكون وغدًا زنيمًا.

=كل ذلك لا يهم أيضًا، المهم أنني مستريح الآن.

-كان من الممكن أن تكون إنسانًا أفضل من ذلك بكثير!

=الحياة اختيارات، وأنا قد اخترت نمط الحياة الذي يجب أن أعيشه.

-هل تدرك مدى كارثة أن تكون مستريحًا لقتلك لإنسانيتك؟

=لا بل أدرك مدى نفع هذا، الغاية تبرر الوسيلة. أنا شخص براجماتي.

-فلتذهب ببراجماتيتك إلى الجحيم.

=مجرد أحمق.

-مجرد وغد!

يضحك (أكمل) ساخرًا، ويترك (عمرًا) في أغلاله و يدير ظهره له ثم ينصرف..

في الليلة التالية، ينزل (أكمل) للقبو مرة أخرى..

ليجد أن (عمر) قد هرب!

***

يقترب موعد زواج (عمر)...

فقد حددوا موعدًا تقريبيًا خلال ستة أشهر..

يتوتر (عمر) ويشعر بالقلق مما هو مُقدمٌ عليه..

يجد نفسه في دوامة، إنهاء تشطيب الشقة، صراعات وجدالات أزلية مع عمال التشطيب، شراء الأثاث، شراء السجاد، شراء النجف، الستائر، الأجهزة الكهربائية ماذا يحدث؟ ماذا أفعل؟

ألوان دهانات الغرف، أشكال وألوان الأرضيات وأنواعها، أشكال وألوان الكرانيش، السجاد والستائر والأجهزة، الأثاث حديث أم كلاسيكي.. إلخ..

ما هذا الكم الرهيب من التفاصيل التي غرقنا بها؟ ما كل ذلك؟ بالتأكيد هناك صورة كبيرة غائبة عن الغالبية العظمى من سكان هذا الكوكب..

بالتأكيد هناك أمر جلل نحن غافلون عنه.. بالتأكيد لم نُخلق لنغرق في كل هذا التفاصيل..!

حجز قاعة لعقد القران، تختلف معه (نهى) في رغبتها في إقامة حفل زفاف ورفضه الشديد لذلك، ثم يجد نفسه مضطرًا لحجز قاعة أفراح بعد ضغط من الطرفين؟ ماذا سيفعل في هذا الحفل؟ آه، سيكون فرحًا سخيفًا مليئًا بالأغاني الشعبية البائسة والرقص وسيجد نفسه مضطرًا لتبادل شُرب كأس (الشربات) مع عروسه بالعكس، وتقطيع التورتة ذات الأدوار، وفرح يبدأ بأسماء الله الحسنى لـ(هشام عباس) ثم المهرجانات الشعبية ورقص عشوائي، ثم صراع المعازيم على البوفيه المفتوح ثم ينتهي الفرح بأغنية (سهر الليالي) لفيروز ثم..

ما الذي يحدث؟! ما هذا السخف؟! لماذا يضطر لكل ذلك؟! وهو الذي عاش عمره يحارب العادات البائسة والتقاليد السخيفة ويرفضها رفضًا قاطعًا!

يجرفه التيار، ويجد نفسه مندمجًا ومنغمسًا في كل ذلك دون أن يجد الفرصة حتى ليرفضه أو حتى يناقشه..!

ها هو قد تزوج وقد قام بالفعل بأشياء عديدة لم يكن يتخيل أن يفعلها يومًا ما!

ماذا عن ما بعد الزواج إذًا؟!

***

ها قد تزوجت إذًا..

ها أنا ذا أخوض تجربة مختلفة، وحياة جديدة..

كيف سيكون شكل حياتي بعد ذلك؟

كيف سيتغير نمط حياتي، وهل سأستطيع الحفاظ على روتيني، وأفكاري، وهواياتي وأنشطة يومي المفضلة؟

هل سأجد نفسي متورطًا في أشياء لا أدرك لم أفعلها بالتحديد، هل سأظل ما تبقى حياتي أسائل نفسي: ما الذي أفعله ؟

أم هل ستتحسن حياتي وتسكُن نفسي وتهدأ أفكاري؟

هل ستساعدني زوجتي لتحمل عبء الدنيا وتخفيف حدة المكابدة، أم ستزيد أعباءها؟

هل سأساعدها أنا أيضًا أم سأكون مصدر تعاستها؟

الآن سأخوض التجربة وأعرف، ها أنا ذا في قلب المرحلة الجديدة.. سنرى!

***

كان (عمر) قد قرر قضاء شهر العسل مع (نهى) بالأقصر وأسوان، فهو يميل إلى الطبيعة أكثر، إلى الهدوء، ولا يميل إلى مناطق مثل (شرم الشيخ) و(الغردقة) حيث الاصطناع والزيف في وجهة نظره..

واتخذ قرارًا أن يفصل عقله تمامًا، ولا يجهد ذهنه بأفكاره البائسة، ويحاول بقدر الإمكان أن يستمتع ويقضي مع (نهى) أوقاتًا لطيفة بدون ما يُكدره..

ونجح في ذلك إلى حد كبير..

وعاد إلى (القاهرة)، وبدأت زيارات الأهالي ليباركوا لهما، ثم تنتهي إجازته ويعود إلى عمله..

لتعود همومه مرة أخرى..

تمر الأسابيع، يحاول (عمر) أن يُشرك (نهى) في اهتماماته ويجعلها تحضر معه الندوات الثقافية ويحاول أن يجعلها تقرأ من الكتب التي في مكتبته الكبيرة، ولكنها تتململ، ولا تستطيع الاندماج في كل هذا فلديها اهتمامات أخرى..

تُصاب (نهى) بالملل، وتخبره بأنها تريد الخروج في أماكن تحبها هي..

-حسنًا يا (نهى)، اقترحي إذًا.

تهز كتفيها وتقول:

-مكان للخروج مثل أي مكان طبيعي يخرج به الناس، المول مثلًا.

يهتف (عمر) مستنكرًا:

=المول؟! لا بالطبع .. أنا أبغض هذا الشيء المسمى ب(المول) بشدة.. لن تتخيلي مدى بغضي له ومدى تجسيده لمعظم ما أكرهه في هذه الدنيا..!

-لا أدرك كل هذا يا (عمر..)أنا فقط أريد أن أذهب لأرفه عن نفسي قليلًا مثل أي إنسان طبيعي!

-وما الترويح عن النفس في الذهاب لرؤية بشر تحولوا إلى آلات استهلاكية، لا تبحث عن شيء إلا الترفيه والمتعة.. ما الترويج عن النفس في السير بين المتاجر التي لا تستطيعين شراء أصغر شيء فيها! لا أدري ما المتعة الحقيقية في الذهاب إلى هذا المكان السخيف!

-لا أدري بالتحديد ولا أرهق نفسي بكل هذه التفاصيل ولكنني أكون سعيدة فحسب!

-وأنا أكون متوترًا بشدة.. مشدود الأعصاب مستعدًا للصراخ في وجه أول شخص أقابله! لماذا لا نذهب إلى متنزه في الهواء الطلق، حديقة مثلًا أو نسير جانب النيل، لماذا نحبس أنفسنا في كتل خرسانية حديثة فقط!

-لا تُعقد الأمور يا(عمر).. الأمر أبسط من ذلك.. فلنذهب ولا نطيل.. نحن لا نذهب كل يوم.

-حسنًا يا (نهى) ولكن لا تعتادي على ذلك!

ويذهبا بالفعل..

يسير (عمر) في المركز التجاري، يتأمل في كم متاجر العلامات التجارية، وكم المطاعم والمقاهي الغربية، ويفكر في كم الاختيارات الرهيب الذي

انغمس فيه الإنسان الحديث، وما فعله الانفتاح الرأسمالي اللانهائي بالبشرية، ويفكر أيضًا على الجانب الآخر في شبه انعدام هذه الاختيارات لدى الفقراء والمعدومين، وفي مدى تناقض هذه الدنيا..!

هكذا اعتاد عقله دائمًا وهكذا يرهقه وينهكه..

تحليل كل شيء يلتقطه بعينه أو بأذنه، حتى آخر قطرة فيه!

يفكر أيضًا في الأزمة الروحية التي غرق بها العالم الحديث، حتى صار يبحث عن سد فراغه الروحي في أمور غير روحية من الأساس، كالاستهلاك الشديد والترفيه اللا محدود..

في الوحشة الشديدة التي يمر بها، وغرقه في المادة حتى أذنيه، ثم يتأمل هل ثمة مخرج من كل هذا؟ لا.. لا يعتقد أن هناك مخرج واضح من هذه الأزمة على المدى القريب أو البعيد.. لا يوجد حتى مخرج طوارئ مثل الذي يراه أمامه الآن في مفارقة ابتسم لها..

تنبهر زوجته بمتجر الملابس هذا وذاك، ويعجبها هذا المطعم ثم هذه الحلوى، بينما هو في وادٍ آخر بعقله الذي كاد يقضي عليه..

أين المهرب؟

كيف يتخلص من أفكاره التي كادت تغرقه وينجو من هذا الطوفان؟

ولماذا هو بالذات؟

يمر على مكتبة شهيرة في وسط كم المتاجر المهول، فيتوقف فينظر إلى الكتب المعروضة، فيتساءل.. هل الكتب هي ما فعلت به ذلك؟ أم شخصيته الحائرة وعقله المتسائل دومًا؟ هل تجدي القراءة نفعًا بالفعل أم تغرقنا في

أسئلة وهموم لا حصر لها؟

كان يتأمل في الناس كما اعتاد، فيفكر..

ما الذي صار بالناس إلى هذا الانمساخ؟!

خاصةً هذه الطبقة الاجتماعية..

لماذا صاروا صورة مكررة مملة نمطية رتيبة، يتحدثون بنفس الأسلوب، يحشرون نفس المصطلحات الإنجليزية في كلامهم، يضحكون بنفس الطريقة، حتى الضحك الذي من المفترض أن يكون تلقائيًا!..

لماذا صاروا مصطنعين وزائفين إلى هذا الحد المخيف؟!

ثم ما هذا الانقباض والتوتر اللذين يشعر بهما ويملآنه أثناء وجوده في مثل هذه الأماكن، سواء في المراكز التجارية الحديثة أو في مجمعات المطاعم التي اشتهرت وانتشرت بشدة في الآونة الأخيرة..

لماذا يشعر دومًا أنه لا ينتمي إلى هذه الأماكن..

هذه الثقافة الدخيلة بشدة، التي جعلتها بلا هوية واضحة..

ما الذي حدث للناس؟

ما هذا الانغماس الرهيب في الاستهلاك والهوس بالشراء والترفيه؟ ما هذا الشغف الشديد؟

كل ذلك يكتسب ثوبًا زائفًا..

لونًا رماديًا كئيبًا..

تختلط الأصوات في رأسه فيشعر شعورًا غريبًا بأن كل هذا هراء.. كل

هذا زيف وخداع انغمسنا فيه حتى النخاع..

المغريات البراقة التي قامت بتنويم الناس مغناطيسيًا ما هي إلا غثاء سرعان ما سيزول سريعًا..

يسير في (السوبر ماركت الموجود بالمركز التجاري، يلتقط المنتجات من الأرفف. وفجأة يتوقف..

ماذا يفعل هنا؟

يشعر بغصة وكآبة..

ماذا يشتري بالتحديد؟! أشياء عشوائية لا يحتاج لنصفها! أهذا هو ما كان يؤمن به؟ أين مبادؤه؟ أين نظرياته وأفكاره وأحلامه؟! هل خُلقَ لهذا؟ يفيق على زوجته وهي تضع منتجًا آخر لا يدرك كنهه بالتحديد في عربة التسوق اللعينة..

فليدور في هذا السوق العملاق بائسًا حتى يصل إلى ماكينة الحساب..!

يقول لنفسه..توقف لتسأل نفسك ما جدوى ما أفعله؟

ما الفائدة الحقيقية التي ستعود علي عند شراء هذا المنتج؟

ما الإضافة الحقيقية لي عند مشاهدتي لهذا المنشور على فيسبوك ومشاركتي له، وعند تصفحي له بلا هدف محدد؟

اعط لنفسك فرصة لتتساءل عن جدوى كل شيء.. وعن الفائدة الحقيقية من كل حركة وسكنة لك.

ينتهيان من جولتهما بالمركز التجاري ويخرجان منه ليجد (عمر) أنه تورّط في إنفاق مبلغ وقدره، لا يدري فيم أنفقه بالتحديد، فيبتئس أكثر وأكثر، ثم

يعودان إلى المنزل فتسأله (نهى):

-ماذا بك يا (عمر)؟ مهموم ونحن بالخارج.. مهموم ونحن في الطريق بالسيارة.. مهموم بالمنزل..ما الداعي لكل هذا الحزن والبؤس؟

يتنهد (عمر) ويهز رأسه في أسف، ويقول:

=لا أدري يا (نهى)، حقيقة لا أدري لم كل هذا الحزن، ربما تكون هناك أمور تزعجني وتضايقني ولكنها كما تقولين لا تستدعي كل هذا البؤس..

-إذًا هوّن عليك يا (عمر).. في الحياة هموم كثيرة ولو حملناها كلها لهلكنا! ولصارت لا تُحتمل!

أومأ (عمر) برأسه وقال:

=حسنًا يا (نهى).. سأحاول بصدق.. وحاولي معي أيضًا ألا يضيع وقتنا ويذهب عمرنا هباءً..

-وكيف ذلك؟

= ما رأيك أن نخصص وقتًا محددًا في اليوم أو كل يومين، لنقرأ كتابًا ونتدارسه سويًا؟

نظرت إليه (نهى) في شيء من الخوف، وأومأت برأسها على مضض، وهي تفكر فيما ورطت نفسها فيه!

هي تحبه نعم، متعلقة به نعم، ولكن أي بائس وتعيس هذا؟!

لماذا يحمل هموم الدنيا كلها، يحمل همومًا ليست همومه، لماذا يأخذ الدنيا على محمل الجد إلى هذا الحد الرهيب!

أليست الدنيا أبسط من ذلك بكثير؟!

هي تفكيرها بسيط للغاية، لا تحب أن تعقد الأمور..

لماذا نعقّد كل شيء؟ هي تعتقد أنها لو فككت وحللت كل شيء ستُجن!

وبدأت تتوجس خيفة حقيقةً من حياتها مع (عمر)!

هل ستستطيع إكمال الحياة بهذا الشكل؟!

***

كانت (نهى) عند والدتها، وكان (عمر) قد عاد من عمله واستراح قليلًا في منزله قبل أن يذهب ليعود بها إلى بيتهما..

وعندما عادا إلى المنزل.. سمع شهقتها بعد قليل وهي تقول:

- عمر! لقد تمت سرقة التلفاز!

=لم يُسرق يا نهى.. لقد أخفيته!

-أخفيته! ولماذا؟! قالتها في استنكار شديد

=لأنني سئمت وسائل التواصل والتكنولوچيا ولم نجن من ورائها غير الويلات.

-ولكننا سنفقد الصلة بالعالم الخارجي!

=وماذا فعلنا بها؟ وماذا جلبت لنا غير الكآبة والتعاسة والبؤس؟! فلنجرب أن نعيش بدونها فترة وننظر.. وبالمناسبة لقد أخفيت هاتفي المحمول أيضًا واشتريت جهازًا بسيطًا لأقوم بالاتصالات الضرورية فقط!

-أنت مجنون يا عمر!

=صدقيني هذا ليس جنونًا.. هذا ملل وسأم.. هذه ثورة على الروتين

القاتل الممل..

-وماذا نفعل في حياتنا إذًا؟

=ربما هذا هو الذي دفعني لأن أفعل ذلك... لهذه الدرجة توقفت حياتنا على هذه الآلات فصارت بلا معنى بدونها؟! فلتحترق هذه الأجهزة جمعاء! ربما لابد لنا أن نفكر بالفعل ماذا نفعل في حياتنا بدونها! وهذه فرصة للتفكير! وفرصة للتفكير أننا لم نُخلق لهذه الحياة التعيسة! فرصة للتخلص من هذا الكسل العقلي القاتل! فرصة للتخلص من هذا الإدمان المُقنع!

-أنت تبالغ كثيرًا يا (عمر) وأنا لم أعد أحتمل ذلك! الحياة لا تستقيم هكذا!

=صدقيني لا أبالغ.. فلنجرب لمدة أسبوعين مثلًا ثم نحكم.. لو لم تتحملي تمامًا أعيده.

-حسنًا يا عمر.. دعنا نرى!

وقلبت كفيها متحسرة على نصيبها..

وعلى هذا المجنون الذي ابتُليت به!

***

كان (عمر) جالسًا في غرفة المعيشة يقرأ كتابًا، بينما تُعد (نهى) الطعام..

يبدأ (عمر) في التفكير..

يبدأ في مراجعة نفسه..

ما الذي سيفعله بالتحديد بالفعل؟

ما الذي عليه أن يقوم به؟

ما السبيل لتطبيق مبادئه على أرض الواقع؟

ها قد تزوج..

هل سيظل ما تبقى من حياته يقرأ ويحضر الندوات الثقافية فقط؟

هل سيظل ما تبقى في حياته في التنظير فقط؟

الآن هو مشتت الفكر حائره، هل يستسلم وينفض كل هذه المبادئ والأفكار ويعيش مثل أي أحد، أمل هل يتشبث بها حتى يجد طريقة ما لتطبيقها..

هو يعلم أنه ما من سبيل واقعي للتغيير.

هل يقود ثورة على الرأسمالية؟ هراء بالطبع، لن يُجدي ذلك نفعًا ولن يستجيب له أحد إلا قليلًا من الناس، من الاشتراكيين مثلًا أو من المقهورين أو من مَن هم مُحمَّلين بنفس أفكاره..

هراء .. هراء..

ربما يبدأ يومًا في مراجعة نفسه..

ربما!

***

يترك (عمر) الشركة التي يعمل بها لأنه وجد عملًا في شركة أخرى براتب أفضل..

ها أنا ذا في شركة جديدة وتجربة جديدة..

تم تعييني في موقع عمل بعيد للغاية عن منزلي ولكن لا بأس، سأعتاد ذلك..

المهم أن يكون عملًا مريحًا نفسيًا..

مرٍ يوم، والثاني، والثالث، ومر الأسبوع الأول.. وللأسف وجدت الأمر منهكًا للغاية..

أستيقظ مبكرًا للغاية، لألحق بالمواصلات، فأنا أضطر لركوب ثلاث أو أربع مواصلات للوصول إلى موقع العمل، أتحمل ذلك على وعد من إدارة الشركة بتوفير وسيلة انتقال في أقرب وقت..

وفوق ذلك أظل في الموقع بعد انتهاء ساعات العمل الرسمية بساعتين أو ثلاث، سواء كان هناك عمل ننجزه أم لا، ولكن مديري يريد ذلك، فقط لنظل بالعمل فقط لأن المشروع سريع ويجب أن ننجزه سريعًا، وأحيانًا فقط لأننا لا يجب أن ننصرف قبل انصرافه..

ومر الأسبوع الثاني على الحال نفسها، وبدأنا أنا وزميلي الجديد بالموقع أيضًا نتذمر وننزعج بشدة، خاصة أنهم لم يوفروا وسيلة انتقال بعد، وأنه لا توجد خطة عمل محددة..

الآن أبدأ في الإدراك أنني لن أستمر في هذه الشركة كثيرًا..

بدأنا نحاول أن نلفت انتباه مديرنا ومدير المشروع إلى أننا نعتقد أننا بشر، ونعتقد أن لنا أهل، ولنا حقوق ولهم علينا حقوق وأن هناك أمور أخرى في الحياة يجب أن نقوم بها غير العمل، فكان يرد علينا - مدير المشروع - بأننا من الجيل الجديد البائس أشباه الرجال الذين لا يتحملون ظروف العمل ويريدون أن تكون كل الأمور يسيرة وبأنه عندما كان في مثل عمرينا كان

ينحت في الصخر ويعمل ويعمل ويتحمل أي شيء، إلى آخر هذا الهراء..

وكأن الرجولة هي فقط تتمثل في العمل حتى الليل أو في أماكن نائية، وكأن الحياة هي فقط العمل ثم الذهاب للمنزل للنوم ثم الاستيقاظ صباحًا للذهاب إلى العمل، فقط!

وهكذا للأبد كالثور في ساقية، حتى الثور يستريح بعض الوقت!

وكأن تجربته الشخصية هي التجربة الوحيدة التي يجب أن يخوضها المرء كي يصير رجلًا، وكأنه المثل الوحيد الذي يُحتذى به!

ما لنا نحن وماله عندما كان ي عمرنا؟

مالنا نحن ومال تجربته الشخصية؟

لماذا يصر هؤلاء القوم أنهم النموذج الأمثل الوحيد؟

ما هذا البؤس؟ وكيف يصل المرء إلى هذا السن وهذه هي كل فكرته وخبرته عن الحياة؟!

مر شهران، وحقيقة لم أعد أحتمل، ليس لقلة رجولة مني كما يقول مدير المشروع، ولكن لتخيلي حياتي بعد ذلك وأنني لن أتخيل أن تستمر حياتي على هذا النمط غير الآدمي لسنوات!

متى نبت في وادينا كل هؤلاء الموتى الأحياء؟

متى صار العمل هو الحياة، والحياة هي مجرد أثر جانبي له؟!

متى وكيف ولماذا صار هو كل شيء؟!

على العموم، وجدتُ عملًا في شركة استثمار عقاري جديدة..

وها هي مرحلة أخرى..

***

إني أنهار..
أفقد كل شيء..
أفقد ذاتي
أفقد إنسانيتني..
الحقيقة هي أنني فشلت في كل شيء.
فشلت في تنفيذ مبادئي على أرض الواقع
فشلت حتى في أن أتجاهلها وأدوس بقدمي عليها
لقد تعبت وسأمت..
سأمت المكابدة.. سأمت المعاناة..
كل ما أردته هو فقط الشيء الذي لم أجده قط!
من أنا بالتحديد؟
وماذا أفعل هنا؟
هل خُلقت لهذا؟
هل أنا في المكان الصحيح والسليم؟
ماذا علي أن أفعل بالتحديد؟
لكي أصل إلى ذاتي..

لكي أدرك ماهيتي..

أريد أن.. أن أبكي..

أن أجد الوقت لألتقط أنفاسي وأنهار وأبكي..

ولكن لا وقت..

لا وقت في عالم لا يرحم..!

عالم بائس تعيس..!

عالم لا نتوقف فيه عن الركض واللهاث..

ولا تجد الفرصة حتى لكي تتوقف وتلتقط أنفاسك وتسأل نفسك سؤالًا:

لماذا أركض من الأساس؟ إلى أين أتجه؟ ما نهاية هذا الركض في المضمار السرمدي؟!

عالم لا نتوقف فيه عن الاستهلاك، والبحث عن أموال للاستهلاك..

الإغراء الأبدي بالرفاهية لكي تسعى دائمًا لامتلاكها..

عالم لا تشعر فيه أنك حي.. ولا ميت أيضًا..

لا تريد أن تقترف إثم الانتحار، ولا تستطيع أن تتحمل ضغط الحياة أيضًا..!

أريد أن أحيا في عالم بديل..

حياة بديلة..

أريد إجابة هذا السؤال فقط..

من أنا؟!

علي مواجهة كل هذا وحدي..

وحدي تمامًا..!

كل هذه الأشياء التي عرفتُها...

كل هذه الهموم التي حملتُها..

كل هذه السُبل التي سلكتُها...

أنبأتني شيئًا واحدًا ووجهتني إليه توجيهًا..

أنني لا أعلم شيئًا..!

ولا أدرك شيئًا...!

وأن هذه الحياة لغز كبير..!

من أنا؟

أنا مجرد شرخ صغير جدًا في قلعة كبيرة من الزجاج..

شرخ لا يُرى بالعين المُجردة ولن يحدث تأثيرًا في القلعة إلا بعد مئات السنين، هذه لو أحدث..

حسنًا.. سأموت على ذلك.. سأموت دون أن أشهد التغيير الذي أسعى إليه..

ولكنني لا زلت شرخًا..

أتمنى أن يأتي غيري ليجعل من هذا الشرخ شرخًا أكبر ويكسر قلعة الزجاج..

لتنهار كلها!!

تنهار ليظهر لنا ذلك الشيء الغامض المنتشر..

شيءٌ ما!

القَسم الثانِي: مُفترَق طرق

"وستتحول الحياة إلى عملية ركض متواصل ينسحق فيها تحت الحشود من يتوقف ليلتقط أنفاسه"

-كارل ماركس

أنت بائس..!

بائس ولا شك..

تعيش حياتك كلها في قلق دائم..

تفكر في الدراسة والامتحانات، ثم في الجامعة وتشعر بالقلق أثناء كل ذلك..

تفكر في العمل وفي الزواج.. وتعيش في قلق..

تتزوج ثم تعيش في قلق الإنجاب.. تنجب ثم تعيش في قلق على أولادك.. قلق من مرضهم.. قلق من تربيتهم..

تفكر في تعليمهم.. ما المدارس المناسبة لهم؟ وكم ستدفع؟ ما الجامعة التي سوف يلتحقون بها؟ ماذا عن سوق العمل؟

قلق.. قلق.. تفكير دائم.. تعيش تعيسًا بائسًا لا تجد الوقت لكي تفكر لماذا تعيش من الأساس..

القلق والاكتئاب..

القلق المرضي الذي أدى إلى اكتئاب.. !

القلق المرضي المميت المُزمن الذي التهم نفسك من الداخل التهامًا، ثم أدى إلى الاكتئاب..!

الفجوة الرهيبة بين ما تتمناه وبين ما تقدر عليه.. أصابتك بالاكتئاب.. بالعجز.. العجز قاتل!

تعيش مصابًا بهلع مُزمن، قلبك يتقافز فزعًا بشكل شبه دائم..

لا تجد فرصة لكي تلتقط أنفاسك..

باختصار..

أنت بائس!

***

كانت (هديل) تنطلق بالسيارة مسرعة، وتفكر..

يجب أن أقوم بهذا الأمر، ما اكتشفته ليس بسيطًا..ليس أمرًا عابرًا.. إنه أمر مصيري!

سأفعل ما أنوي فعله حتى لو كان غير أخلاقي!

غير أخلاقي؟ لا يهم كثيرًا طالما هو ضرورة.. الضرورات تبيح المحظورات..

ثم أنه ليس (غير أخلاقي) للدرجة، طالما هي قررت أنه كذلك..

هي تعتبر أنها عبقرية نادرة، وتعتمد على عقلها طوال الوقت في تقييم الأمور وأحيانًا كثيرة تعتقد أنها لا تحتاج إلى مرجعيات أخرى..

ولكن هناك ذلك الشيء.. شيء ما في داخلها يقول لها ألا تفعل..

تتجه يمينًا بالسيارة بشكل مفاجئ لتتوقف بجانب الطريق، وكادت السيارة التي كانت تسير خلفها تصطدم بها، وخرج سائقها من نافذتها ليطلق سبابًا فتجاهلته، وتوقفت، لتفكر..

أتفعلها أم لا؟

وما مآلات هذا الأمر لو تم كشفه؟

لا.. لا.. ستتخذ كل احتياطاتها جيدًا لكي لا ينكشف..

هي تعلم ما تفعله جيدًا.. وقرارها سليم وصحيح.. ولن تتراجع..

فلتتجاهل ذلك الصوت بأعماقها..

زفرت في قوة، واتخذت القرار النهائي...

وانطلقت مرة أخرى بالسيارة وهي عازمة، ووصلت لوجهتها..

ركنت سيارتها.. وتلفتت حولها بشكل تلقائي.. وانطلقت سائرة..

وقفت على مدخل المكان المنشود، لتجد رجلًا في انتظارها

كان الجو العام هادئًا للغاية، في ذلك المقهى ذي الطابع الغربي في منطقة (الشيخ زايد)، فالوقت كان منتصف اليوم ولم يزدحم المقهى بعد، عندما دخلت (هديل) المقهى بصحبة الرجل الذي قابلته، واختارت أبعد ركن في المقهى لتجلس به معه..

وبدأت (هديل) بالحديث..

-لن أطيل عليك.. ولم أحضرك هنا لنتسامر.. ولكني أريدك في شيء هام.. هام للغاية.

يومئ الرجل برأسه..

-الأمر شديد السرية، ولو سمع به مخلوق على وجه الأرض غيرك سيكون وبالًا عليك.

توتّر الرجل، وسألها:

=أي أمر هذا؟

-سأشرح لك، ولكن أؤكد لك مرة أخرى أن هذا الأمر لو سمع به شخص غيري وغيرك سأقتلك، سأقتلك بحق وليس مجازًا!

توتر الرجل أكثر، والتفت يمينًا ويسارًا بشكل تلقائي، وبدأت (هديل) في الشرح..

استغرقت حوالي عشر دقائق، والرجل يشعر بالذهول لما تقول ثم اعتدلت في مجلسها وقالت:

-ها.. ما رأيك؟

=رأي ماذا! أي عقل شيطاني هذا!

-لا تضع وقتي ووقتك في هراء، ستحصل على مبلغ لم تكن تحلم به، هيا قل لي ما رأيك، موافق أم لا؟

تردد الرجل قليلًا ثم قال:

=موافق.. موافق بالطبع! ولا تقلقي، لن يعرف مخلوق بما سيحدث!

ابتسمت (هديل) وقالت في ثقة:

-أعلم هذا جيدًا.. حسنًا، سأحدد الموعد وأجهز كل شيء وأخبرك.

=حسنًا.. في انتظارك.

واتسعت ابتسامتها..

فما تنوي فعله كان خطيرًا..

خطيرًا للغاية!

***

كان (عمر) جالسًا مع (نهى) ، عندما سمعا جرس الباب، فقام (عمر) وهو يقول:

-إنه أخي (علي)، قد وصل.

كان (عمر) قد دعا أخاه لتناول العشاء معه، وكان في انتظاره..

رحّب (عمر) بأخيه، وأدخله ليجلس في غرفة المعيشة..

بعد السؤال عن الأحوال، يقول (علي) ل(عمر):

=أما زلتَ مهمومًا كما عهدتُك.. لقد ظننتُ أنك سوف تتغير بعد الزواج..

يقول (عمر):

-لا أدري لماذا أحمل كل هذه الهموم؟

=ولماذا تحملها بالفعل.. وما شأنك؟

-ما شأني؟ هل أحيا في هذا العالم وحدي؟ أنا أؤمن لأنني علي أن أسعى في جعل هذا العالم مكانًا أفضل!

=ولماذا عليك هذا؟

-لأحقق معنى وجودي في هذه الدنيا! هل خُلق الإنسان ليأكل ويشرب ويستهلك ويتكاثر فقط؟!

=ما الذي من المفترض أن يفعله إذًا؟

-كما قلت! أن نسعى في جعل هذا العالم مكانًا أفضل! أن نعمره ماديًا

وإنسانيًا.. حسنًا، دعنا نفكر من منطلق مادي نفعي بحت.. سنسعى لجعله مكانًا أفضل لنا ولأبنائنا وأبنائهم من بعدنا!

=فليتولوا أمورهم بأنفسهم.. ولنتولى أمورنا نحن.. الحياة قصيرة ولا تتحمل كل هذا!

-لا فائدة! سأشرح لك الأمر أكثر.. أنا أتحدث عن حيرة إنسان ما بعد الحداثة.. هل تعرف ما هي ما بعد الحداثة؟

يجيبه (علي) ساخرًا:

=أنا أعرف ما بعد (اللا مؤاخذة)!

-لا تسخر يا (علي).. إنسان ما بعد الحداثة هو الإنسان المتمحور حول ذاته، الذي جعل ذاته وملذاتها ومتاعها مركز الكون.. المهتم برفاهيته واستهالكه ومتعته على حساب اهتمامه بالشأن العام وما يدور حوله.. فليحترق العالم، المهم أن يستمتع ويستهلك ويعيش حياته!

=وهذا هو ما فرضه علينا العالم الحديث والذي لا فكاك منه!

-وهو ما يجب أن نرفضه أيضًا.. ليس لمجرد أنه مفروض علينا وصار أمرًا واقعًا أن نستسلم له!

=وماذا بأيدينا إذًا؟ ما تتحدث عنه متجذر ومترسخ منذ زمن طويل.. طويل جدًا.. ربما مئات السنين.. ولا يوجد ما نفعله لتغييره!

-فلنضع البذرة إذًا.. فلنكون سببًا في جعل هذا العالم مكانًا أفضل!

=كفاك هراءً! كفاك إضاعة لوقتك ولصحتك ولدماغك في هذه الترهات!

-ترهات!

=نعم ترهات! كان غيرُك أشطر! أفق لنفسك يا (عمر)، أنت لست (سوبرمان)!

-اسمع! ما أقوله ليس هراء! نحن في مجتمع استهلاكي، والمجتمع الاستهلاكي يقوم على وعد بإشباع جميع الرغبات البشرية بما يفوق ما كان ممكنًا في الماضي وما كان قابلًا للإشباع! ولكن هذا الوعد لا يحتفظ برونقه إلا بعدم الإشباع.. لأن وجود الإشباع التام والنهائي للرغبات مستحيل.. لأنه بذلك تنتهي حجة الرأسمالية الاستهلاكية في الاستمرار! (*)..

والضحية هو الإنسان ..

الإنسان المغترب..

الإنسان الذي يحيى في اللا يقين..

الذي يمتلئ بالهشاشة النفسية، فيحاول تغطيتها بالاستهلاك والاستهلاك ثم الاستهلاك..

دائمًا يشعر أن هناك ما ينقصه، تُشعرك الإعلانات التجارية بأنه يجب أن يمتلك كل شيء..

يشعر بضغط رهيب..

يركض، ويركض، ويلهث، ولا يصل قط!

(*) مستوحى من كتاب (الحياة السائلة) لزيجمونت باومن

الخوف من المستقبل يدفعه إلى أن يستمتع بكل لحظة في الحاضر انظر إلى حالة البلادة التي أصابت معظم الناس! انظر إلى تفاعلهم مع الكوارث والمآسي! لقد أصابتنا بلادة وانعدام الشعور.. شيء طبيعي مع نمط الحياة القاتل للإنسانية!

تشتت ذهني، بلادة، ذاكرة ضعيفة، أمراض العصر الحديث!

ننتظر عطلة نهاية الأسبوع، ثم ننتظر عطلة الصيف لنسعى أن نسافر خارج المدينة للمصيف، ننتظر وننتظر، نمط حياتنا صار آليًا قاتلًا! كل شيء خطأ.. كل شيء بائس!

=كلام كبير يا (عمر)، وفلسفي، والحقيقة أنه لا يسمن ولا يغني من جوع، ولن يحدث فارقًا أن تعلمه وتدركه لأن الأمور ستبقى كما هي شئنا أم أبينا!

-يا (علي).. أرجوك افهمني.. هناك أسئلة كثيرة تؤرقني.. متى نتوقف عن سعينا المحموم نحو المظاهر؟ متى نتوقف عن سعار الاستهلاك والبحث عن المتعة والمتعة فقط؟ متى نصبح ذوي هموم أكبر من الطعام والشراب والملبس واللهاث خلف المال؟ متى نصبح بشرًا بحق ونتوقف عن كوننا عبيدًا أو غنمًا تُساق؟ لماذا يتحكم حفنة من البشر في رغباتنا وفي هوياتنا وفي نمط حياتنا حتى نسينا ذواتنا الحقيقية؟ من نحن ولماذا نحيا وماذا نريد بحق؟ وما الذي يُفترض أن نفعله في حياتنا؟ تُنتهك أعمارنا وتضيع حياتنا في اللا شيء.. تمر بنا الأيام لندرك أنها ذهبت سُدىً دون نفع.. نحن مُستهلِكون بشراهة، ومُستهلَكون بعنف أيضًا! لم يصبح الترفيه مجرد (ترفيه) ولكن صار هو الأساس والقاعدة.. نبحث في فراغنا عما نرفه به عن أنفسنا فقط، لا فيما ينفعنا.. نبحث عن المتعة والرفاهية بدلًا من أن نشغل وقتنا بما ينفعنا ونرفه

فيما تبقى منه! لماذا لا نرتقي بأنفسنا فوق كل هذا الهراء؟

= أنت من تنهك نفسك بكل ذلك! هكذا هو نمط الحياة الحديثة ولا مفر منه! ستموت كمدًا يومًا ما من كل هذا البؤس الذي أحييت نفسك فيه! لم كل ذلك؟

-لم كل ذلك؟ لأن الوضع صار بالفعل بائسًا إلى أقصى حد!

=ولم تحمل الهم إلى هذه الدرجة! لن يتغير شيء فعش حياتك وافعل ما شئت بها فحسب ولكن لا ترهق نفسك بالتفكير إلى هذه الدرجة! ستموت!

-كلنا سوف نموت..

=لا فائدة.. افعل ما شئت بنفسك يا (عمر..!

وضرب كفًّا بكفّ متعجبًا.. ثم قال:

=افهم يا (عمر).. صدقني ما تفعله بنفسك لن يُقدم ولن يؤخر.. فقط سيؤذيك أنت.. أنت الأحمق الوحيد الذي سوف تتأثر.. يا (عمر).. من الجميل أن تكون لديك مبادئ.. ولكن من القبيح أن تلتهمك هذه المبادئ التهامًا حتى تصل بك إلى هذه الحال التعيسة!

سكت (عمر) قليلًا، ثم قام وقال في حماس:

-افهمني يا (علي).. لابد أن تكون لك فلسفة ما.. فكر ما.. لا يصح أن تعيش هكذا بدون أي رؤية أو هوية أو هدف أو فكر واضح، تترك الحياة تُسيرك كيف تشاء، لابد أن تدرك أنك موجود في هذه الدنيا لغاية، لا ليذهب عمرك هباءً منثورًا..

مط (علي) شفتيه وقال:

=المبدأ سليم يا (عمر)، ولكن التطبيق أبسط من ذلك، لا يجب أن تحمل كل هذه الهموم وتغمس نفسك في هذه الكآبة كي تكون لك رسالة أو كي تحيا لغاية.

هز (عمر) رأسه في أسف وهو يقول:

-هذا ليس بيدي للأسف، إنه أثر جانبي.

=وكيف تقنع غيرك برسالتك، وتجعله يؤمن بمبادئك وهو يراك كئيبًا هكذا، حاملاً هموم الدنيا بهذا الشكل!

عقد (عمر) حاجبيه وهو يقول:

-لم أفكر في الأمر من هذه الناحية من قبل.. ربما أنت على حق.. ولكني لا أدري ماذا أفعل لكي تنقشع هذه الغمامة من صدري..

=يجب أن تراجع نفسك كثيرًا، لن تجني شيئًا وأنت على هذه الحال.. يجب أن تدفعك مبادئك للعمل وللتحرك لا للركون والابتئاس فحسب!

أومأ (عمر) برأسه، وقال:

-ربما أنت على حق بعض الشيء.

دخلت عليهم (نهى) في هذه اللحظة وهي تحمل المشروبات، وشكرها (علي) وهو يقول:

-سمعت أن (عمر) يضايقك، مُزعج طوال عمره!

ضحك الاثنان وقالت (نهى):

=نصيبي، ماذا أفعل؟

يقول (علي) ل(عمر):

-ارحم الفتاة يا أخي، أنتما لا زلتما في بداية حياتكما، لا تُحيها في هذا البؤس.

يمط (عمر) شفتيه آسفًا، وتصطنع (نهى) الضحك وهي تخفي في نفسها الحسرة..

حسرة لا تجد لها مخرجًا!

فهي لا تدرك بالتحديد أين المشكلة!

وما هذا الذي تحيا فيه؟ ما الأمر؟

ليس هناك شيء ملموس ولكنها وجدت نفسها فجأة في وسط محيط بلا قارب!

ماذا عساها أن تفعل بالتحديد؟!!

***

تمر الأيام ويستمر (عمر) على هذه الحال..

كان (عمر) جالسًا يقرأ كعادته، عندما دخلت عليه (نهى) وقالت:

-عمر.. أريد أن أخبرك شيئًا..

وضع (عمر) علامة الكتاب عند الصفحة التي توقف عندها وأغلق الكتاب ووضعه بجانبه، ثم قال:

=تفضلي يا (نهى).

-أنا لم أعد أتحمل كل هذا يا (عمر).. لم أعد أتحمل كل هذه الكآبة وكل

هذا البؤس.. اعذرني..سأذهب بضعة أيام لأهلي..

=لماذا يا (نهى).. دعينا نتحدث .. لا تتركيني هكذا..

-آسفة يا (عمر).. الحديث ليس مُجديًا.. سأذهب لألتقط أنفاسي ولأحصل على هُدنة قليلًا.. وأتركك لتُفكر بهدوء في حياتنا.. تفكر في أن تتغير لتحيا حياة هادئة وتكون إنسانًا طبيعيًا!

= وهل تظنين يا نهى أنني لا أتمنى أن أكون كذلك؟ هناك حاجز رهيب بين رغباتي وبين مبادئي. التيار جارف وساحق. أنا غير معترض على أن المغريات لا نهائية، الاستهلاك شديد الإغراء! والمال فتنة كبرى! بالطبع أتمنى أن أصير ذا مكانة عالية في المجتمع وصاحب رأسمال عظيم! ولكن مبادئي تقيدني، ترفض ذلك، الصراع بين أفكاري ومبادئي وبين رغباتي وشهواتي صراع ساحق، وهو سبب من الأسباب الرئيسية في ابتئاسي الدائم هذا!

تهز (نهى) رأسها في أسف.. لا فائدة في هذا البائس الذي التهمت الكتب والمعرفة عقله.. عم يتحدث؟ هل تداخلت الأسلاك ببعضها؟ تقول:

-أنا لم أعد أحتمل كل هذا الكلام الكبير.. سأذهب..

=كما تشائين يا (نهى) لو أن هذا سيريحك!

تغضب (نهى) من (عمر)، وتذهب لأمها بالفعل.. تتحدث معها وتشكو (عمرًا)..

تقول أمها:

=ما بك يا ابنتي؟ ماذا فعل بك؟

-لا أدري يا (أمي).. لقد كنت أتخيل أن ما كان يقوله لي أثناء فترة

الخطوبة كان مجرد أحلام عنده، مجرد أفكار عابرة، لم أكن أعلم أن الأمر يشغل باله ويشغل كل لحظات حياته إلى هذا الحد المخيف! طوال الوقت مهموم، طوال الوقت حزين، لا يبتسم إلا قليلًا.. كأنه وحده مُكلف بمهمة إنقاذ هذا العالم.. هو ليس سوبرمان!

=قلبي معك يا ابنتي.. لا أدري ما أقول لك! بماذا أواسيكِ؟ ولا أفهم ما المشكلة بالتحديد؟ هذا أمر جديد عليَّ تمامًا! أنتِ لا تستحقين كل هذه التعاسة.. أنت لا تستحقين إلا البهجة والسعادة!

-لقد تعبت يا أمي ولن أستطيع إكمال الحياة كذلك!

-لا.. لا يا ابنتي.. لا أتمنى خراب بيتك!

-هذا عندما يكون هناك بيت.. هذا ليس بيتًا.. هذه ليست أسرة.. هذه ليست حياة.. لا بأس يا أمي.. سأتخطى الأمر سريعًا وسأستطيع أن أحيا بدونه!

-حسنًا يا ابنتي.. سأتحدث مع أبيك وليكن ما يكون..

بعد قليل، كان الثلاثة يجلسون سويًا، وأبو (نهى) يسألها:

-ألا تستطيعين التحمل على الإطلاق؟

تهز (نهى) رأسها نافية.. ويهز أبوها رأسه في أسف..

ويقول:

-حسنًا.. سأتحدث مع (عمر).

-كما ترى يا أبي.

يمسك أبوها بهاتفه المحمول ، ويتصل ب(عمر)، ويسأله بعد السلام:

-أين أنت الآن؟

يصمت قليلًا ثم يقول:

-حسنًا.. أنا في انتظارك.

يصل (عمر) بعد ساعة تقريبًا، ويجلس مع والد (نهى) وحدهما..

يسأله والدها:

-حسنًا. ماذا بك يا (عمر)؟

=ماذا بي يا عمي؟

-(نهى) تقول أنك دائم العبوس دائم الهم، لا تبتسم إلا قليلًا، وهذه أمر صعب أن يتحمله أحد..لا تستقيم الحياة به..لم كل ذلك؟

تنهد (عمر) وقال:

=الأمر ليس بيدي يا (عمي)..حال الدنيا لا يعجبني ولا أشعر براحة على الإطلاق.. العالم صار موحشًا كئيبًا لا يُحتمل!

-وبعد يا بُني؟ ما الذي بأيدينا؟ هل الحل أن نظل طوال الوقت تعساء مهمومين؟ هل الحل أن نُحول حياتنا جحيمًا؟ أم أن نتعايش مع الوضع ولا بأس أن نسعى في تغييره دون أن نفعل ذلك بأنفسنا؟

=حاولت يا عمي.. حاولت كثيرًا أن أتعايش ولكن لا فائدة.

- أمرك عجيب يا (عمر).. في الحقيقة هذه أول مرة في حياتي أتعرض لمثل هذه المشكلة.. رغم أنني رأيت الكثير وتعرضت للكثير!

=أنا نفسي لا أدري أين الخلل بالتحديد!

تنهد الرجل، وقال:

-أتعلم أن (نهى) لم تعد تحتمل وتريد الطلاق؟

خفق قلب (عمر) بشدة، وابتلع ريقه، وقال:

=لهذه الدرجة؟ ولكن لماذا؟

-أتسأل لماذا؟ سل نفسك يا (عمر).. لا توجد امرأة تتحمل ذلك.. لا زلتم صغارًا على كل هذا الهم!

= سأحاول أن أتغير.. أعدك يا عمي ولكنني لا أستطيع الحياة بدونها!

-لا محاولة يا (عمر).. إما أن تتغير بالفعل وإما الخروج بالمعروف..ليس هناك أب يرضى هذه الحياة التعيسة لابنته!

=حسنًا يا عمي! الله المستعان..

تمر الأيام..

ولم يتغير (عمر)..

حاول ولكنه فشل..

وحاولت (نهى) أن تحتمل هذه الحياة ولكنها فشلت أيضًا..

ظل (عمر) مهمومًا حزينًا كما هو..

وكادت (نهى) أن تجن.. لماذا كل هذا!!

وتم الأمر سريعًا..

تم الطلاق بعد حوالي عام من الزواج..

تم بهدوء وبدون ضجيج، فقد كانت أسرة (نهى) من أصل طيب وعلى خلق..

أما أسرة (عمر) فحاولوا إثنائه بشتى الطرق، وحاولوا إخراجه من حالته العجيبة غير المسبوقة لديهم بلا جدوى..

ولكن الأمر قد تم..

واختار (عمر) أن يعيش وحيدًا في بيته الذي تزوج به، لا أن يعود ليعيش مع أهله..

اعترضت أمه بشدة، وشعرت أن ابنها يضيع منها في كل أمره..

ولكنه أصرّ..

فقد بدأت خطة ما لحياته القادمة في التكوّن في عقله..

خطة بديلة.

***

"كان لابد أن أكتب إليك.. لأقول لك أن الأمر لا يستحق كل ذلك.. ربما... ربما كان من الممكن أَن أواجه الأمور ببساطة أكثر من ذلك.. ربما كان بإمكاني أن أتجاوز كل هذا البؤس وأحيا حياة طبيعية كما يحيى الجميع..ربما كنت أستطيع أن أستبدل بعقلي عقلًا آخر.. عقلًا فارغًا من كل هذه المكابدة والمعاناة.. ولكن الأمر لم يكن بيدي..لا أعلم لماذا أنا بالذات، لماذا تحملت كل هذا، لماذا لم أستطع أن أبتسم بسهولة، لم أستطع إلا أن أحمل كل هذه الهموم، لم أستطع أن أنجرف مع التيار رغم أنه جارف الساحق، لم أستطع أن أحيا تافهًا سطحيًا كما يحيا معظم الناس في تفاهتهم المُقدسة!

سامحيني..

سامحيني أن أشركتك في هذا البؤس، أن ظلمتك معي، أن حملتك ما لا تحتملين..

لقد أحببتكِ من قلبي بحق.. عرفتُ من قبل أن المرء لا يدرك قيمة الشيء إلا بعد أن يفقدَه..

ولم أشعر بذلك إلا الآن..

لقد كنتِ ملاذي الآمن.. كنتِ السكن الذي أسكن إليه.. ولكني أضعتُ ذلكَ مني.. صدقيني.. هناكَ شيء ما يسيطر عليَّ سيطرة تامة ولم أستطع التخلص منه...

ساميحني..

لقد حاولتُ... حاولتُ أن أقاوم شعوري الدائم بالبؤس ولكنه كان أقوى مني.. ربما هو اكتئاب .. صدقيني.. سأحاول أن أذهب إلى طبيب نفسي.. سأغير من حياتي بالفعل.. ولكن ساميحني..

أرجوكِ..

حتى وإن لم تعودي إليَّ ساميحني.. يا أجمل ما حدث لي في حياتي..

الوداع..

عمر صالح"

***

كانت هديل خارج المنزل للتسوق.. يفكر (أكمل).. لمَ لا يستدعي (عمرًا) ليقضي معه بعض الوقت؟

يريد أن يتحدث معه..

يفعل ذلك بالفعل.. في البداية يرفض (عمر) ويعتذر ولكن (أكمل) يصر عليه بشدة..

وبالفعل يصل (عمر)..

بعد قليل، كان (عمر) يجلس ببهو الاستقبال بالمنزل، ويقول له (أكمل):

-أريدك أن تحدثني أكثر عن أفكارك يا (عمر).. أفكارك عن الرأسمالية وعالم الأعمال..

=حسنًا يا سيدي.. تريدني حقًا أن أحدثك في هذا الأمر؟ لن يعجبك كلامي كثيرًا، ولن يعجب أي شخص من أنصار الرأسمالية أو فلنقل عبيدها..

-لا بأس، تحدث على كل حال..

=أنا أرى أن منظومة العمل تقتل الإنسان قتلًا.. لا تترك له مجالًا لحياته.. مجالًا لآدميته.. لا تترك له بالًا رائقًا ليفعل أي شيء خارج العمل إلا أن يستريح فقط.. من الذي حدد عدد ساعات العمل لتكون تسع ساعات على الأقل؟ خيرة ساعات اليوم والتي لا تترك لنا فيما تبقى منه إلا نذرًا يسيرًا من طاقتنا الذهنية والبدنية... ولماذا صار هذا قانونًا غير قابل للتغيير؟ ولماذا وافق كل البشر على ذلك ورضخوا إليه رضخًا؟! لماذا قبلوا بهذا الاستعباد الجديد ولم يقوموا بثورة عبيد جديدة! أين حياتنا كبشر؟ ومتى نمارس حقنا في الحياة الآدمية الحقيقية؟! لماذا كل هذه الجدية والضغط والملل والروتين؟ نحن نكابد بحق! نكابد لكي نحصل فقط على بضعة مئات من الجنيهات نحافظ بها على الحد الأدنى من المعيشة! لماذا كل هذا؟

لماذا يسرق منا مصاصو الدماء وآكلو أعمار البشر وصحتهم كل ما هو جميل بنا؟

ما الذي أوصلنا إلى هذه المرحلة البائسة؟ لقد تعبنا!

ما من مفر من هذا الآن.. أعلم ذلك جيدًا.. وما من تغيير قريب.. فقد تشربنا هذه المنظومة تشربًا وصارت هي كل شيء ولم يعد لها بديل معقول متاح الآن!

لماذا نحن في سباق لا نهاية له؟! لماذا نسعى دائمًا لإثبات أننا أفضل ممن حولنا بشتى الطرق؟! ما الطائل من كل ذلك؟

! الرأسمالية حرباء.. تتخذ صورًا عدة.. وتدخل في كل تفصيلة من تفاصيل حياتك ولا تتركك حتى تستنزف آخر قطرة فيك.

-أنا لا أراها بهذا السوء!

= نعم.. نعم فهي أسوأ!

-الرأسمالية حتمية تاريخية شئنا أم أبينا..

=حتمية البلاء لا تنفي كونه بلاء!

-وهي ليست بلاء!

-الرأسمالية إفراز للحداثة ووليدتها.. ولا زلنا نعاني من ويلات الحداثة حتى الآن!

-إذًا فلتركب آلة زمن، ولتعود لتعيش في زمن ما قبل الحداثة!

-لم يعد ذلك ممكنًا يا سيد (أكمل)، ولكن الممكن هو إنتاج البديل.. البديل للرأسمالية التي جعلت البشرية تعيسة وبائسة..!

-ما كل هذا الهراء يا (عمر).. الرأسمالية هي سبب رفاه البشرية وتقدمها!

-هي سبب نعم! ولكن لنسبة قليلة جدًا من البشرية.. انظر إلى باقي العالم وانظر إلى حال البشرية التي طورتها الحداثة والرأسمالية.. كم هو أمر شديد البؤس أن تقديرك في المجتمع يعتمد على مكانتك فقط.. ومكانتك تعتمد فقط على مستواك المادي والاجتماعي.. إذا كنتَ أدنى في مستواك الطبقي فلن تحصل على المكانة اللازمة للتقدير الكافي!

أيضًا مطلوب منك في هذا العالم البائس أن تستهلك، وتأكل، وتأكل! وفي نفس الوقت مطلوب أن يكون جسدك لائقًا ومقبولًا وتكون لديك عضلات قوية وبطن مشدودة! ما هذا العبث؟!

كم إعلانات رهيب عن أصناف الأطعمة التي لا حصر لها، والمطاعم والمقاهي، وكم إعلانات رهيب أيضًا عن وسائل التخسيس والصالات الرياضية، ما المطلوب بالضبط؟!

ستظل تستهلك وتتسوق وتستهلك وتتسوق بحثًا عن الكمال واليقين ولكنك لن تجدهما قط!

حين تصير الحياة مجرد (أثر جانبي) للعمل.. أثر جانبي للمال.. أثر جانبي للاستهلاك فهي لن تعود حياة مرة أخرى .

يومًا ما.. يومًا ما ستختمر كل هذه الأفكار في رأسي وتُكوّن شيئًا ما.. شيئًا صلبًا ملموسًا وليس مجرد أفكار عشوائية!

-لماذا تصر يا (عمر) على ثنائية (الحياة-العمل).. لماذا تصر على فصلهما؟ أنا أرى أن العمل جزء من الحياة.. جزء لا يتجزأ.. جزء لا ينفصل عنها!

-نعم، ربما يكون ما تقوله صحيح، أو كان صحيحًا.. ولكنه جزء التهم

الكل التهامًا.. حتى صارت الحياة هي الجزء والعمل هو الكل.. صار كل شيء في هذه الحياة يتمحور حول العمل.. صار هو محور كل شيء..!

-الرأسمالية التي تبغضها، هي النظام الوحيد الذي يصلح لهذا الزمان..

=هذا ما يبدو، وهذه هي المشكلة الحقيقة للرأسمالية.. أنها فرضت نفسها فرضًا حتى لم يعد لها بديل..

-ربما تحتاج بعض دورات التنمية البشرية لتدرك أن تفاصيلها ليست بهذا السوء..

=تريد رأيي؟ التنمية البشرية ما هي إلا خدعة رأسمالية حقيرة، مُجرد مُسكن للبسطاء من الطبقة الوسطى الذين لم يستطيعوا الصعود في سلم الثراء، بأنهم يستطيعون..

يستطيعون ماذا بالتحديد؟ أي شيء، المهم أنهم يستطيعون، وقادرون على تغيير حالهم، وأي وضع هم فيه فهم المسئولون عنه، وعدم نجاحهم بمقياس الحداثة هو نتيجة لتقصير منهم ليس إلا..

-ولكن ماذا عن السعي؟

=نعم، السعي في طلب الرزق مطلوب بالطبع، ولكن السعي إلى المكانة وإلى الثراء الفاحش هو في أغلب الأحوال ركض خلف سراب..!

-انظر لكل ما حولك..انظر إلى منزلي هذا الذي يكاد يكون قصرًا.. هذا هو نتاج الرأسمالية التي ترفضها.. كيف وصلتُ لكل هذا الرخاء من دونها؟ كيف وصلتُ إلى هذه الرفاهية المادية والراحة من دونها؟

-ومن قال لك أن هذا من طموحاتي يا سيدي؟ أنا لا أريد إلا أن أحيا

حياة كريمة وحسب.. مستورًا مستريحًا فقط.. لا أسعى إلى الرفاهية المادية الزائدة عن الحد الزائلة لا محالة..

-كلام.. كلام يا (عمر).. لا تشعر به الآن ولكن بعد أن تنضج أكثر وتجرفك الحياة ستنغمس رغمًا عنك في كل هذا وستسعى إليه سعيًا!

-هيهات يا سيدي.. أنت لا تعرفني جيدًا.

-بل صدقني أنت الذي لا تعرف نفسك جيدًا يا (عمر).. لأنك لم تختبرها اختبارً حقيقيًا بعد.

-الله أعلم.

-حسنًا يا (عمر)..

-حسنًا يا سيدي.. أشكرك بشدة على كرمك واستضافتك التي أعتز بها.

-عفوًا يا (عمر

-شكرًا.

وينصرف (عمر)، بينما يفكر الاثنان كل في كلام الآخر..

وكالعادة، ترك (عمر) (أكمل) في معركة دائرة في رأسه!

معركة سرمدية!

***

لم لا نأخذ جولة داخلية في شركة (مودرن لايف)؟

ونتعرف على بعض الموظفين..

أولًا.. كريم سعد سكرتير هديل حسن

كان يحرص على الاحتفاظ بعلاقة شديدة الود مع جميع الموظفين..

ولكن معظم الموظفين لم يرتاحوا له قط..

وبالفعل كان شعورهم في محله..

ف(كريم) كان يستغل علاقاته الودية مع الموظفين في معرفة أخبارهم وأحوالهم وآرائهم لينقلها بالتفصيل إلى (هديل).. وكانت (هديل تبرر لنفسها هذا الفعل بأنه ضروري للعمل..

فالضرورات تبيح المحظورات والغاية تبرر الوسيلة..

ثانيًا.. (ماجد حسين) نائب (أكمل فريد).. يوقع على الأوراق والمستندات بدلًا منه..

ويصدق على كل الخصومات والجزاءات دون النظر إلى الحالات الإنسانية بحجة أن (العمل هو العمل)..

(العمل هو العمل).. يا لها من مقولة سخيفة وسمجة يُراد بها الكثير والكثير من الظُلم.

لا يا سيدي، نحن بشر.. شئنا أم أبينا فنحن بشر ولسنا بآلات..

والبشر لهم طاقة.. لهم مشاعر.. لهم احتياجات.. لهم حياة اجتماعية وجوانب إنسانية.. العمل وسيلة.. وسيلة هامة جدًا نعم ولكنه يظل وسيلة.. لم يكن ولن يكون غاية في ذاته.. لماذا نقدسه إلى هذا الحد غير المعقول؟ لماذا نتعبد في محراب العمل، ويدور كل شيء في حياتنا حول العمل، وطوال الوقت نفكر في العمل؟!

لماذا يشغل كل لحظة في حياتنا إلى هذا الحد؟

ثم من حدد مواعيد العمل ولماذا صارت دستورًا لا يقبل النقاش ولا التعديل..

لماذا نقضي أكثر من نصف أعمارنا في العمل.. أين باقي الحياة إذًا؟ أين كل ما نتمنى فعله خارج حدود العمل.. متى سنعيش إذًا؟!

المسار الوظيفي.. التطوير الوظيفي وهل أستقيل وأبحث عن عمل خاص أم لا؟ وهل أترك هذه الشركة وأنتقل إلى أخرى غيرها لأدور في نفس الدوامة أم لا؟

ثور في ساقية.. أدور وأدور حتى تنتهي حياتي قبل أن أدرك لماذا عشتُها.. إلى متى؟

إلى متى هذه الدوامة القاتلة؟

ومن صمم حياتنا لتتحول إلى هذا الجحيم؟

نلهث ونلهث، نلهث لنعمل ثم نلهث لكسب المال الذي نلهث لنشتري به أشياء لا ندرك قيمتها تحديدًا!

نلهث ونلهث.. نركض في ماراثون بلا نهاية محددة.. ولكننا نركض.. فقط نركض.. هل نتوقف لنلتقط أنفاسنا؟ لا توجد فرصة! سيفرمك الراكضون من خلفك فرمًا ولن يتركوا لك مكانك!

لماذا كل هذا العبث؟ ولماذا كل هذه المكابدة والمعاناة؟ فقط من أجل كسب المال الضروري للحياة؟ لماذا لا تكون الأمور أبسط من ذلك؟ لماذا لا نجد الفرصة لنحيا حياة حقيقية؟ حياة نشعر فيها بذواتنا الحقيقة لا الزائفة؟

لا نجد وقتًا لنشعر بإنسانيتنا.. نستمتع بالجمال والفن والأدب..

لا نجد وقتًا أو بالًا رائقًا لأنفسنا.. لماذا كل هذا؟

لماذا يجب أن نسير على المسار المحدد لنا فقط ولا نحيد عنه؟ لماذا صُممت لنا الحياة بتصميم معين ولا يفكر أحد في نمط آخر؟ لماذا لسنا أحرارًا؟

لقد سئمت كل هذ، ولا أدري ماذا أفعل بالتحديد لأتخلص منه..

من قال أن هذا هو نمط الحياة الوحيد المتاح لنا؟

لا.. لا.. لا!

ليست هذه هي الحياة كما يجب أن تكون!

ثالثًا، ورابعًا.. هند الشرقاوي، موظفة عزباء، تعمل في شركة (مودرن لايف بقسم الحسابات.. تجلس في مكتب بجوار المُحاسب (خالد ثروت)، متزوج وله ولدان..

بطبيعة الحال تطورت العلاقة بينهما وتعودا على بعضهما، وصار يتكلم معها أكثر من زوجته التعيسة المنشغلة ببيتها وولديها ومع الوقت صار يخرج معها في ساعة الراحة ليتناولا الغداء سويًا..

كان يعلم وكانت تعلم جيدًا أن هذا الوضع غير سليم..

ولكنهما كانا لا يفكران فيما هو صواب، كانا فقط يشعران بالسعادة بما يفعلانه..

هكذا الإنسان، إلا القليل، ينظر تحت قدميه، ولا يستوعب جيدًا عواقب أفعاله ولا يفكر بها..

أما (حاتم زاهر)، مدير الحسابات، فقد كان من القلائل المُحترمين في هذه الشركة..

وكان يعطي كل ذي حق حقه، ويسعى دومًا لمعاملة الناس بالعدل، لذلك كان مكروهًا من الكثيرين، لأن أصحاب الحال المائلة لا يحبون المستقيمين كثيرًا..

هكذا كانت شركة (مودرن لايف) وحال بعض موظفيها..

***

كان (كريم سعد) دائمًا يستميل (هديل) ويسعى أن يكون مقربًا لها، رغم معرفته بأنها زوجة رئيس مجلس الإدارة وابنة صاحب الشركة، ولكنه كان لا يبالي، كان وصوليًا لأقصى حد..

كانت (هديل) جالسة على مكتبها، عندما سمعت طرقات على الباب، فأذنت للطارق بالدخول، ليدخل (كريم) ويتنحنح، فأشارت له بالجلوس..

-جئتكِ بأخبار جديدة.

قالها في خبث.

=أخبرني يا كريم اللئيم

ضحك (كريم)، وقال:

-هناك بعض الموظفين الذين يستنكرون وجودك في منصب المدير العام، حتى وإن كنتِ ابنة مالك هذه الشركة، لأنك لستِ مهندسةً ولأنك لا تفقهين شيئًا عن الإدارة-على حد قولهم طبعًا-ولأنهم يُفضلون وجود رجل في هذا المنصب.

ابتسمت (هديل) في سخرية واثقة، وأومأت برأسها، وقالت:

=أعرف هذه النوعية من البشر الحاقدين.

-نعم، هم حاقدون بالطبع لنجاحك الشديد.

أومأت برأسها، وقال هو:

-أحدهم، وهو المُحرك الرئيسي، هو المهندس (مروان خالد).

ارتفع حاجبيها في دهشة وقالت:

=هذا الذي لم يخرج من البيضة بعد! سأستدعيه فورًا.

-حسنًا، سأخرج أنا الآن ويمكنك استدعاؤه بعد خمس دقائق مثلًا.

أومأت برأسها، وفعلت ذلك، وجاء (مروان)، وطرق بابها متوترًا، فأذنت له بالدخول.

-صباح الخير مدام هديل.

أجابته في كبر واشمئزاز بالإنجليزية:

My Name is Mrs. Hadeel=

مط شفتيه وقال بابتسامة ضجرة:

-حسنًا يا Mrs. Hadeel، Good Morning.

أومأت برأسها، ولم تعرض عليه الجلوس، وتململ هو، وأخرجت هي في بطء سيجارة من سجائرها الخاصة، وأشعلتها بقداحتها الذهبية في برود، ونفثت دخانها، ثم نظرت إلى عينيه مباشرة، وأطالت النظر، فتوتر هو بشدة، وبلع ريقه في صعوبة، وهو يفكر..

ما هذه القوة والسطوة لأنثى؟ مخالفة لفطرتها الرقيقة والهادئة؟

سألته في هدوء وبطء مستفزين:

=أنا لا أفقه شيئًا عن الإدارة إذًا؟

ارتبك (مروان) بشدة، وقال متلجلجًا:

-من قال ذلك؟!

=أنت.

-أنا؟ بالتأكيد هناك خطأ ما! أنا لم..

أشارت إليه بيدها أن يتوقف، وقالت:

=أنا واثقة تمامًا مما أقول، لا داعٍ للكذب ولا للف والدوران.

شعر (مروان) بتوتر شديد، وأكملت هي:

=يجب أنك لا تدرك جيدًا مع من تتعامل وأمام من تقف.

فأسرها في نفسه ولم يصرح بها، -من ستكون؟ وما أقصى ما ستصل إليه؟ هي مجرد بشر في أول الأمر وآخره! من تظن نفسها هي؟

نفثت دخان السيجارة وقالت:

=(هديل حسن) لا تتأثر بالنقد، ولا تكترث له كثيرًا ولا تتوقف عنده إلا في حالات نادرة كهذه، لأن هذا ليس نقدًا من الأساس، بل تجاوز وتعدي لحدود الأدب مع مديرتك التي تفقه وتعرف عن الهندسة والإدارة أكثر وأعلى من أي مخلوق في هذه الشركة، صغيرًا كان أم كبيرًا، والتي درست مجموعة من الدورات لن تكفي حياتك لتفقه ربعها.

كان (مروان) لا يدري ما يقول بالتحديد ولكنه آثر السلامة وفضل أن يتخلص من صداعها قائلا:

-آسف، إني أعتذر بشدة، وأعدكِ بأن هذا لن يتكرر.

سألته في استنكار ساخر:

=آسف؟

ثم أكملت في حزم:

=ليس بعد!

ونفثت دخان السيجارة مرة أخرى، وهي تقول:

=وهل تظن أني سأسمح أن يتكرر من الأساس؟!

وقامت فجأة ضاربةً سطح المكتب بيديها وهي تصرخ في وجهه:

=ستُطرد من هذه الشركة شر طردة، بل وسأستخدم علاقاتي وسأوصي بعدم تعيينك في كل شركات المقاولات والاستثمار العقاري الكبرى، وجميع الاستشاريين المعروفين، لتكون عبرة لأماثلك من الصغار الذين يتجاوزون في حق أسيادهم من الكبار!

خفق قلب (مروان) بشدة وقال بانفعال:

-لماذا؟ لماذا كل هذا؟ ماذا فعلت؟ هو مجرد كلام! سأقدم استقالتي وحسب!

=استقالتك؟ وهل صور لك خيالك المريض أنك ستنصرف معززًا مكرمًا في هدوء؟ اغرب عن وجهي الآن!

انصرف وهو يقلب كفًا بكف ويصرخ:

-حسبي الله ونعم الوكيل! أدعو الله أن يقصم ظهرك ويكسر شوكتك!

=اغرب عن وجهي فورًا!

وفتح الباب وخرج ليجد أكثر من نصف الموظفين مجتمعين ومتسائلين عما حدث.

وتوقف عند (كريم سعد) وهو يقول:

-لك يوم! أقسم بالله لك يوم أيها الوغد الحقير!

أشاح (كريم) بوجهه ولم يرد، وذهب (مروان) غاضبًا ليلملم أغراضه، ولم يجب على تساؤلات زملائه إلا بسب (هديل) فقط.

أما هي، فجلست على كرسي مكتبها، وأراحت رأسها عليه، وابتسمت في هدوء..

شديد.

***

"نحن جزء من هذا المجتمع، وعلينا مسئولية كبيرة ناحيته"..

قالتها (هديل)، في هذا المؤتمر في أحد الفنادق الكبرى بالقاهرة الجديدة، الذي تمت إقامته لعمل احتفالية بمناسبة الإعلان عن تبرع شركة (مودرن لايف) بعشرة ملايين جنيهًا إلى جمعية (مسار الخير) الخيرية الكبيرة..

"وعليه، فإننا لابد أن نمد يد المساعدة إلى مواطني هذا المجتمع... لابد أن نقول لهم: نحن هنا بجانبكم دومًا، ولن نترككم تعانون وحدكم دون تدخل.. (مودرن لايف) .. من أجل حياة أفضل"

وانطلق التصفيق الحاد، وابتسمت (هديل) في ثقة، وابتسم (أكمل) في هدوء خارجي وسخرية داخلية، وهو يخفي في نفسه ما يعلمه جيدًا..

تنتهي كلمة (هديل)، وتبدأ فترة استراحة لتناول بعض المخبوزات مع القهوة..

يسأل (أكمل) نفسه.. ما كل هذا الزيف.. ما كل هذا التملق.. ما كل هذا النفاق!

لا يوجد شخص واحد على طبيعته.. الكل مُدّعٍ.. الكل يتظاهر.. الكل يرتدي قناعًا بل عدة أقنعة!

يلاحظ نظرات الرجال المختلسة أحيانًا والوقحة المتفحصة أحيانًا أخرى إلى زوجته بفستانها الفاتن، فيتجاهل لأنه يعلم أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، لا لهم ولا لها!

لن يقول لهم شيئًا فتفسد سمعته وتغوص كرامته تحت الأرض، ولن يقول لها شيئًا خوفًا من رد فعلها غير المحسوب!

هكذا اقتضى نمط حياته الحديث..

وهذا هو ما اختاره لنفسه بكامل إرادته الحرة..

فإما أن يظل متمسكًا بمبادئه القديمة ويترك كل ما وصل إليه، وإما أن يتجاهلها ويتعايش..

وقد اختار الحل الثاني، فقد حسبها جيدًا ووجد أنه سيخسر الكثير.. الكثير جدًا..

هو فقط لم يستطع أن يتخلص من هذا الصوت بداخله الذي يخبره بسخافة كل ما هو فيه.. يخبره بسخافته وزيفه وبعده كل البعد عن ما كان يؤمن به قديما ..

ينظر إلى زوجته وهي تمازح هذا وتضحك مع ذاك ولكن سطوتها وتسلطها يمنعانه من اتخاذ أي رد فعل أو قول أي شيء لها!

لماذا فعل هذا بنفسه! لماذا انحدرت به الحال إلى هذه الدرجة!

"مستر أكمل"

ينفض رأسه بسرعة ليُخرج نفسَه من نفسِه، وينظر لمن يناديه فيجدها امرأة فاتنة، هي أحد عملاء الشركة الذين لهم ثقلهم..

تصافحه وتقول في ود:

-كيف حالك مستر (أكمل)؟

= بخير حال، وأنتِ؟

-كل الأمور تسير جيدًا.

وتضحك وتغمز له، فضحك مجاملةً لها، وهو لا يفهم لماذا تضحك بالتحديد، عجيب أمر هؤلاء النسوة!

يبتسم... ويفكر.

فليعيش حياته إذًا هو الآخر..

فليتحدث مع النساء ويمازحهن ويصادقهن، ويستمتع بالحياة هو الآخر!

ولتمض الحياة كما هي..!

***

"لم أعد أحتمل يا (ياسر)"

قالها (أكمل) لصديقه (ياسر)، وهما يجلسان بمقهى اعتادا اللقاء به، ثم

أردف:

-ليس من الطبيعي أن أتحدث عن زوجتي لأحد.. ولكنك لست كأي أحد.. في الحقيقة أنا لم أعد أحتمل هذا الوضع.. جرأتها وتحررها وتعاملها مع الرجال وتعامل الرجال معها صار فوق احتمالي.. أيضًا سطوتها وتسلطها.. لقد صارت كرامتي تحت الأرض!

مط (ياسر) شفتيه في أسف وهو يقول:

=أنا لا أحب التحدث عن أحد بسوءٍ في غيابه يا (أكمل)، ولن أقول شيئًا عنها، ولكنك كنت تعلم جيدًا ما أنت بصدده، وكنت تدرك تمام الإدراك العالم الذي أنت على أعتابه، لا أقول ذلك لإلقاء اللوم عليك ولكن لتذكيرك أن ما أنت فيه هو بمحض إرادتك وبكاملها، وهي لم تخدعك أو تظهر لك عكس شخصيتها، بالعكس، كانت حريصة على إظهار كامل شخصيتها لكي لا تكون لديك حجة.. وبصراحة، أنت كنت خائفًا من فقدها فتفقد مكانتك في الشركة بالتالي.. لا تؤاخذني ولكنك تعلم صراحتي.

أومأ (أكمل) برأسه، وهو يقول:

-لا ألومك على هذا الكلام يا (ياسر)، أنت على حق، وأنا بالفعل كنت أعلم، ولكني بشر، والبشر يخطئون، وأيضًا لهم حد أقصى لقدرتهم على التحمّل.. وأنا لم أكن أعلم أنني سأصل إلى هذا الحد بل سأعبره..

هز (ياسر) رأسه في أسف، وقال:

-أنت بين قرارين للأسف، لا ثالثَ لهما، إما أن تطلقها وتفقد كل شيء وتبدأ من الصفر.. وإما أن تضغط على نفسك وتحتمل وتُسَيّر أمورك..

نظر (أكمل) بعيدًا، وهز رأسه أسفًا على قلة حيلته..

وقد كان القرار جليًا على وجهه!

***

"ماذا بعدُ يا خالد؟"

قالها (حاتم غريب) مدير الحسابات بشركة (مودرن) لايف، للمُحاسب (خالد ثروت)، بعد أن استدعاه في مكتبه، فأجابه (خالد):

-ماذا بعدُ في ماذا بالضبط؟

=أنت تعلم ما أتحدث عنه جيدًا يا (خالد).. ماذا بعد في أمرك مع (هند).. ربما ستقول لي أن هذا أمر

شخصي ولا علاقة لي به.. ولكنه ما دام يحدث أمامي وفي الشركة فأنت الذي اخترت ألا يظل شخصيًا..

أنسيتَ نفسكَ؟ نسيتَ أنك مُتزوج ولك ولدان؟ أنت حتى لم تتزوجها.. أنت تعبث معها فقط!

-هي فقط زميلتي يا أستاذ (حاتم).. وعلاقتنا طيبة فحسب.

=خالد! أرجوك لا تستغفلني.. أنت تعلم وأنا أعلم جيدًا ما نتحدث عنه.. أرجوك أفق لنفسك.. ولأكل عيشك.. واستعذ بالله من الشيطان.. فكر جيدًا يا (خالد)! أنا لا أنتظر منك ردًا الآن.. يمكنك الانصراف إلى مكتبك..

قام (خالد) في بطء، وهو يشعر بالحرج، وعاد إلى مكتبه مبتئسًا، لتسأله (هند):

--ماذا بكَ يا (خلّود)؟ لماذا أنت حزين هكذا..

-أرجوكِ يا هند، اتركيني لحالي الآن

نظرت له في دهشة، وقالت:

--منذ متى؟ نحن لا نخفي شيئًا عن بعضنا!

توتّر (خالد)، وفكّر في كلام (حاتم)، وقال:

-هذه هي المشكلة يا (هند).

--مشكلة؟!

قالتها مُتعجبة

-نعم يا هند، مشكلة، ربما نحن اقتربنا أكثر من اللازم بالفعل.

--يا رجل، قُل كلامًا غير هذا، فلنظل كما نحن ولا ضرر.. لا تُفسد علاقتنا بترهات..

يصمت (خالد)، وينظر إليها، وقد تعلق قلبه بها بالفعل بشدة.. وغلبه هواه وهو يقول:

-حسنًا يا هند.. لا عليكِ.. اعتبري ما قلته تخاريف.

--هي كذلك بالفعل.. يا رجل.. هل هي حياة أم أكثر.. فلنعشها دون أن نُصدّع رؤوسنا بترهات.

أومأ (خالد) برأسه مبتسمًا، وهو يفكر في مآلات ذلك..

ولكن لا..

ينتهي به الحال ألا تفكر..

فقط يجب أن تظل كما أنت!

***

كان (خالد) يُمازح هند ويضحك معها بشدة، عندما سمع صوتًا من خلفه فجأة:

-من الواضح أنك سعيد للغاية!

التفت بسرعة ليجد المفاجأة..

فقد كانت زوجته تقف مصدومة..

اتسعت عيناه في صدمة وهو يقول:

=أميرة!

-نعم، أميرة، أميرة النائمة على أذنيها، أميرة المُخلصة لك ولبيتك، والتي تُربي لك ولديك، أميرة المهتمة بكل شئونك وأنت هنا تعبث فقط!

=أميرة، افهميني، هي زميلتي في العمل، و...

-اصمت! أرجوك اصمت!

تتدخل (هند) في هذه اللحظة وتقول:

--يا مدام (أميرة)، اهدأي قليلًا، نحن زملاء لا أكثر.

تصرخ (أميرة) في وجهها:

-اخرسي أنتِ الأخرى!

تراجعت (هند) مصدومة، واتجهت (أميرة) ل(خالد) قائلة:

-سأذهب الآن.. في انتظار طلاقك لي..

خفق قلب (خالد) بشدة بينما (أميرة) تنصرف، وركض هو خلفها أمام زملائه في الشركة، يحاول أن يطلب السماح، ولكنها انصرفت غاضبة..

ووقف (خالد) مُحرجًا بشدة..

ويتساءل..

من أخبرها؟! هل هو (حاتم غريب)؟

"كريم سعد".. ليس هناك غيره.

قالتها له (هند) غاضبة، وسألها:

=كريم؟ ولم يفعل ذلك؟ أعلم أنه (عصفورة) هديل الخاصة، ولكن ماذا سوف يستفيد؟!

-يستفيد أنه مُعجب بي.

ينظر لها في دهشة ويقول:

=مُعجب بكِ؟ لم ألحظ ذلك قط!

-ولكني لحظته، وقد قام بالتلميح من قبل.

=لذلك فعل ذلك.. يا له من وغد!

جاءه (كريم) في هذه اللحظة وهو يبتسم في سماجة قائلًا:

-مدام (هديل) تريدك في مكتبها.

خفق قلب (خالد) في شدة، ونظر له في غضب، وهو يقول:

=أما يكفيك ما تفعله بزملائك؟ ألا تنظر لنفسك في المرآة؟ هل أنت راض عن نفسك؟

-بالطبع، أنا راضٍ بشدة.

أزاحه (خالد) بيده بقوة فعاد للخلف وكاد يسقط، وذهب غاضبًا إلى مكتب (هديل)..

"أنا لا أريد مشاكل مراهقين هنا!"

قالتها (هديل) غاضبة، فقال لها:

=أعتذر بشدة يا (مسز) هديل. لن يتكرر هذا الأمر أبدًا..

-لا ، لا، أنا لا أعترف بهذا، ولن أنتظر أن يتكرر، سوِّ مُستحقاتك وانصرف.. سنجد غيرك

=ولكن يا سيدتي!

-لا يوجد لكن، ولا توجد لديَّ استثناءات، الموظف الذي يجلب للشركة مشاكل ويُعكر صفوها ينصرف فورًا دون تحذير، فأغلى ما تملكه الشركة هي سُمعتها... هيّا.. اخرج الآن.

خرج (خالد) مبتئسًا بشدة.. وقابله (كريم) مبتسماً في سماجة، فلم يتمالك نفسه، وضربه بيده في قوة ليسقط على الأرض مذهولاً..

وتم رفد (خالد) بالفعل..

صحيح أنه تصالح مع زوجته بعد ذلك، ولكنه ظل بلا عمل فترة كبيرة..

وفي يوم،دخل (كريم سعد) إلى (هديل)، لتقول له ساخرة:

-عمل رائع يا أستاذ لئيم، استمر.

ضحك (كريم) وقال:

=في الحقيقة، أنا أفعل كل ذلك من أجلك.

-بالطبع، فالكل يريد إرضائي.

=إحم، ليس ذلك فقط، فأنا مُعجب بكِ بشدة.

-بالتأكيد أيضًا، فالكل مُعجب بذكائي وشخصيتي..

=أيضًا ليس ذلك وحسب، أنا أتشجع لأنني أشعر أنني اقتربتُ منكِ بشدة.. أنا مُعجب بكِ بحق.. ولا أريد منكِ شيئًا بالطبع فأنتِ مُتزوجة من مستر أكمل، و...

-هل جننتَ في عقلك؟

قالتها صارخة في وجهه

=سيدة (هديل) أرجوكِ افهمي، أنا لا أريد شيئًا أبدًا.. أي شيء... لا أريد إلا أن أصرح لكِ بما أشعر به.. فأنا مفتونٌ بكِ!

قامت من مكتبها، ولأول مرة تمسك بياقة قميصه، وتصرخ في وجهه:

-من تظن نفسك أيها الحشرة! هل لأنك تنقل لي أخبار الموظفين تعتقد أنك اقتربت من أسيادك! أيها الحقير النكرة!

أُصيب (كريم) بالصدمة، وقال:

=لا داع لكل هذه الإهانة يا سيدتي! انتهى الأمر سأنصرف!

-تنصرف! ربما لن تخرج من هُنا حيًا من الأساس!

لم يستوعب (كريم) ما يُقال، ولَعنَ غباءه لما فعله، وسأله نفسه كيف أخذته السكرة إلى هذا الحد!

ولَعَن الحشيش الذي (اصطبح) به هذا النهار!

سمع الموظفون الجلبة، ووصل الأمر إلى (أكمل)، أن (هديل) تتشاجر مع أحدهم، فذهب إلى مكتبها مُسرعًا، ودخل ليجدها تصرخ في وجه (كريم)، فسألها:

--ماذا فعل هذا الوغد؟

-هذا الحشرة دخل ليقول أنه مُعجب بي! تخيَّل!

نظر إليه (أكمل) في غضب شديد، وأمسك به، وصفعه بشدة على وجهه، ثم صفعه على الجانب الآخر، فدفعه (كريم) وهو يُعدّل من ملابسه يقول:

=كفى.. كفى.. لم أقصد كل ذلك

--وماذا كنت تريد أن تقصد أيها الحقير؟

اجتمع كل الموظفين تقريبًا على باب مكتب (هديل)، وشعروا بالشماتة بشدة تجاه (كريم)، وجاء الأمن بسرعة، فأمرتهم (هديل) وأمرهم (أكمل) بإلقاء هذا الوغد خارج الشركة، إلقاءه حرفيًا وليس مجازًا..

وتم ذلك بالفعل..

وانفضّ الناس من حول مكتب (هديل)، وجلس (أكمل) معها ليهدئ من أعصابها، وقال:

--قلتُ لكِ أن هذا الشيء وغد وحقير، قلتُ لك مرارًا من قبل ألا تثقي به.

-لم أثق به لحظة واحدة، ولكنني لم أتخيل أن تصل به الجرأة إلى هذا الحد؟

--اهدأي إذًا، قد ذهب لحاله، دعينا فقط نفكر في ما سنقوله عندما تنتشر

هذا الأخبار التي بالتأكيد ستُعكر سُمعة الشركة..

-حسنًا يا (أكمل).. حسنًا.

وهدأت قليلًا..

وقد كانت أكبر مشكلة لديها أن من فعل ذلك أدنى منها في المستوى..

ثم تأتي بعد ذلك أي مشكلة..

فقد كانت ترى نفسها في مكانة عالية..

للغاية!

لا يدانيها أحد بسهولة!

***

بعد يومين، سمع الموظفون بما حدث ل(كريم)..

فقد استوقفه مجموعة من البلطجية، وضربوه ضربًا مُبرحًا للغاية، وأصيب بكسور عدة، وتركوه وكأنه كومة من العظم واللحم..

وانتهى مستقبله تقريبًا...

وكانت رسالة لجميع الموظفين..

(هديل) خط أحمر!

***

بعد طلاقه لنهى، اكتملت خطة (عمر) لحياته القادمة..

فقد كان يريد استكمال دراسته في (ألمانيا)، ولكن في مجال مختلف بعض

الشيء..

كان يريد دراسة إدارة الأعمال..

وكان يريد أيضًا الحصول على منحة لهذه الدراسة، لتكون الأمور أسهل..

يترك عمله ويتفرغ لهذا الأمر..

لماذا (ألمانيا)؟ لماذا لا يدرس نفس المجال في مصر؟

لأنه يريد التطور.. يريد الابتعاد.. يريد التغيير.. ويريد أيضًا أن تكون نقطة شديدة القوة في سيرته الذاتية..

يجتهد (عمر) بشدة في البحث والاختبارات المختلفة، يحصل على منحة جزئية للدراسة بمدرسة فرانكفورت للمالية و الإدارة بمدينة فرانكفورت بصعوبة شديدة، وبعد اجتياز الكثير من الإجراءات، وذلك بعد حصوله على شهادة إدارة المشروعات للمحترفين وماچيستير إدارة الأعمال، واجتيازه لجميع مراحل واختبارات دراسة اللغة الألمانية حتى صار مُتقنًا لها في خلال ما يقرب من العام الذي تلى طلاقه..

فقد كان لديه هدف مُحدد، وكانت تلك خطته البديلة، صحيح أن هذه الدراسات مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالرأسمالية والحداثة، ولكنه قرر أن يستفيد منها أقصى استفادة ممكنة حتى يصل إلى التغيير المنشود الذي يرغب فيه..

إذا لم يستطع أن يتغلب على عالم الرأسمالية فليدخل فيه ليغيره من الداخل..

وليبحث عن ذاته أيضًا، ليبحث عما هو من المفترض أن يفعله في حياته بالتحديد..

هو لديه مبادئ يؤمن بها، لديه أفكار كثيرة .. ولكنها تظل أفكار عشوائية بلا ترتيب وبلا غاية مُحددة..

يجب أن تتبلور هذه الأفكار يومًا ما.. وإلا ظل طوال حياته متجمدًا عند مجرد أفكار عشوائية عبثية..

نعم..هكذا تبدأ مرحلة جديدة من حياته.. مرحلة مُفعمة بالأمل في تغيير شيء يومًا ما..

تغيير نفسه وإحداث أي نوع من أنواع التغيير في هذا العالم..

هل يخدع نفسه؟ ربما. سيكتشف ذلك. ولكنه لابد له من خوض التجربة، لابد له من الاحتكاك، لابد له من العمل على الأرض بدلًا من التنظير والانتظار..

سيخوضها، وسيرى..

لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا..

***

إنه الليل إذًا..

حيث الأسئلة الوجودية والتفكير الزائد عن الحد..

وهذه الليلة ليست كأي ليلة..

فهي ليلة قرار سفره، ليلة تغيير حياته، ليلة نقطة التحول والانطلاق..

حسنًا..

من الواضح أنه لن ينام..

وأنَّى له أن ينام وكل هذه الأفكار تعصف برأسه عصفًا؟!

صار يتقلّب في سريره..ويتساءل..

هل اتخذت القرار الصائب؟

هل الخطوة المُقدم عليها سديدة؟

هل سفري إلى (ألمانيا) سنفعني بالفعل؟.. هل سيحدث فارقًا كبيرًا في حياتي بالفعل؟

هل سيغيرني إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟

هل هو مُخالف لمبادئي أم متفق معها؟

هل كنت بالفعل أحتاج إلى هذه الرحلة الطويلة؟ هل أحتاج إلى هذه الدراسة؟

هل ستغير حياتي بالفعل؟

هل ستقحمني في عالم الرأسمالية الذي أبغضه، أم هل ستساعدني على تغيير شيء ما به؟

على أية حال، لقد اتخذ قراره وقام بكل الخطوات اللازمة ولم يعد هناك مجال للتراجع..

لا..لحظة! لم يزل هناك مجال!

يمكنه إلغاء كل شيء والبقاء في مصر، فهو لا يزال هنا ولم يسافر بعد!

لا..لا..سبق السيف العزل..لن أتراجع..

سأخوض التجربة..

سأخوضها حتى آخرها وأثبت لنفسي أنني أستطيع التغيير..

تغيير نفسي وتغيير أي شيء في هذا العالم..

يا لها من ليلة طويلة!

***

ينفث (ياسر) بخار جهاز ال(فيب).. وهو يشير بيده ويقول ل(أكمل) وهما يجلسان بمقهى غربي:

-أنت لستَ مُميزًا في شيء..

وهذا ليس سيئًا لو تعلم..

ستنتهي معاناتك ومكابدتك كلها، عندما تدرك هذه الحقيقة: أنت لست مُميزًا! لن يُحدث فارقًا لديك أن تفوز في السباق، حين تدرك أنه لا سباق من الأساس! وأنك تركض في العدم!

يتنهد (أكمل) وهو يقول:

=الكلام سهل يا (ياسر).. عالم الأعمال لا يرحم.

-لذلك، لذلك تحديدًا، يجب أن تتلقى كل شيء فيه بهدوء، بلا مبالاة، طالما تفعل ما عليك وتسعى، لا يقلقك شيء، لأنك لا تملك من أمرك شيئًا..

يتناول (أكمل) قطعة من كعكة الشيكولاتة الموضوعة أمامه بالمنضدة، ثم يرشف رشفة من القهوة، ويقول:

=كل هذا جميل يا (ياسر)، ولكنه غير قابل للتطبيق على أرض الواقع للأسف.. نحن في ماراثون سرمدي شئنا أم أبينا.

يهز (ياسر) رأسه في أسف، ويقول:

-لا فائدة، ستظل بائسًا وأحمقًا كما عهدتك.

ضحك (أكمل)، وضحك (ياسر)، ثم قال (أكمل):

=ألا تنوي بعد؟

-أنوي ماذا؟

=أنت تعلم ما أقصد، ألا تنوي العمل معي بالشركة ؟

-انس ذلك تمامًا يا (أكمل)، أرجوك، أنا أرجو أن نظل أصدقاء وإخوة كما نحن، لا تُدخل أي أمور أخرى بيننا، فتفسد علاقتنا.. هكذا أفضل..

يومئ (أكمل) برأسه ويبتسم في امتنان..

امتنان لأنه ما زال هناك حوله شخص مثل (ياسر)..

شخص حقيقي!

***

مارس ٢٠٢٦..

امتلأت فيلا (أكمل فريد) بالضيوف، المدعوين لحفل عيد ميلاد ولديه (ريان) و(تارا)، وامتلأ كذلك حمام السباحة الخاص بالفيلا بأشخاص يسبحون، لا يدرك (أكمل) تحديدًا مَن هؤلاء، ربما أصدقاء (هديل) أو أُسر مديري الشركة، ربما، لا يدري..

كانت (هديل) مُهتمة للغاية بهذا الحفل، فهو رابع عيد ميلاد لولديها، وأنفقت ببزخ عليه، وأحضرت منظمي حفلات مختصين، ودعت كل

أصدقائها بأسرهم وأبنائهم، كذلك مديري الأقسام المختلفة بالشركة..

مُجاملات..

نفاق..

ادعاء..

زيف..

رياء اجتماعي...

لم يستطع أن يُخرج (أكمل) هذه الصورة من رأسه، ولم يستطع أن يغير نظرته للناس بهذا الشكل..

لا يكاد يوجد شعور صادق حوله في هذا المكان، وهذا اليوم..

مَن كل هؤلاء؟

رجال مُتملقون، ضحكات مُصطنعة..

عرض أزياء نسائي..

وطفلاه لا يدركان شيئًا من الأساس.. فما زال عمرهما عام واحد..

لا يستوعبان كل ما يُقام من أجلهما..

والحقيقة أنه ليس من أجلهما، هو من أجل أمهما..

(هديل) هي من تريد كل ذلك.. هي من تَحكم وتُسيطر..

هي صاحبة القرار..

وهو كل ما يُحركه أنه لا يريد أن يفقد كل شيء، ولذلك لا يعترض عليها

مُطلقًا..

ولكنه في داخله يحترق..

دائمًا يحترق..

لو تُدرك هي ما بداخله من اضطراب شديد!

لو تُدرك ما بداخله من عواصف!

ينظر إلى المدعويين..

تأتي (غادة) مديرة التعاقدات وتصافحه بحرارة وتقول:

-مستر (أكمل).. كيف حالك

يبتسم لها ويقول:

=بخير والحمد لله، كيف حالك أنتِ؟

-كل شيء على ما يُرام..

تضحك له، وتمازحه قليلًا، وينظر (أكمل) حوله ليجد (هديل) وقد تركت كل شيء وتنظر إليهما شزرًا..

كانت (هديل) تدرك جيدًا أن (غادة) تحمل مشاعر ما نحو (أكمل) ..

فهي-هديل وليست غادة- امرأة، وليست أي امرأة..

امرأة شرسة، متسلطة.. ولا تأخذ خطوة إلا وتحسبها جيدًا..

سَعَت أكثر من مرة لإقصائها من الشركة، ولكنها قريبتها وقد عينها أبوها بنفسه منذ زمن، غير أنها شديدة الاجتهاد والتركيز في العمل وكانت (هديل) تدرك جيدًا أن مصلحة الشركة وتاريخها وعقودها كلها معها، لذلك

كانت لا تريد أن تسعى لإزاحتها كي لا تقوم بأفعال انتقامية غير محسوبة تجاه الشركة..

لذلك كانت دومًا تقف لها بالمرصاد..

ارتبك (أكمل) من نظرات (هديل).. وأنهى حديثه مع (غادة) سريعًا، واتجه للوقوف مع (هشام توفيق)..

لا بأس، الحديث مع الرجال لا يجلب هذه المشاكل..

يضحك في داخله..

يستمر الحفل..

ويستمر الصراع الأبدي المشتعل داخل أكمل!

***

"أقسم بالله يا (أكمل)، أقسم بالله مرة أخرى، لو تجاوزَت من تُسمى ب(غادة) تلك حدودها مرة أخرى، فلن يكفيني أي شيء أفعله بك ولا بها!"

قالتها (هديل) في غضب شديد، وذلك بعد انتهاء الحفل وانصراف المدعوين ودخولهما إلى حجرة النوم..

-اهدأي يا (هديل)! أنت تعلمين جيدًا أنني لا أفكر مُطلقًا في هذا الأمر.. ومستحيل أن يذهب قلبي لَغيرك!

=أعلم جيدًا، ولن تستطيع أصلًا، ولكني أعلم جيدًا أيضًا حركات النساء، وأعلم أنها قد توقعك يومًا ما بأي طريقة.. لذلك احذرني.. واتقِ شري.. أنت لم ترَ مني عيني الحمراء بعد!

يعقد (أكمل) حاجبيه بشدة، وتعجب من شراستها، ولكنه كان يعلم شخصيتها جيدًا..

ويعلم أيضًا أنه ليس دافع الغيرة فقط ما يُحركها، بل دافع النرجسية، أنها ترى نفسها أرقى البشر على الإطلاق، وليس من حق أي إنسان على وجه البسيطة أن يُزاحمها في أي شيء تملكه..

وهي تملكه تمامًا..

يزفر (أكمل) في توتر، ويقول:

-اهدأي.. لا يوجد مجال لهذا الأمر على الإطلاق.. وأنا لن أسمح بأي تجاوز للحدود..

=أتعشم ذلك بالفعل..لأنني لا أريد أن أُريك ماذا سوف أفعل لو حدث ما لا يُحمد عقباه...

-أنا لا أحب التهديد.. وعلى كل حال أنتِ تعرفينني جيدًا ولا داع للتهديد.

=أنا لا أهدد.. أنا فقط أؤكد عليك وأذكرك..

أومأ (أكمل) برأسه، وهدأت هي قليلًا، وقالت:

=كان حفلًا رائعًا، أليس كذلك؟

التقط هو تغيير الموضوع بارتياح وقال:

-بلى بالطبع، كان مُبهرًا! أحييكِ على هذا التنظيم الرائع.

=أنا لا أفعل إلا الأشياء الرائعة!

قالتها في غرور.

-بالطبع يا حبيبتي.

قالها بابتسامة باهتة، وهو يشعر باضطراب داخلي شديد..

فرغم حبه الشديد لها، فهو في الكثير من الأحيان يشعر أنها مُخيفة..

للغاية!

***

اسمي (غادة).. (غادة الليثي)..

وأنا مهندسة، ومديرة التعاقدات في شركة (مودرن لايف)..

عمري أربعة وثلاثون عامًا... ولم أتزوّج بعد، لأسباب عدة...

أحبُّ عملي بشدة..

وأيضًا ما لا يعلمه الناس، وبدأت تُدركه (هديل)..

أنها تحبُّ (أكمل) بشدة..

تعلّق قلبها به بشكل غريب.. لا تفهمه هي نفسها..

ترى فيه ما لا يراه الناس..

ترى الإنسان الذي بداخله..

ترى في عينيه لمعة ما..

لمعة تكسوها بعض القسوة ربما، ولكنه يخفي خلف تلك القسوة إنسانًا، إنسانًا بحق..

أبغض تلك المُدعوة (هديل) بشدة..

مُتسلطة، بغيضة، نرجسية، لا ترى غير نفسها..

من تظن نفسها؟

هل لثرائها ونفوذ والدها وعلاقاتها، ظنت أنها تملك الدنيا وما فيها؟ ومن فيها أيضًا؟

يا لها من حمقاء! نعم حمقاء للمكانة التي لا تستحقها التي تضع فيها نفسها!

إنها لا تستحق (أكمل)!

ولكن لا حيلة لي..

أراه كل يوم تقريبًا، ويقفز قلبي عندما أراه، ولكن بلا أمل..

يا له من عذاب!

***

كان الجو لطيفًا للغاية في هذا اليوم، وكانت هناك نسمة هواء خفيفة مُنعشة، و(عمر) يجلس بالمقهى القريب من منزله..

يفكر.. كما يفعل دائمًا..

يحلل الأمر جيدًا.. هو يحتاج إلى هذه الدراسة في هذا المجال.. يحتاج تجديدًا في حياته.. يحتاج إنعاشًا لأفكاره..

حسنًا..

لن أتراجع.. لن أفوّت هذه الفرصة الكبرى على نفسي..

أنا بالفعل أحتاج لإعادة ضبط عقلي.. لغربلة نفسي...
والفرصة سانحة، وأنا الآن مُطلِّق، ليس عليَّ مسئوليات..
يومئ برأسه لنفسه، ويدفع الحساب، ثم يعود للمنزل.. يفكر..
السيد جلال..! نعم.. يجب عليَّ أن أسَلِّم عليه..
خاصةً أنني لم أزره منذ مدة كبيرة..
يصعد ويطرق على بابه..
يفتح له (جلال) الباب، ويقول متفاجئًا:
-عمر! يا لها من مفاجأة سارة!
=أتعشم أن يكون الوقت مُناسبًا..
-بالطبع يا (عمر).. أنت مُرحب بك في أي وقت.. تفضل ..
يدخل (عمر) وهو يقول:
=اعذرني أنني لم أزرك منذ مدة يا أستاذ (جلال)، فقد كنت مشغولًا ب..
يقاطعه (جلال) مشيرًا بيده أن يصمت، وهو يقول:
-لا أريد أي أعذار أو مبررات، أنت تعلم أنني أعذر الناس بشكل تلقائي بدون أن يحتاجوا لتقديم أي حجج أو أعذار.. أنت مرحب بك في أي وقت حتى لو توقفت عن زيارتي لأعوام.
يبتسم (عمر) في امتنان شديد، ويجلس بالصالة، ويقول:
=لقد أتيتُ لأسلم عليك، فأنا مسافر.

-مسافر! إلى أين؟

=(ألمانيا).. لقد نجحت في الحصول على منحة لدراسة دبلومة إدارة الأعمال هناك، في فرانكفورت، وسأسافر هذا الأسبوع إن شاء الله.

يبتسم (جلال) في هدوء، ويقول:

-وفقك الله يا بني.. المهم أن تكون مُستريحًا لهذا القرار.

يومئ (عمر) برأسه، ويقول:

=لقد فكرت كثيرًا، واستخرت الله، وحجزت تذكرة الطيران والإقامة هناك بالفعل.

كان (جلال) في قرارة نفسه يرفض هذه الخطوة، ولكنه يدرك أنه لا شأن له وأن هذا أمر لا يعنيه، فآثر السكوت، وقال:

-وفقك الله وسدد خطاك..

وقام (عمر)، وقال:

=أستأذنك يا أستاذ (جلال).

يقوم (جلال) ويسلم عليه بحرارة، ويقول:

-أرجو ألا تقطع أخبارك عني.. سأفتقدك يا بني..

=بالتأكيد.

وينصرف (عمر)، وهو ممتلئ بالمشاعر المتضاربة.

فهو الآن في منحنى خطر..

ومفترق طرق!

القسم الثالث: حياة بديلة..

"الأشخاص الذين عندهم أفكار قليلة هم أقل عرضة للخطأ، يتبعون ما يفعله الآخرون، لا يقتلهم القلق ولا يُقلقون أحدًا، وينجحون، ويثرون، ويبلغون مراكز سامية، إنهم نواب، حاملو أوسمة، أدباء ذائعو الصيت، أكاديميون، صحفيون. هل من ينجح على هذا المنوال غبي؟ .. الغبي هو أنا ، أنا المكتئب الأبدي الذي أردت مكافحة طواحين الهواء!"

– أمبرتو إيكو

سأبحث عن حياة جديدة..

حياة بديلة..!

ولو حدث ووجدت نفسي بها..

فلن أعود للحياة القديمة

لن أعود إليها أبدًا!

***

نعم، أبحث عن حياة جديدة بالفعل..

ولكن ما شكل هذه الحياة؟

ما هي الحياة التي يجب أن أعيشها..؟

لقد تعبت من التفكير..

لماذا أنا هكذا؟

ولماذا أنا بالذات..

كل من حولي يعيشون ولا يشغلون بالهم بكل هذه المعاناة..

لا أدعي أنني الوحيد بالطبع، أعلم أن هناك من هم مثلي..

ولكنني الوحيد فيمن حولي..

عقلي مليء بالأفكار المزدحمة، ولكنني لا أستطيع ترتيبها وإخراجها في صورة ملموسة، لا أستطيع أن أخرجها إلى حيز التطبيق، إلى أرض الواقع..

لا أستطيع تحويلها إلى أفعال..

لا أدري هل هذا عجز أم قلة حيلة أم ماذا..

حاولت كثيرًا، وسلكتُ دروبًا كثيرة في السعي..

السعي للوصول إلى أول طريق التغيير..

ولكنني لم أصل..

لقد خضتُ معركةً مع الوهم..

مع طواحين الهواء..

ركضتُ وراء السراب..

حملت همًا لم أكن لأحمله..

أحيانًا أسائل نفسي..

لماذا كل هذه الجدية؟ ما الكارثة الكبرى في الوضع الحالي؟ لماذا أفعل هذا بنفسي؟ فلأحيا ولأنسى كل ذلك..

ولكن لا.. هناك كارثة بالفعل.. كارثة غير ملموسة وليس لها تعريف محدد.. ولكن هناك غيمة سوداء سرمدية لا تتحرك ولا تتغير فوق هذا العالم..

هناك سواد غير مرئي في الجو..

تنتشر سحب البؤس والتعاسة.. لتُسقط أمطارها السوداء غير المرئية فوق رؤوس الخليقة..

وتركد المياه حيث لا يوجد نظامًا لصرفها!

هل أنا بالفعل أبحث عن المعنى في عالم بلا معنى كما يقولون لي؟

هل أنا بالفعل أحارب طواحين الهواء مثل دون كيشوت؟

هل أرضخ لنصائحهم وأتفرغ لأكل العيش؟

هل أحيا كما يحيون، آكل وأشرب وأنام وأبحث عن الترفيه؟ فقط.. هكذا.. هذه هي الحياة بالفعل؟

لماذا وكيف وصل الإنسان إلى كل هذا ال(لا شيء) الذي يحيا فيه؟

يبحث عن كل شيء، ويحيا في اللا شيء في الوقت نفسه..

متمحور حول ذاته وفاقد لها في الوقت نفسه أيضًا..!

لقد ضاعت ذاته وهويته في التيه الذي أُدخل فيه وهو لا يدري..

فقد نفسه، وفقد كل شيء في رحلة بحثه عن كل شيء!

هل أنا من سينقذ البشرية من الضياع؟ لا بالطبع..

إذًا من أنا؟

أنا الإنسان..

أنا الذي يرفض حياة البعير..

أنا الذي يرفض حياة العبيد..

أنا الشجاع وأنا الجبان..

أنا الأحمق، وأنا النبيه..

أنا الأخرق، وأنا العبقري..

أنا الذي أحارب فقط لكي أظل إنسانًا..!

***

نهض (عمر) من فراشه صباحًا بعقل مضطرب وذهن مشوش جراء عدم نومه إلا النذر اليسير..

خرج من غرفته، دخل الحمام ليغسل وجهه، ونظر إلى وجهه في المرآة..

لماذا يشعر أنه ينظر إلى وجه شخص غريب الآن؟

من هذا الذي في المرآة؟

يشعر باضطراب داخلي شديد..

وانتابه القلق بشدة..

ولأول مرة منذ فترة كبيرة..

يشعر بالخوف!

ماذا سوف يفعل هناك بالتحديد..

في هذا العالم الآخر..

في هذه الدنيا الواسعة..

كانت أمه قد أعدت له الإفطار، فتناول إفطاره وشرب الكثير من القهوة عسى أن يفيق شيئًا ما..

فهذا يوم السفر..

يخرج ليجلس في الصالة..

جاء أبوه وجلس بجانبه..

يبدأ في الحديث

-هل أنت مستريح يا (عمر)؟

يقول (عمر) في حذر:

=نعم يا أبي.. ماذا تقصد بالتحديد؟..

يقول له أبوه:

-أنت حر في حياتك بالطبع يا (عمر)، ولكنني لا يعجبني ما تفعله.. تُطلق زوجتك لأسباب عجيبة لم أتخيل أنها من الممكن أن تكون دافعًا للطلاق يومًا ما.. تترك عملك، وتقرر السفر للدراسة بعد تخرجك بثمان سنوات.. ما الذي تريده في حياتك بالتحديد؟

يتنهد (عمر) ويقول:

=لا أدري بالتحديد يا أبي ولكنني أبحث، أبحث عن ذاتي لأتوصل لأفضل صورة ممكنة لها.

يهز أبوه رأسه في أسف، ويقول:

-حسنًا يا بني كما تشاء ولكن تذكر أنني نصحتك، يجب أن تبدأ في تخيل مسار لحياتك، صحيح أن ذلك في علم الغيب ولكن يجب أن تأخذ بالأسباب وتخطط، ثم تترك الأمور تسير بمراد الله..

=هذا ما أسعى إليه يا أبي، أن أصل لصورة نهائية لما يجب أن تكون عليه حياتي.

-وفقك الله يا بني.

=شكرًا يا أبي.

ويقوم والده، ليتركه في حيرة وتوتر شديد..

فهو بالفعل متخبط، مُشتت، مرتبك، لا يدري ما يفعل بحياته بالتحديد..

وكلما يفكر في الهدف والغاية من سفره ويبرر لنفسه، يعود مرة أخرى إلى حيرته..

ولكنه بالفعل قد حصل على المنحة وأنهى كل إجراءات سفره واقترب موعد السفر للغاية..

قُضِيَ الأمر..

كانت أمه حزينة للغاية، حزينة على حاله وحزينة لفراقه..

وجاء موعد السفر..

واتجهوا إلى المطار..

كانت لحظات صعبة، بكت أمه كثيرًا وبكى هو أيضًا، وكان أخوه (علي) حزينًا أيضًا، بينما احتضنه أبوه بشدة وربت على ظهره وهو يقول:

-شد حيلك يا بني.. كُن قويًا ورجلًا كما عهدتك..

يومئ (عمر) برأسه..ثم يدخل (عمر) إلى صالة المطار ليمضي في إجراءاته..

وتبدأ مرحلة جديدة في حياة (عمر)..

مرحلة لا يدرك كيف ستنتهي به.. وكيف ستغيره..

كان لابد له من خوض تجربة جديدة..

في مكان آخر..

وسط مجتمع آخر..

يعلم جيدًا أنه أينما ذهب فلن يفر من التوحش الرأسمالي..

ولكنه يحتاج بشدة إلى التغيير..

إلى التنفس..

هل يجد ذلك غربًا، منشأ الرأسمالية؟

لا يهم أين منشأها، فهي توحشت وهيمنت على الجميع على أية حال..

هو يريد أن يبتعد عن (القاهرة) وتوترها.. يريد أن يحيا حياة أكثر هدوءًا أكثر صفاءً..

فهل يجد ضالته؟

***

كانت المرة الأولى التي يخرج فيها (عمر) من مصر..

يصل (عمر) إلى مدينة (فرانكفورت)..

كان له بضعة أصدقاء في ألمانيا ولكنهم في مدن متفرقة، بالتأكيد سيقابلهم يومًا ما..

يجد سيارة لتوصله إلى المنزل الذي سيقيم به والذي قام بالاتفاق مع صاحبته ودفع لها إيجار شهر مقدمًا على الإنترنت منذ كان في مصر..

يتأمل في الشوارع منبهرًا بالحياة الجديدة والمختلفة..

يفكر..

هو ليس منغلقًا لهذه الدرجة..

هو لا يرفض صور الحضارة، هو فقط يرفض صور البزخ والترف المبالغ فيه..

ولكنه بالتأكيد لا يرفض الرقي والنظافة والجمال..

يشاهد ويتأمل حتى وصل إلى المنزل..

تستقبله السيدة (أولجا) صاحبة المنزل في ود مُتحفظ، وتشرح له باختصار نظام المنزل وتريه غرفته بالأعلى..

يستقبله من في المنزل بود، ويتعرف عليهم..

(كاترينا من أوكرانيا، (سفيان) من المغرب، (أوزان) من تركيا، وأخيرًا (هايلي) من هولندا..

كان (عمر) متحمسًا للغاية لهذه الحياة الجديدة..

فسوف يتعلم أشياء جديدة كثيرة، ويتعامل مع ثقافات مختلفة وأنماط مختلفة من البشر، ويُثري ثقافته وفكره إثراءً جيدًا..

يكون صداقات جديدة..

وحياة جديدة..

حياة بديلة.

***

بعد يومين من وصول (عمر)، ذهب إلى مدرسة (فرانكفورت) للمالية

والإدارة، لبدء الدراسة..

كان (عمر) قد اتخذ قراره بمحاولة تغيير نفسه بالفعل..

اجتهد (عمر) في دراسته بشدة، وكان مستمتعًا بها، وشعر أنه وجد جزءًا لا بأس به من ضالته..

وكان أيضًا قد بدأ يتعايش مع نمط الحياة الجديد، وبدأ في الشعور بالتغيير الحقيقي..

وفي أثناء ذلك، اقترب من زميلته في السكن (كاترينا) كثيرًا حتى صارت صديقته..

نعم، ربما كانت لديه مشكلة فيما مضى في الصداقة بين الذكور والإناث ولكن فكره قد تغير..

فهو صار يعتقد أنه يجب أن يطور شخصيته ويتغير في كل شيء..

ومضى في دراسته وسعى بكل قوته للتفوق بها..

تمر به الأيام والشهور في ألمانيا، يبدأ في إدراك أن الوضع ليس بائسًا إلى هذا الحد.. ليس مأساويًا إلى هذه الدرجة..

يبدأ في التعايش والتفهم..

تتغير شخصيته وتبدأ شخصية جديدة في التشكل..

نعم، من الطبيعي أن يكون العالم كذلك..

من الطبيعي أن يفكر في الخضوع للرأسمالية فهي النظام الوحيد المتماسك المتاح..

هي النظام المُسيطر والمستمر..

يجب أن يفكر في مراجعة أفكاره ومبادئه..

يجب أن يراجع أفكاره بحيث تواكب هذا الزمان..

فأفكاره قد عفا عليها الزمن!

***

كان كلما يسير في شوارع (فرانكفورت)..

يشعر بأن هذا العالم كبير..كبير بحق..

والناس كثر..وتنوعهم واختلافهم رهيب..

مليارات البشر، مليارات الأشكال والألوان و ملايين الأفكار والتوجهات، وآلاف الألسنة، ومئات الدول..

العالم واسع.. أوسع بكثير من أفقه..

أكبر بكثير من عالمه الذي حبس نفسه فيه..

يفكر.. لماذا فعل في نفسه كل ذلك.. ما الذي دفعه لسجن نفسه..يبتسم ساخرًا من نفسه.. هل كان يتخيل أنه سيغير هذا العالم المهول بمفرده! هيهات!

ما الذي دفعه لإغراق نفسه حتى النخاع في أفكار سوداوية قاتمة..

ولكن ها هي الفرصة جاءته..

ولن يتركها!

يقترب (عمر) من (كاترينا) كثيرًا..

وبالطبع تتحرك مشاعره نحوها..

وتتحرك مشاعرها هي الأخرى نحوه..

وصار يحبها بشدة..

هو لم يكن يريد أن يتورط في أي ارتباط وكان يريد أن يركز في دراسته فحسب، ولكنه حدث..

صار يجلس معها كثيرًا.. وحكا لها كل شيء عنه، وفعلت هي كذلك..

وفي يوم، بينما كان يجلس مع كاترينا يتحدث معها ويستأنس بها، وأخذتها السكرة، واستجابت لمشاعرها، فاقتربت منه كثيرًا لتقبله، ولكنه فجأة أفاق..

لا! يقول لنفسه..

نعم، هو تغير بالفعل، ولكن ليس لهذه الدرجة! هناك حدود! لن يفقد مبادئه كلها دفعة واحدة!

لن يقع في هذا الإثم! لا! إلى هنا وكفى!

يدفعها برفق..

تنظر إليه مصدومة، وتقوم بسرعة في إحراج شديد

يذهب إليها (عمر) ليهدئها ويقول:

-كاترينا! سامحيني، لم أقصد أن أحرجك ولكنني لا أستطيع أن أفعل هذا الآن!

=ولِمَ صَحِبتَني كل هذه المدة إذًا إن لم تكن تريد أن نرتبط؟!

-أريد أن نرتبط ولكن ليس أن نفعل ذلك.

=لا أفهمك! ماذا تريد بالضبط!

-لا أستطيع أن أفعل هذا خارج إطار الزواج.

=إذًا نتزوج!

وتجمد (عمر) ولم يجد ما يقوله.

زواج؟ لم يفكر في هذا! لماذا صاحبها بالفعل كل هذه الشهور؟

ثم أنه لم يفكر قط في الزواج من فتاة من ثقافة أخرى ومن بلاد أخرى..

ثقافة أخرى تمامًا! لا تمت لثقافته بصلة!

ماذا يفعل في هذا المأزق!

-كاترينا.. اسمحي لي بوقت للتفكير.

=التفكير في ماذا؟ لماذا دخلت في علاقة أنت لست على قدر مسئوليتها! عمر، أنت لست رجلًا. أنا لا أريد أن أكلمك ثانية!

شعر (عمر) بصدمة لهذا التجريح في كرامته، ولكنه لم يرد.

وقامت هي باكية، ولم يفعل هو شيئًا.

ومضت الأيام وهي لا تكلمه قط، ولم يجد حلًا إلا أن يكتب لها رسالة..

"كاترينا..أنا أعتذر لك بشدة.. أنت أجمل من أن تستحقي ذلك مني.. أنا المُخطئ والمُذنب.. أنا آسف جدًا.. أَعلم أنني دخلت في علاقة وأنا لست بقدر مسئوليتها بالفعل ولكنني لم أقصد أن أفعل ذلك معك.. فقط أحببتك كثيرًا ولم أفكر إلا في أن أكون معكِ وأرافقكِ ولم أفكر في عواقب ذلك

جيدًا.. ربما لن نستطيع أن نكمل علاقتنا ولكن أرجوكِ لا تقاطعينني تمامًا هكذا!... سامحيني!..

من رجل أحبك كثيرًا.. عمر "

وقام بإرسالها..

ومرت الأيام دون أن ترد عليه.. ولكنها بدأت في معاملته بفتور.. شيئًا فشيئًا صار التعامل عاديًا..

وجلس معه (سفيان) ليسأله ماذا بهما.. فأخبره (عمر) عما حدث..

فقال له (سفيان):

-كان يجب أن تدرك أبعاد البيئة التي تواجدت بها أولًا يا (عمر) قبل أن تبدأ أي شيء.

=أعلم يا (سفيان).. لقد أخطأت بالفعل.

-ركز في هدفك الذي جئت من أجله يا (عمر).. ذلك أفضل.

أومأ (عمر) برأسه.. ووعده أن يحاول..

ولكنه في قرارة نفسه كان يعلم تمامًا أن الأمر ليس بيده..

على الإطلاق!

***

بمرور الوقت، هدأت (كاترينا) من ناحية (عمر).. وعادت تجلس معه..

كانت تحبه بالفعل، ولم تستطع الابتعاد عنه..

وفي خلال شهر، عادا كما كانا..

وفي جلسة صفاء بينهما، قالت (كاترينا):

-طوال عمري كانت حياتي عشوائية تمامًا.. كان أبواي شبه منفصلين، أي أنهما يعيشان في نفس المنزل ولكن كل منهما يحيا وحده، ولا يكترث للآخر..ولا يكادان يهتمان لشأني.. في الحقيقة كانت هذه المنحة نجدة لي، ومنفذ، وفرصة لهما أيضًا ليتخلصا من تحمل مسئوليتي.. إنهما من نوعية الآباء الذين لا يدرون لماذا تزوجوا ولماذا أنجبوا ..لذلك كان سفري سهلًا للغاية علينا جميعًا ..وربما كان أكثر شيء منظم قمت به في حياتي ..ولكن حياتي ظلت هنا عشوائية بعض الشيء أيضًا..

وصمتت قليلًا، وتنهدت، ثم نظرت إلى عيني (عمر) مباشرةً وقالت:

-حتى جئتَ أنتَ!

خفق قلب (عمر) بشدة، وأكملت (كاترينا):

-لقد صار لحياتي معنى..اختفت العشوائية وذهب اللاشيء..أنت لا تدرك ما فعلته بي يا (عمر)..

ارتبك (عمر) بشدة، وقال:

=كاترينا..أنا..

-لا تقل شيئًا يا (عمر).. أنت صريح معي ولا تخدعني..أعلم أنك تحبني بحق ولكنك لن تستطيع الزواج بي..يكفي الشعور الذي جعلتني أشعر به.. تكفي الحياة التي جعلتني أحياها..لقد وُلدتُ معك من جديد يا (عمر)!

ارتبك (عمر) أكثر.. وخفق قلبه أكثر وأكثر..

نظر إلى عيني (كاترينا) الزرقاوين الجميلتين..

وامتلأ قلبه بشفقة شديدة نحوها..

كم هي بريئة..

يشعر أنها لا تعلم شيئًا ولا تدرك شيئًا..

كم هي عجيبة هذه الدنيا..

كما تمتلئ بالشر والفساد والظلم..

تمتلئ أيضًا بالبراءة وبأناس ذوي قلوب صافية نقية لا يريدون شيئًا سوى أن يحيوا بسلام، وأن يدعهم الآخرون وشأنهم فقط..

دمعت عيناه تأثرًا، وشعر بحزن شديد أن ظروفه لا تسمح له بالزواج بها..

وأخذتها اللحظة مرة أخرى ونسيت كل شيء، فاقتربت منه وكادت تقبله، وشعرت أنه ربما يستجيب هذه المرة.. فأوقفها (عمر) ثانية وقال:

=(كاترينا)! أنا آسف يا عزيزتي، أرجوكِ اعذريني، غير أن معتقداتي لا تسمح لي بذلك، أنا أيضًا صدقيني أحاولُ الحفاظ عليك وعدم إفساد براءتك..

شعرت (كاترينا) بإحراج شديد مرة أخرى، وقالت:

-وأنا أحترم ذلك يا (عمر، إنه خطئي هذه المرة..

ابتسم (عمر) وأومأ برأسه وقال في ارتياح:

=شكرًا يا (كاترينا).

وانطلقا في الحديث عن أشياء أخرى، ولكن عقل (عمر) كان شاردًا..

شاردًا للغاية..

كم هو عجيب بشدة هذا العالم.. كم هي عجيبة هذه الحياة..

تقودنا المفارقات لمقابلة أناس لم نكن نتخيل أن نقابلهم يومًا..

بل ونتعلق بهم ونحبهم وربما لا نتخيل الحياة بدونهم..

هو من (مصر) وهي من (أوكرانيا)، وكان قدرهما أن يسافرا (ألمانيا) وتحديدًا (فرانكفورت) في نفس الوقت تقريبًا ليتقابلا فيها..

شيء عجيب!

وتبخرت كل أفكاره ليحل محلها سؤال واحد..

ما نهاية كل ذلك؟

***

كانت السيدة (أولجا) مالكة المنزل الذي يقيم به (عمر)، غريبة الأطوار بعض الشيء، هي عجوز خط الزمن تجاعيد وجهها، ذات شعر أبيض قصير، تضع نظارة سميكة على عينيها، وتكاد لا تتحدث مع أحد..فقط تجلس في الردهة في الطابق الأرضي، تشاهد التلفاز أو تقرأ جريدة أو كتابًا ما..

كان (عمر) عائدًا للمنزل مع (كاترينا)، وكانت هي جالسة في الردهة، وألقيا عليها التحية، فردتها بشيء من الجفاء، ثم قالت: عمر!

نظر إليها (عمر) متسائلًا، فقالت:

-أريد أن أتحدث معك في أمر ما.

تعجب (عمر)، وتساءل في نفسه عما تريده هذه السيدة، فهي من النادر

أن تتحدث مع أحد، ولم تتحدث معه هو بالذات من قبل، فذهب إليها مصطحبًا (كاترينا)، فأشارت بيدها أن يتوقف، قائلة:

-أريدك وحدك.

توتَّر (عمر) بعض الشيء، ونظر إلى (كاترينا) متسائلًا، فأومأت الأخيرة برأسها متفهمة، وتركته صاعدةً إلى غرفتها..

تنحنح (عمر) وذهب ليجلس أمام السيدة (أولجا)، فسألته:

-ماذا تريد من (كاترينا)؟

ارتبك (عمر) بشدة، وقال:

=كاترينا صديقتي، و..

-لا تغير الحقيقة، أنا أفهم كل شيء، لا تحاول أن تخدعني من فضلك، لقد عشتُ كثيرًا ورأيتُ كثيرًا وأعلم هذه الأمور جيدًا.

تنهد (عمر) وقال:

=حسنًا يا سيدتي، أنا أحبها بشدة، ولكني لا أدري كيف سينتهي هذا الحب بالتحديد.

-وتلك هي المشكلة بالضبط.

=أعلم أنها مشكلة، مشكلة كبيرة.

-وما دُمتَ تعلم، لماذا تستمر؟

=لا أستطيع إلا أن أستمر، لقد حاولتُ ولكن في كل مرة أفشل.

-أنت لن تتزوجها إذًا؟

=للأسف، ولكني صريح معها، وأخبرتها أكثر من مرة أنني لن أستطيع أن أتزوجها.

-وما الفائدة من الصراحة إذًا؟ لا داعي للاستمرار في هذا الهراء، اتركها لو كنت تحبها بالفعل.

=صدقيني حاولتُ، ولكنها متمسكة بي بشدة، فقط نحن نحيا قصة حب بلا نهاية.

-لا يوجد شيء بلا نهاية.

يصمت (عمر).. لا يجد ما يقوله..

تقول هي:

-اسمع يا (عمر).. أنت لا تعلم عني شيئًا.. لقد ارتبطتُ في شبابي برجل عربي أيضًا.. كان ذلك في سبعينيات القرن الماضي، بدأ الأمر عام ١٩٧٧ تقريبًا.. كنت في السابعة والعشرين من عمري

وتعرفتُ عليه في العمل.. ارتبطنا وخضنا قصة حب عنيفة أيضًا.. ولكننا شئنا أم أبينا ذوي طباع مختلفة.. ولم تكتمل قصتنا .. أنتم لستم مثلنا ونحن لسنا مثلكم، في كل شيء تقريبًا.. لا خلفية ثقافية ولا اجتماعية ولا تاريخية ولا أي شيء.. لماذا نجهد أنفسنا بهذه العلاقات المُنهكة؟

يصمت (عمر).. لا يجد ما يقوله.. فكلامه له وجاهته بالفعل..

ربتت على كتفه وقالت:

-أعد التفكير يا (عمر) وأنا واثقة أنك ستصل إلى الفعل الصواب.

أومأ (عمر) برأسه وقال:

=حسنًا يا سيدتي.. وشكرًا لكِ ..

وانصرف وفي رأسه ألف صراع.

***

كان (عمر) يتحدث مع أهله عبر الإنترنت..

يسألونه عن أحواله في لهفة..

تسأله أمه:

-ما بك يا (عمر)... صوتك وملامحك متغيرة.

=لا شيء يا أمي.. لا شيء..

-كيف ذلك؟ أنت متغير ولا شك.. ما بك يا بني؟

=صدقيني يا أمي لا شيء.. أنا فقط مضطرب قليلًا، مزاج متقلب فقط.. لا تقلقي .

-حسنًا يا بني..

يدخل (علي) على الخط ليقول له :

-- ألن تبارك لي؟ لقد قرأت الفاتحة وعلى وشك الخطبة.

تتسع عينا (عمر) ويقولك

=بالفعل؟ مبارك يا أخي! أسعدتني والله!

--حبيبي، دعواتك.

=أتم الله أمورك على خير. ومتى الخطبة إن شاء الله؟

--بعد ثلاثة أسابيع إن شاء الله.

ابتسم (عمر)، وشعر أنه يتمنى لو كان بجانب أخيه، ولكن هكذا الدنيا.. وهو أيضًا كان لا يعود إلى مصر في إجازات لتوفير المال لإقامته.. ولأنه أيضًا كان يريد عُزلة طويلة..

يدخل أبوه في هذه اللحظة على الخط، ويسأله في اقتضاب:

== كل شيء على ما يُرام؟

يبتسم (عمر) ويقول:

= كل شيء يا أبي، لا تقلق.

==وفقك الله يا بُني..

ثم تقول أمه:

-أرجوك يا (عمر).. اعتنِ بنفسك.. ولو حدث أي شيء أخبرني.. أنا أمك.

= لا تقلقي يا أمي.. لا تقلقي..

ولكنها كانت قلقة بشدة..

***

كان (عمر) و(سفيان) و(أوزان) جالسين في شرفة المنزل يشربون القهوة ويتحدثون..

أما (هايلي) فقد كان يُفضّل العُزلة..وكانوا لا يعلمون الكثير عن شئونه، ويحترمون ذلك..

يقول (سفيان):

-جئتُ من (شيشاوة) فرارًا من مطحنة للدخول في مطحنة أخرى.. الكثير يظنون أن المغرب بلد جميل وحسب.. ولا يدركون أن الكثير من أهلها يعانون أيضًا..

أومأ (عمر) برأسه وهو يقول:

=أنا مؤمن بشدة بأن المعاناة والمكابدة موجودة في كل مكان على وجه الأرض، مهما بدا هذا المكان جميلًا.

يوافقه الجميع، ويقول (أوزان):

*صحيح، لقد عانيتُ كثيرًا في تركيا قبل مجيئي إلى هنا.

يهز (عمر) رأسه في أسف ويقول:

لقد كُتبت علينا المعاناة والمكابدة في هذه الدنيا، أيًا كان مكاننا..

يبتسم (سفيان) ويقول بالفرنسية:

-C'est La Vie..

يصمت (عمر) قليلًا ثم يقول:

=في الحقيقة يا رفاق، أنا لا أدري ما الذي ورطتُ نفسي به.. لقد تعلقتُ ب(كاترينا) بشدة.. وتعلقت هي بي بشدة أيضًا..وهذا لم يكن في الحسبان على الإطلاق.. ولا أدري ماذا أفعل في هذا الأمر..

يعتدل (أوزان) وهو يقول بجدية:

-يجب أن تتخذ قرارك يا (عمر).. وبسرعة.. إما أن تنهي هذه العلاقة

فورًا وإما أن تعرض عليها الزواج.. وأنت كما أعلم لا تريد الزواج بها لأنه غير مناسبة لثقافتك ولظروفك.. وبالتالي.. يجب أن تتحلى بالشجاعة الكافية لإنهاء هذه العلاقة.

يومئ (سفيان) برأسه وهو يقول:

-أؤيد بشدة وأتفق تمامًا.. أنصت ل(أوزان) يا (عمر)..

يلتقط (عمر) كوب القهوة ويرشف منه رشفة، ثم يقول:

=الأمر شديد الصعوبة.. ولكنكم على حق.. العقل يقول ذلك.. وهنا يجب أن يحكم العقل لا القلب.

ثم ينظر بعيدًا ويقول:

=حسنًا.. سأستجمع شجاعتي وأفعلها.

وكان هذا قراره النهائي..

***

كان الأمر صعبًا..

صعبًا على الطرفين.. على (عمر) وعلى (كاترينا)..

كانت (كاترينا) تدرك الأمر جيدًا.. وتراه قادمًا..

ولكنها بكت.. بكت بشدة...

ولهذا ازداد الأمر صعوبة على (عمر)..

اسودت الدنيا في عيني (كاترينا) وصارت كئيبة صامتةً..

وكذلك (عمر)..

مرت الأيام بعدها برتابة قاتلة..

حتى مكالماته لأهله على الإنترنت قلّت للغاية وصار يستثقلها..

ومرت الشهور...وقضى (عمر) وقته في دراسته..

وفي يوم، عاد إلى المنزل ليجد سيارتي الإسعاف والشرطة بالخارج، فخفق قلبه بشدة، وركض بسرعة إلى الداخل ليرى ماذا حدث..

وكانت الصاعقة..

انتحرت (كاترينا)..

اتسعت عينا (عمر) في ذهول شديد من هول الصدمة..

ولم يحتمل..

انفجر في بكاء شديد..

وشعر أنه السبب..

لحق به (سفيان) ليربت على كتفه ويقول:

هوّن عليك يا صديقي، لقد تركت رسالة وذكرتك فيها.. اهدأ..

وأعطاه هاتفه ليريه صورة الرسالة التي تركتها، فأمسك به في لهفة وقرأ..

"رحلتُ لأنني لم أجد المعنى في أي شيء.. لأنني لا أجد أي معنى لحياتي.. لأنني ليست لي أسرة.. وليس لي أحد.. رحلت لأنه لا يوجد شيء.. أي شيء أحيا لأجله... ورسالتي إليك يا (عمر).. أرجوك لا تشعر بتأنيب ضمير.. أنت لستَ السبب.. أنا مصابة باكتئاب مُزمن من قبل مجيئك... أنت كنت فترة قصيرة جميلة في حياتي ولكن صدقني أنتَ لست السبب في انتحاري..

الوداع للجميع.. كاترينا"

أعطى (عمر) الهاتف ل(سفيان)، وبكى..

بكى بحرقة شديدة..

يا للمسكينة!

يا للبائسة!

جاءت ورحلت دون أن تجد شيئًا تحيا لأجله..

ورغم ما قالته (كاترينا)، فقد شعر بتأنيب ضمير شديد..

ليس لأنه تركها.. ولكن لأنه ارتبط بها منذ البداية.. لم يُدرك أي إنسانة هشّة يتعامل معها بالتحديد..

لم يُدرك مدى رقّتها وهشاشتها..

رحلت (كاترينا).. رحلت وتركت بداخله شرخًا أبديًا!

***

تمر الشهور...

يتزوج (علي)، و(عمر) لا يزال في ألمانيا..

يعود (عمر) من ألمانيا بعد قضاء حوالي ثلاثة أعوام بها..

لقد مرت الأعوام بسرعة..

يعود بعد أن تغير كثيرًا..

الزمن يُغير المرء، نعم، ولكن (عمر) تغير كثيرًا جدًا بالفعل حتى صار

أقرب لشخص آخر تمامًا..

شخص مُفعم بأفكار حداثية، مختلف، تبدلت آراءه وأفكاره ومبادؤه كثيرًا..

شخص يكاد يكون متبلد المشاعر..

يستقبله أبوه وأخوه في المطار.. بحرارة شديدة، استقبلها هو بشيء من البلادة، فسرها الاثنان بإجهاده من السفر..

يعود إلى منزله، تحتضنه أمه بقوة وتبكي متأثرة، ثم تبتعد قليلًا وتقول:

=أشعر أنك مختلف يا (عمر).. فيك بعض الجفاء.. ماذا حدث لك.. هل غيرتك ألمانيا كثيرًا؟

-تغيرت يا أمي نعم ولكن للأفضل..لا تقلقي..

=لست قلقة ولكني متعجبة..

-لا تتعجبي أيضًا.. فقط راجعت نفسي في بعض الأمور..

تهز رأسها متعجبة.. وتقول:

=لا بأس يا بني.. انتظر لأجهز لك الطعام.. كم افتقدتك!

يبتسم لها (عمر) في امتنان وينتظر في الصالة..

يأتي (علي) ومعه زوجته، يقدمها له قائلًا:

=(مروة)، زوجتي.

يقوم (عمر) ويحييها بهز رأسه مبتسمًا، ويقول:

-أهلًا بكِ، تشرفنا.

تبتسم له، ويلاحظ (عمر) أنها حبلى، فيربّت (علي) على بطنها ويقول:

-نحن في انتظار (فيروز).

يبتسم (عمر) ويقول:

-مبارك يا أخي.

بسيطٌ دومًا.. هكذا هو أخوه (علي).. بسيط وعادي ويأخذ كل الأمور ببساطة.. الآن يتمنى لو كان مثله.. ولكنه كُتبت عليه المُعاناة الفكرية دومًا..

يأتي أبوه ويجلس بجانبه ويضع يده على كتفه ويقول:

-ماذا تنوي على فعله الآن يا بطل؟

يبتسم له (عمر) ويقول:

=سأبحث عن عمل يناسب مؤهلاتي الجديدة، ربما مدير قسم بشركة استثمار عقاري كبرى.. سوف أرى..

يومئ أبوه برأسه ويقول:

-أعانك الله يا بني..

سكت قليلًا ثم قال:

=وهل ستظل معنا أم ستقيم ببيتك أيضًا.

ارتسمت معالم الحرج على وجه (عمر) وهو يقول:

-عذرًا يا أبي، أرجوك تفهّم، سأقيم معكم يومين ثم أعود لبيتي.. هذا أفضل..

أومأ أبوه رأسه في أسف.. ولم يُعقب..

كان بداخله الكثير من الكلام، ولكنه آثر الصمت..

فضّل ألا يضغط عليه..

ولم يدر لماذا يشعر بهذا القلق على ابنه..

شعور غريب!

***

ينزل (عمر) من بيته قاصدًا المقهى الذي كان يعتاد الجلوس به..

فقابل جاره (السيد) جلال..

اتسعت عينا (جلال)، وقال في انفعال:

-عمر! حمدًا لله على سلامتك! متى رجعت؟ افتقدتك كثيرًا! كيف حالك؟

وقف (عمر) مُتجمدًا للحظات، مُترددًا بين حالة التبلد التي أصابته، وبين رغبته في عدم إحراج الرجل، ولكن الإنسان بداخله انتصر في النهاية.

احتضن (عمر) (جلال) وربت على كتفه وقال:

=وأنا أيضًا افتقدتك كثيرًا يا أستاذ (جلال)، لقد عدت اليوم للتو، وأنا بخير حال ولله الحمد، كيف حالك؟

ولكن رغم محاولة (عمر)، شعر (جلال) بخلل ما، وقال:

-أنا بخير، الحمد لله، ما بك يا (عمر)، أشعر أن بك شيء ما.

=لا شيء يا سيدي، ربما أنا مُرهق من السفر ليس إلا..

أومأ (جلال) برأسه، وقال له:

-سأتركك الآن، ولنا جلسة سويًا إن شاء الله.

=إن شاء الله.

قالها (عمر) بابتسامة زائفة..

قالها وهو لا يشعر برغبة حقيقية هذه المرة في الجلوس معه..

فعقله انشغل وامتلأ بأمور أخرى.. ليس لها مكان لهذا الأمور الصغيرة في رأيه..

ويذهب إلى المقهى.. كان يريد أن يجلس وحده قليلًا ليرتب بعض الأفكار..

كيف ستكون حياته الجديدة؟

وهل تغير بالفعل؟ هل سينسى كل ما كان لديه من مبادئ بالفعل؟ أم هل يتمسك ببعضها ويلقي بالبعض الآخر وراء ظهره؟

سوف يرى..

"كاترينا"

يقفز اسمها في رأسه..

تلك البائسة!

تنزل دمعة ساخنة من عينه، رغم التبلد الذي أصابه..

دمعة ليس فقط لأنه فقدها، ولكن إشفاقًا عليها بشدة...

يجب أن يتجاوز هذا الأمر..

يجب أن يُخطط جيدًا لما هو قادم..

يشرب القهوة، ثم يعود إلى بيته هو..

يريد أن يكون وحده..

هذا أفضل..

يبدأ في الترتيب والتخطيط لحياته..

بالفعل يبحث (عمر) عن عمل يناسب مؤهلاته الجديدة..

يظل قرابة الشهر يبحث، ليجد في النهاية فرصة للعمل كمدير تسويق في أكبر شركة استثمار عقاري في مصر .

تسويق؟ لم لا؟ قد كان يفكر في أقسام أخرى، ربما التعاقدات أو المكتب الفني مثلًا ولكن لم لا يُجرب؟

بالطبع كانت وظيفة تتطلب عدد سنوات خبرة أكثر من عدد سنوات خبرته ولكنه كانت لديه المؤهلات الكافية للعمل بهذه الوظيفة..

كان يخطط لأن يكون لديه عمله الخاص، ويطبق فيه كل ما تعلمه وكل أفكاره، ولكن كان لابد من محطة هامة أولًا..

وقد وجد ضالته في هذه الوظيفة المرموقة..

مدير تسويق بأكبر شركة تطوير واستثمار عقاري في مصر..

يا لها من خطوة! لو وصل إليها وعمره لم يصل إلى الخامسة والثلاثين..

قدّم أوراقه بالفعل، وبحث في معارفه السابقة عن واسطة تدفعه وتصل به إلى مقابلة هناك..

وتم ترتيب مقابلة معه بالفعل..

ارتدى زيًا رسميًا بالكامل، وذهب للشركة في موعد المقابلة..

استقبلته إحدى موظفات الموارد البشرية، وأوصلته إلى مديرتها..

لأنه على مستوى المديرين يجب أن تقوم هي بنفسها بعمل المقابلات..

"تفضل يا مستر (عمر).. الآنسة (ديلا) في انتظارك:

ديلا! يا له من اسم عجيب! لا بأس، الأسماء الغريبة كثيرة..

دخل إلى مكتبها، ونظر إليها، لينبهر بشدة في داخله..

يا لها من فاتنة!

كانت ذات شعر أشقر مُموج ثائر، وعينين واسعة وملامح شديدة الجمال رغم ما فيها من قسوة..

أشارت إليه وقالت بالإنجليزية:

-have a seat.

أومأ برأسه، وجلس، وبدأت المُحادثة التي كانت بالإنجليزية بالكامل، وكانت تتحدث هي بلكنة أمريكية سليمة تمامًا..

سألته عن رؤيته، ولماذا اختار هذا المنصب بالتحديد، ولماذا هذه الشركة، وما طموحه، وتاريخه، وما إلى ذلك..

وكان هو يجيب بطلاقة شديدة..

وكان في داخله مُعجبًا بها بشدة!

يا لها من امرأة!

إنه الآن يريد أن يعمل هنا ليس للمنصب ولا للشركة.. بل لكي يعمل

معها في نفس المكان!

انتهت المُقابلة وهو لم يُرد لها أن تنتهي، وقامت الموظفة الأولى بتوصيله لصاحب الشركة ورئيس مجلس إدارتها..

"تفضل.. مستر (حسن) في انتظارك"

قابله الرجل وسأله عن بعض الأشياء البسيطة.. كان رجلًا في العقد السابع من عمره، ويبدو عليه الخبرة الكبيرة، لذلك لم يحتج للكثير ليُقيّم (عمر)..

يبتسم له في النهاية ويصافحه، ويخبره أن الموارد البشرية سوف يتواصلون معه بشأن عرض العمل..

ويحدث ذلك بالفعل بعد يومين..

تم قبوله كمدير قسم التسويق في شركة هي تقريبًا أكبر شركة تطوير واستثمار عقاري في مصر..

وبمرتب كبير للغاية..

لم يكن يحلم بذلك..

وفي هذا السن..

وما ساعده أن صاحب الشركة كان يبحث عن الشباب بالفعل..

امتلأ بالأمل والسعادة..

ها هو يبدأ مرحلة جديدة مليئة بالأمل في حياته!

***

بالفعل يبدأ (عمر) في العمل بالشركة..

ويتأقلم سريعًا..

وتتوطد علاقته بمديرة قسم الموارد البشرية التي كانت تُدعى (ديلا)..

فيما بعد يعلم أنها ابنة صاحب الشركة وأن اسمها الأصلي (هديل)..

ويتحسن قسم التسويق كثيرًا على يده ويثبت فيه نجاحًا مُبهرًا..

ويقترب كثيرًا من صاحب الشركة المهندس (حسن).. ويوطد علاقته به أيضًا..

شيئًا فشيئًا، رويدًا رويدًا تتبدل شخصية (عمر) تمامًا..

وما كان يرفضه رفضًا قاطعًا بالأمس، صار واقعًا حيًا اليوم..

واقعًا لابد منه..

يمر الوقت، ويبدأ في الطمع...

لتتكون خطة ما في رأسه!

***

عاد (عمر) في يوم من عمله ، ولكن لمنزل أهله ليزورهم..

بعد تناول الطعام، يجلس عمر مع أبيه وأمه..

تنظر إليه أمه في أسف، وتقول:

-ماذا دهاك يا (عمر)؟

فيرد (عمر):

=ماذا بي يا (أمي)؟

-لم تَعُد (عمرًا) الذي أعرفه جيدًا.. أشعر أنك شخص آخر.. أين ذلك البريق الذي كان في عينيك؟ لقد انطفأ وتحول، وتبدل حالك، وتغيرت حياتك، وانقلبت شخصيتك، وطباعك لم تعد طباعك التي عرفتها وتعودت عليها.. أين ذهبت؟ حتى القراءة.. في الماضي كنت دائمًا ما تمسك بكتاب تقرأه عندما تجلس معنا ولكن الآن لا تمسك بشيء غير هاتفك المحمول!

=لا شيء يا (أمي).. فقط صرتُ أقوى وأكثر استقرارًا ربما.

-يا حسرتاه، يا فرحتي بالقوة، لو كانت على حساب الخير والحق.. أرجو أن تعيد حساباتك في حياتك يا (عمر)..

=لا تقلقي عليَّ يا أمي.. فقط بدأت أفهم الدنيا جيدًا.

-على حساب فطرتك؟

=وماذا فعلتُ بفطرتي؟ ماذا جنيتُ غير الهم والغم؟ فلأعش حياتي.. أتستكثرين علي أن بدأت أعيش حياتي قليلًا وأكون ميسور الحال وذا مركز مرموق؟!

-حاشا لله أن أستكثر عليك الخير يا (عمر)! ولكنني لا أرى هذا خيرًا!

=لا تقلقي يا أمي.. لا تقلقي.. خيرًا إن شاء الله.

وتهز أمه رأسها في أسف..

وتنظر إلى أبيه، الذي سأله بدوره:

-ألا تنوي الزواج ثانية.

نظر إليه (عمر) وكأنه صُدم من السؤال، فهو بالفعل لم يُفكر في هذا

الأمر.

يقول:

=لم لا يا أبي؟ لا مانع.. سأفكر في الأمر..

ويقفز تفكيره مباشرةً إلى امرأة بعينها...

***

كانت الشركة قد أعلنت عن تنظيم حفل كبير لإطلاق مشروع مُجمع سكني جديد..

وكان الحفل في فندق كبير بالتجمع الخامس..

حضر (عمر) الحفل، وكان يشعر بالفخر أنه جزء من هذا الصرح..

كان يتحدث أثناء الحفل مع بعض الزملاء عندما وقعت عيناه على (هديل)..

وكانت فاتنة بحق..

فقد كانت ترتدي ملابس تكشف أكثر مما تستر، وانسدل شعرها المموج المجعد الثائر على كتفيها ليعطيها تألقًا وبهاءً لافتين للنظر..

ولم يتمالك (عمر) نفسه ولم يعد قادرًا على الكتمان..

توجه إليها مباشرة، وقال:

-هديل.

التفتت إليه في دلال متحفظ، وهزت رأسها وهي تقول بنظرة متسائلة:

=عمر؟

-أنا أحبك.

رفعت (هديل) حاجبية في دهشة وتعجب لم تستطع إخفاءهما، وقالت:

=يا لك من جريء!

-ولم أكون غير ذلك؟ وبم ينفع الجُبن والتردد والخوف؟ الحياة لا تحتمل التردد، وهذا العالم لا مكان فيه للجبناء!

=حسنًا يا جريء، تحبني، ثم ماذا؟

-ثم ماذا؟ ثم زواج! أحبك وأريد أن أتزوجك وأكمل حياتي معكِ أنتِ فقط!

يرتفع جاجباها في تعجب مصطنع هذه المرة، وتقول:

=ألم أقل أنك جريء؟ رغم نظرات الإعجاب التي لا تنتهي أبدًا لم يجرؤ أحد على الاقتراب مني إلى هذا الحد بل وإعلان حبه لي ورغبته في الزواج بي!

-الحياة فُرص! ولو لم أستغل فرصتي لاقترابي من أجمل نساء الكون، ربما لا تأتيني هذه الفرصة ثانية!

=جميل! هذه هي وجهة نظري في الحياة أيضًا! أنها فرص يجب أن تُستغل أفضل استغلال ممكن!

أتعلم؟ لقد رفضت زيجات عدة رفضًا قاطعًا، كلها علاقات عن طريق أبي، وأنا أبغض ذلك بشدة.. أين المغامرة؟ أين المخاطرة؟ ما هذه التقليدية؟ ورفضت أيضًا الكثير ممن حاولوا الارتباط بي فترة الجامعة، لأني رأيت كل هذه محاولات مراهقة لزجة!

ابتسم (عمر) في إعجاب شديد، وسعادة، وقال:

-جميل.. جميل يا (هديل).. جميل جدًا، ما قولك إذًا؟

تومئ (هديل) برأسها وتقول:

=حسنًا.. موافقة!

اتسعت عينا (عمر) في ذهول وقال في دهشة حقيقية:

-موافقة؟! هل هذا حقيقي؟

تشير بسبابتها وتقول ضاحكة:

=موافقة أن أعطيك فرصة.

يبتسم (عمر) ويقول:

-أجمل فرصة في حياتي.

تضحك (هديل) في دلال، ضحكة قصيرة متحفظة مدروسة..

ويذوب قلب (عمر)، ويبتسم في ظفر

***

هديل... لقد تكونت فوق قلبي طبقاتٌ وطبقاتٌ من البؤس والكآبة، وأريد أن ينتهي كل هذا على يديك... أريدك أن تزيلي كل هذه الطبقات بسحرك...

لقد قررت أن أبدأ صفحة جديدة تمامًا في حياتي وأريد أن أبدأها على يديكِ أنتِ...

أنتِ لا تدركين ما الذي تمثلينه بالنسبة إلي بالضبط... أنتِ دنياي الجديدة تمامًا... أنتِ عالم آخر مواز لعالمي البائس... أنتِ نقلة من حَال إلى أخرى...

أنتي ثورتي الخاصة، والانقلاب على نظام حكم نفسي...

أنتِ روايتي التي لم تُكتب بعدُ..!

لقد صارت (هديل) هي شغفه وإدمانه..صارت جنونه.. صارت هدوءه وثورته.. صارت هي سُمَّه وترياقه.. صارت كل شيء! لا يدرك ما الذي فعلته به؟

رغم أن هذا النمط من الفتيات لم يكن يستهويه يومًا!

رغم شخصيتها المتسلطة..

رغم تكبرها وغرورها..

رغم أنها لا تحب غير نفسها..

رغم كل ذلك..

أحبها.. وعشقها، وتعلق بها بشدة..!

***

يطلب (عمر) مقابلة صاحب الشركة ووالد (هديل) .. المهندس (حسن الألفي)..

يجلس معه بالفعل..

يتنحنح (عمر)، ويبدأ في الحديث..

-أنت تعلم جيدًا يا سيدي طمعي الدائم في التطور.. في كل شيء..

يومئ (حسن) برأسه..

-لذلك أنا أمتلك الشجاعة الكافية لكي أتقدم لطلب ابنتك الكريمة

(هديل)..

يبتسم (حسن)، ويومئ برأسه لعلمه السابق بما يريده (عمر)..

-سيكون من دواعي شرفي وفخري وسروري أن تقبل بذلك يا سيدي.

=أنا على استعداد للقبول يا (عمر) بالطبع، ولكني أريد أن أسمع أكثر.. أن تحدثني عن نفسك أكثر..

-حسنًا يا سيدي.. أنت تعلم جيدًا تعليمي ووظيفتي بالطبع.. والدي هو (صالح الجَمّال).. مهندس معماري.. أسكن في مدينة نصر، كنت أعمل في شركة مقاولات كبرى ثم تركتها وعملتُ بشركة استثمار عقاري، وكنت متزوجًا وطلقتُ زوجتي، ثم تركتُ عملي وسافرتُ إلى ألمانيا، (فرانكفورت) تحديدًا..درستُ إدارة الأعمال في مدرسة فرانكفورت للمالية والإدارة.. ثم عُدت لأبدأ العمل هنا..

=وما الذي جعلك تطلق زوجتك الأولى؟

يقول (عمر) كاذبًا:

-لم تكن على مستوى طموحاتي ..

يومئ (حسن) برأسه..

يبتسم، ثم يقول:

=حسنًا يا (عمر).. أنا موافق مبدئيًا.. فلنتفق على كل شيء إذًا..

يبتسم (عمر) في سعادة، ويقول:

-وأعدك أن أكون عند حسن ظنك.

ويتنهد (عمر) في راحة، مُعلنًا في نفسه عن بداية مرحلة جديدة في حياته..

جديدة تمامًا

يشير بيده ويقول:

ولكن يا مستر (حسن).. قبل الزواج.. أريد أن أغير اسمي..

أعلم أنه لا يمكنني تغير اسمي بالكامل في أوراقي الرسمية، يمكنني تغيير اسمي الأول فقط إذا وجدنا الواسطة المُناسبة والطريقة الملائمة.. وأتمنى أن تساعدني بعلاقاتك.. لأغير اسمي الأول ويصير اسماً مُركبًا!

يفكر (حسن).. يعلم أن علاقاته شديدة القوة.. ويتعجب لهذا الطلب..

يسأله:

وماذا تريد أن يكون اسمك الجديد؟

-أكمل... أكمل فريد!

-لماذا هذا الاسم بالذات؟

-السعي للكمال، والسعي لأن أكون فريدًا من نوعي! .. الكمال.. والتفرُّد..!

-مممممم.. حسنًا إذًا..تبحث عن اسم يلائم الفترة الجديدة من حياتك..

يقولها ويضحك..

-نعم، نعم يا مستر (حسن)، وهذا سيكون اسمي الجديد.. (أكمل.. أكمل فريد!)

***

-هل تفاجأتم؟

معكم (أكمل فريد).. لا، لم يغير (عمر) اسمه ليكون مثل اسمي...

لقد غير (عمر) اسمه ليكون هو أنا..

لم تستوعبوا بعد؟

عمر هو أنا..

(عمر) هو نسختي الماضية بالفعل وليس مجازًا!

وقد كنت أستدعيها من حين لآخر للحديث معها واستعادة الذكريات وتذكر ما كنت أفعله في نفسي.. أو ربما هي مازوخية!

هل تفاجأتم؟

لا بأس، لستُ مريضًا بالمناسبة، ولا مشكلة نفسية عندي!

إنني أستدعي نسختي الماضية بكامل وعيي وإرادتي الحرة!

أتصارع معها لأثبت لها أن نسختي الحالية أرقى وهي التي على حق!

هي الفائزة..

هي المستمرة..

هي الباقية في وسط هذا العالم الذي لا يرحم أمثال (عمر) ولا يعترف بهم!

أمثال (عمر) من الخاسرين البائسين الذين ظنوا أن بإمكانهم تغيير العالم.. حمقى!

لست مريضًا.. أنا متزن بشدة.. واثق بنفسي للغاية.. ربما صرت نرجسيًا

بعض الشيء.. ولكنني سليم نفسيًا تمامًا.. أؤكد لكم ذلك!

أدرك (عمر) أن لا حل مع هذا النظام إلا التماهي التام معه!

لماذا تحمل همًا يا رجل! لماذا تحمل همًا ليس همك.. لماذا تسعى لتغيير عالم راض بما هو فيه ولن يتغير!

عالم لا يشعر من فيه بأن هناك شيئًا خاطئًا.. لا يشعر أن هناك مشكلة..

لماذا تسعى إلى إصلاح عالم ليس مقتنعًا بفساده من الأساس؟

كن جزءًا منهم إذًا..

كن منهم..

اندمج معهم..

لا تيأس..

انظر إلى حالك..

بائس.. تعيس دائمًا.. مهموم..تشعر بالهزيمة واليأس والكآبة..

لماذا كل هذا؟

أفق يا رجل!

لن يتغير كل هذا الذي ترسخ في مئات السنين..

لن يتغير على يديك أنت!

من أنت حتى تغير كل ذلك؟ من تظن نفسك؟

من أنت حتى تُحدث تجديدًا يُذكر؟

حسنًا..

فلننه كل ذلك..

فلينتهي كل هذا الحزن والبؤس واليأس والمعاناة والمكابدة!

ماذا جنيت؟

فلتمزق كل الدفاتر المتسخة المكسوة بالتراب، ولتستبدل بها دفاتر جديدة نظيفة ولتملأها بحياة جديدة..

حياة بديلة!

***

اتفق (عمر) مع (حسن الألفي) على كل شيء، واتفقا أن يبيع (عمر) بيته في مدينة نصر ليدفع مقدم لفيلا في التجمع الخامس..

وتمت الخطبة..

وقضى (عمر) أيامه سعيدًا بالخروج مع (هديل) والانطلاق معها..

يا له من تحوّل في حياته!

الوداع يا (عمر)!

***

"غيرت اسمك! اسمك يا (عمر)! أنا لا أصدق!"

"من أنت؟ أين (عمر) ابني الحقيقي؟! أين أخفيته أيها الغريب؟!"

كان هذا رد فعل أبيه وأمه المصدومين عندما علما بتغييره لاسمه..

أما (علي) فضرب كفًا بكف.. أي مجنون هذا؟

وأين الذي كان يحدثه عن المبادئ والحق والعدل؟

وآثر ألا يُعلق..

كان والداه مبتئسين بشدة..

وشعرا أنهما فقدا ابنهما..

إلى الأبد!

***

اتفقت (هديل) مع (عمر) أن يخرج معها في مكان تختاره هي..

أرسلت له الموقع على (واتس آب)، وذهب إليه في الموعد المُتفق عليه..

ليتفاجأ بأنه ملهى ليلي (ديسكو)!

يقف مذهولًا على الباب للحظات، حتى أتت (هديل) فجأة وجذبته من يده وتدخله عنوة..

ينظر حوله يمينًا ويسارًا..

ألهذه الدرجة، يهوي بنفسه إلى هذا المُنحدر؟

هو ليس مثاليًا نعم، ولكن ليس لدرجة ملهى ليلي!

ينظر إلى الناس وهم يرقصون بعنف وكأنهن يطردون أرواحًا شريرة، فيهز رأسه أسفًا..

تصم الأغاني الصاخبة أذنيه..

تأخذه (هديل) إلى الطاولة التي يجلس بها أصدقاؤها، فترفع صوتها ليسمعونها:

-أقدم لكم (عمر).. خطيبي.

فيطلقوا صيحات تعجب مصطنعة وسمجة، ويقول أحدهم:

=أنت إذًا من أوقعت ملكة الجليد والبرود العاطفي!

ضحك الجميع، وابتسم هو ابتسامة صفراء، ولم تعجبه الأجواء على الإطلاق!

كانوا ثلاثة شباب وثلاث فتيات، وكان هو غير مستريح.. ويشعر بانقباضة..

كانت هي تمازح هذا، وتضحك مع ذاك، وتضرب كفها بكف هذا...

وكان هو يحترق من الداخل..

ثم الطامة أنها قامت لترقص مع الجميع..

كان يدرك جيدًا أنها تتعمد أن تريها أقصى ما تفعله في حياتها لكي يعتاد هذا ولكي تصل له رسالة أنها لن تتغير..

أو أن ما تفعله خيار متاح من حين لآخر، لا يحق له الاعتراض عليه..

وكان هو بين نارين..

نار الانفصال عنها وبالتالي يفقد كل شيء..

ونار البقاء معها واحتمال كل ذلك..

ولكنه اختارها.. وسيتحمّل من أجلها..

لن يفقد كل ذلك!

فقد وجد نفسه ووجد كل شيء!

***

"إني استخرت الله تعالى، وقبلت زواج موكلتك هديل حسن كامل الألفي، البكر الرشيد، على كتاب الله وسنة رسول الله وعلى الصداق المسمى بيننا عاجله وآجله والحضور شهود على ذلك والله خير الشاهدين"

قالها (عمر) في سعادة شديدة مُعلنًا (هديل) زوجةً له..

تم عقد القران، وبعدها مباشرةً بدأ حفل الزفاف..

وكان حفلًا عظيمًا، في فندق من الفنادق الراقية للغاية، وحضره ضيوف من نخبة المجتمع، من معارف (حسن الألفي) والد (هديل)، وأحياه مغنّون مشهورون..

ورغم ذلك لم يسترح والدا (عمر) على الإطلاق..

كان حفل زفافه من (نهى) على الرغم من بساطته هادئًا سعيدًا وكانا سعيدان به بشدة..ولكنهما الآن يشعران أنه شخص آخر..

شخص ليس منهما..

وها هو حفل كبير به كل ما لذ وطاب، وذو مستوى راقٍ للغاية، ولكنهم غير مستريحَين على الإطلاق..

انتهى الحفل، وصارت (هديل) رسميًا زوجة ل(عمر)..

وبدأ فصل جديد في حياة (عمر) الجديدة..

فصل (أكمل فريد)

***

يقضي (أكمل) شهر العسل مع (هديل) في جزر المالديف..

يا له من عالم.. ويا لها من حياة!

ويا لها من سعادة!

يُحدث نفسه...ها هو الأمر سهل..لماذا كل هذا التعقيد..لماذا كان يفعل ذلك في نفسه؟!

لماذا كان يدفن نفسه بهذا الشكل البائس؟

يمر الوقت..

يبدأ (أكمل) في الحديث مع (حسن الألفي) عن المدير العام (علاء سليمان)..

لا يعجبه.. ما الذي يفعله؟ وجوده كعدمه.. لماذا يحصل أمثاله على مُرتب.. هو خسارة للشركة..

مع الوقت يقتنع (حسن).. يزيح (علاء سليمان) مع دعوات هذا الأخير على (أكمل)..

ويحتل (أكمل) منصب المدير العام..

في عامه السادس والثلاثون أنجب توأمًا (ولدًا وبنتًا) وأطلق عليهم أسماء حديثة (تارا) و(ريان)، فهذه هي الموضة!

الموضة التي طالما حاربها ورفضها بشدة..

الموضة التي كان مؤمنًا بأنها قيد يعيقك عن الحرية الحقيقية..

يتذكر حديثه مع زوجته السابقة (نهى)..

وكيف انتقد ورفض سعيها لاتباع الموضة..

لا يريد أن يتذكر..

فليقتل نسخته الماضية وليدفنها للأبد..

كم كنت أحمقًا..!

كنت أود تغيير العالم يومًا ما.. كم هو أمر مُضحك ومثير للشفقة..!

كنت أرغب في أن أساهم في جعل العالم مكانًا أفضل..

وها أنا ذا أفعل ولكن من منطلق آخر..

الآن أدرك أنني يجب أن أساهم في الحفاظ على النظام كما هو.

الاستمرار في حفظه وعدم الإخلال به..

هذا ما سيجعل العالم مكانًا أفضل!

لماذا كل هذه الجدية يا عمر؟ لماذا كل هذه المعاناة؟ أيعجبك كل ما أنت فيه من ألم؟

كم أنت أخرق وغبي يا (عمر)..

كم أنت بائس!

***

"يا لها من قصة عجيبة بالفعل!"

قالها طبيب (أكمل) النفسي، ثم قال:

-أن تتغير شخصيتك إلى النقيض تمامًا، وتفعل كل ما كنت ترفضه رفضًا قاطعًا من قبل، ليس بالأمر الهيّن، وبالتأكيد عصف بنفسك عصفًا..

يومئ (أكمل) برأسه، يقول:

=نعم، نعم يا دكتور، ما حدث بداخلي يشبه العاصفة بالفعل..

وزفر بقوة، وقال:

=ولا أخفيك سرًا أنني لم أتماهى معه مائة بالمائة.. ما زال بداخلي جزء، يشبه الضوء الأحمر الذي يخبرني أن هناك شيء، بل كل شيء خطأ..

يصمت قليلًا، ويكمل:

=هذا الجزء صار يتجسد أمامي وأستدعيه في صورة نسختي الماضية، في صورة (عمر) الذي أخفيته، حتى صار كأنه جسد حي أمامي..

يومئ الطبيب رأسه في اهتمام، ويكتب بعض الملاحظات، ويقول:

-هذا نوع من أنواع الفصام.. ولكن حالتك غريبة بالفعل.

=في الحقيقة يا دكتور، أنا لم آتِ إليك لتشخيص حالتي، لن يُحدث هذا فارقًا بالنسبة إلي- فقط جئت كي أتحدث.. وأخرج كل ما بداخلي.. أخرج كل ما لا أستطيع الحديث به مع زوجتي أو أي أحد..

-ولكن من المُهم أيضًا أن تدرك ما أنت فيه لكي لا يتحول إلى وحش يلتهمك من الداخل..

=فليلتهمني كما شاء.. لقد صرتُ متقبلًا لأي مصير.. بعد أن وصلتُ لما أنا فيه صرتُ لا أريد شيئًا، لا أرغب في شيء بشدة، صارت كل الأمور

سواء..

وهز الطبيب رأسه في أسف..

وانتهى الوقت المُحدد للجلسة، واتفقا على موعد الجلسة القادمة، لينصرف (أكمل)..

أو (عمر صالح) سابقًا..

***

الآن فقط أخبركم الحقيقة

الحقيقة هي أنني أنهار..

إن (عمر) لا يكف عن زيارتي في أحلامي.. زيارات مؤلمة للغاية..

وهناك حلم عجيب أحلم به دائماً..

حلسم مُرعب

أحلم أنني ألتهم نفسي!

أنا لم أعد أحتمل نفسي..

الرأسمالية التي أدافع عنها بشراسة هي في الحقيقة وحش يلتهمنا جميعًا..

وأنا قد تماهيت معها تمامًا حتى لم أعد أدرك أين هي ذاتي الحقيقية.. ومن أنا؟

هل أنا (أكمل) أم (عمر)؟ هل (عمر) وهم أم هو حقيقتي الماضية بالفعل؟ هل كنت كذلك أم أتمنى أن أكون كذلك؟

الحلم الثاني هو أنه يرى أنه ينسلخ من جلده كالثعبان.. ويبدله بجلد

آخر..!

حلم مخيف!

لقد تداخلت الرؤى والأفكار.. وصارت الرؤية مشوشة.. والحقيقة غائبة.. والأحداث غامضة...

أين هي الحقيقة؟

هل أرهق نفسي بالبحث عنها أم أنهي كل ذلك بيدي؟

هل هناك شيء خاطئ بالفعل، أم أن كل الأمور في نطاقها الصحيح ونحن من ننهك أنفسنا بالبحث عما وراءها؟

هل توجد مشكلة حقيقية فيما نحن فيه، أم أنه ليست هناك أي مشكلة وهذا أفضل وضع ممكن ومتاح بالفعل؟

لا أدري. ولن أدري.

لأنني لن أجد وقتًا لكي أعلم.

فقد قررت أن أنهي كل هذه المعاناة!

***

"يا بني..

أكتب إليك الآن تعيسًا..

كنت أتمنى أن أشارك في جعل هذا العالم مكانًا أفضل لك ولنظرائك..

كنت أتمنى أن أُغيِّرَ شيئًا ما.. أفعل شيئًا ما..

ولكنني فشلت..

جرفتني الحياة جرفًا.. وسحقتني سحقًا..

لم تترك لي شيئًا لأفعله.. ولا وقتًا لأفكر وأعمل..

ولا بالًا رائقًا..

ظللت نصف حياتي الأول أسعى لبناء صرح، وظللت نصف حياتي الثاني أهدمه..

كنت أتمنى.. ولكن ليس بالأماني وحدها...

والآن أرجو من الله أن تكون أنت سببًا.. أن تفعل ما لا أستطع أنا فعله...

يا بني.. الوداع..!"

***

وكان لابد أن أعترف أنني فقدت القدرة على المقاومة..

جسدي منهك

وروحي مستهلكة..

أنى لي أن أستعيد نفسي القديمة، أن أستدعي نفس المشاعر التي كانت تملأني، نفس الحماس للتغيير واليأس من التغيير كذلك، نفس الهموم، نفس الأفكار، نفس الغضب..

لقد تراكمت الخيبات والتيه والتخبطات والصدمات وأشياء لا نهائية على نفسي وقلبي حتى طمست نسختي الماضية طمسًا حتى لم يبقَ منها شيء.

فقط لم يبق إلا التبلد، والبرود، وفقدان الشغف والحماس تجاه كل شيء..

شيئًا فشيئًا بدأت أفقد حسي الإنساني.. حسي الفني والأدبي والجمالي..

بدأت أفقد نفسي.. أفقد ذاتي وأكتسب ذاتًا جديدة..

كنت مرتبكًا في البداية وحائرًا ومتخبطًا، ولكني مع الوقت اعتدت ذلك واكتسبت بلادة وتأقلمت وتعايشت..

صرت شخصًا عمليًا بحتًا..

العمل.. المال.. الوجاهة الاجتماعية.. الثلاثي الذي لم يعد شيء غيره يهمني..التحول إلى (أكمل فريد) الذي أنا عليه الآن كان مرهقًا ومنهكًا وحمل الكثير من المكابدة في أوله، ولكنني بعد ما عبرت كل ذلك هدأت واسترحت وصرت باردًا.. باردًا للغاية..

وصلت إلى مرحلة اللا عودة..

في الحقيقة أنا راض عن نفسي بشكل مخيف الآن..تماهيت تمامًا مع هذا التحول.. تماهيت تمامًا مع (أكمل فريد)..!

***

كانت (هديل) في زيارة لوالدها.. فقد طلب منها زيارته للحديث معها في أمر لا يريد الحديث عنه معها في الشركة..

كانت قد فضّلت منذ زواجها الاستقرار في بيتها وعدم الاستمرار في الإقامة مع والدها رغم مساحة منزله العملاقة ..

وبينما هو جالس معها اعتدل وقال:

-قريبًا يا (هديل) لن أستطيع تحمل عبء منصب رئيس مجلس الإدارة أكثر من ذلك، لم يعد بالي رائقًا بالشكل المطلوب، ولم تعد صحتي تسمح، سواء النفسية أو البدنية..

توترت (هديل) قليلًا، وسألته:

-وماذا إذًا يا أبي؟

=سأترك مكاني لشخص آخر.

خفق قلب (هدطيل) بشدة، وشعرت أنها تقترب من المنصب، وشعرت بالسعادة بدلًا من الحزن على أبيها الذي كَبُرَ سنُّه ولم يعد يقوى على منصب كهذا..

تمالكت نفسها وسألته:

-ومن هو هذا الشخص يا أبي؟

نظر إليها لبرهة ثم قال:

-(أكمل)، زوجك.

شعرت (هديل) بصدمة، ونظرت له في ذهول متسائلة:

=أكمل! ولماذا ليس أنا! أنا ابنتك يا أبي!

-ستكونين أنتِ مكانه في منصب المدير العام بدلًا من مديرة الموارد البشرية، وسيتولى هو منصب رئيس مجلس الإدارة.

=حسنًا، منصب المدير العام جيد يا أبي ولكن لماذا ليس أنا أيضًا.

تردد أبوها قليلًا ثم حسم أمره قائلًا:

-أُفضِل رجلًا في هذا المنصب.

=أها! هكذا إذًا! تفكير ذكوري كالعادة!

-هديل! الزمي حدودك! ليس مجرد تفكير ذكوري ولكن الأمر له أبعاد

كثيرة، من حيث الإدارة والسيطرة على الأمور وعلى الموظفين والمديرين والعملاء والمقاولين والاستشاريين، كل هؤلاء ممن نتعامل معهم، ورؤيتهم لهذا المنصب.

=هراء يا أبي.. رؤيتهم هراء ولا تعنيني في شيء.. المهم هو عملي وما سأقدمه للشركة!

-ماذا تقولين؟ هؤلاء هم من تستمر الشركة بسببهم! هراء؟!

=أقصد أنني سأثبت لهم جميعًا ماذا يمكن أن تفعل امرأة متمكنة!

-لسنا في حاجة إلى كل هذا يا (هديل)، لقد اتخذت قراري بالفعل.

وصمت برهة ليتابع سخطها وملامحها الغاضبة، ثم قال:

-ولا تنسي أن ملكية الشركة ستؤول إليكِ في النهاية.

نظرت إليه (هديل) في دهشة وقالت:

-أنا؟ وماذا عن أعمامي؟

عقد (حسن) حاجبيه وقال:

-لن أتركهم ليفسدوا ما بنيتُه ولن أثق إلا بكِ يا ابنتي... سأكتب وصية واضحة بنقل ملكية الشركة إليكِ حال وفاتي.

ارتبكت (هديل) بين الفرحة وبين أن إظهارها غير لائق، وقالت:

=أطال الله في عمرك يا أبي.

-ولكن في هذه الحالة سيظل (أكمل) أيضًا رئيسًا لمجلس الإدارة. سأكتب ذلك في الوصية أيضًا.

مطت (هديل) شفتيها ساخطة، غير مقتنعة، وأشاحت بوجهها وقالت :

=حسنًا يا أبي كما تشاء

-وهذا المنزل الكبير.. سأكتبه باسمك أيضًا.. أنتِ كل ما لي في هذه الدنيا يا حبيبتي.. لن أترك أحدًا غيرك يستمتع بخلاصة عُمَري.

اتسعت عينا (هديل) وخفق قلبها، وامتلأت بالطمع، وقامت لتقبيله على رأسه وهي تقول:

=يا حبيبي، أطال الله عمرك، وحفظك لنا.

يصمت (حسن) قليلًا ثم يقول:

-لا أدري يا (هديل) لم أشعر أن يومي قريب..

ربتت (هديل) على كتفه وقالت:

=لا تقل ذلك يا أبي، أنت لا زلت شابًا في نظري.

ضحك (حسن) وقال:

-شاب! ليس لهذه الدرجة.. حفظك الله يا ابنتي..

وسكتت (هديل) وهي تفكر ليس في أبيها، ولكن في الشركة والمنزل والورث..

ولمعت عيناها في طمع.

***

في الأيام التالية، مرض (حسن الألفي) بشدة، وفوّض مهامه بالفعل إلى (أكمل)..

وتلقى (أكمل) الخبر بسعادة شديدة..

أخيرًا سوف يصل..

وفي يوم، بعد أسبوعين تقريبًا، وبينما يجلس (أكمل) على مكتبه، سمع طرقات على بابه، فأذن للطارق بالدخول، ثم دخل عليه (حسن)..

تفاجأ (أكمل)، وتلجلج، وقام ليترك مكانه ل(حسن الألفي)، ولكن الأخير أشار إليه أن يجلس، واتجه إلى الأريكة الوثيرة بالغرفة ليجلس، وقال:

-لا تقلق يا (أكمل)، لم آت لأستعيد مكاني.. فقط أتيت لأتفقد سير الأمور ولأطمئن عليك وعلى (هديل).

=ماذا تقول يا عمي؟! هو مكانك بالفعل ولا تحتاج لاستعادته.

-لم آتِ لذلك بالفعل.

ابتسم (أكمل)، وهدأ بعض الشيء وهو يقول:

=لا تقلق يا عمي، كل شيء على ما يُرام.

-تذكر، هنا لا يوجد (عمي).

قالها بابتسامة مازحًا.

فضحك (أكمل)، وقال:

=دعني أُعد لك بعض القهوة إذًا يا مستر حسن.

-لا، لا تجهد نفسك، لا أريد القهوة الآن.

=حسنًا ولكن بمجرد أن تشعر بالرغبة في شربها فلتخبرني على الفور.

-شكرًا يا (أكمل)، كيف حالك مع المنصب الجديد؟

=بخير حال، كل شيء يسير على ما يُرام، وتأقلمتُ سريعًا بفضل الله أولًا ثم بفضل وقوفك بجانبي يا أستاذي.

-أريد أن أطمئن على الشركة قبل أن يحضرني الموت.. لقد كتبتُ في وصيتي أن تؤول ملكية الشركة ل(هديل) وأن تظل أنت رئيسًا لمجلس الإدارة.

خفق قلب (أكمل) بشدة، وقال:

=أطال الله عمرك وبقاءك معنا يا (عمي).. لا تقل ذلك..

يبتسم (حسن)، ويبتسم (أكمل)..

ولكل ابتسامة معناها!

***

وحدث ما كانت تخشاه (هديل) وتنتظره في نفس الوقت..

مات المهندس (حسن الألفي)..

وتأرجح (أكمل) بين الحزن عليه، فقد تعلق به بالفعل.. وبين الفرحة بالمنصب الجديد رسميًا..

وكانت جنازة كبيرة..

حضرها معظم موظفي الشركة، وأصحاب شركات كبرى، ووزير الإسكان بنفسه، فقد كان على علاقة وطيدة ب(حسن)..وشخصيات هامة أخرى..

وحضرها أهل (أكمل) رغم عدم رضاهم عنه ولا عن زوجته، ولكنه الواجب ولا يصح أن يتخلفوا عنه..

ورغم حزنهما، إلا أن (أكمل) و(هديل) كانا في غاية التشوّق للمرحلة الجديدة..

والقفزة الكبرى..

***

كانت (هديل) رغم كل شيء لا زلات تطمع وتطمح..

رغم كل ما امتلكته وكل ما وصلت إليه..

تمر الأيام..

تكتمل الفكرة في رأس (هديل)..

تدخل ل(أكمل) في مكتب رئيس مجلس الإدارة..

تميل عليه في دلال وتقول:

-جئتك بقراري الجديد.

=قرارك؟ وما هو يا حبيبتي؟

-سنزيح (ماجد حسين) من منصبه لأحتل مكانه، وأكون نائبتك. أعتقد أن هذا يناسب التطور الجديد أكثر.

يخفق قلب (أكمل).. يعلم جيدًا أنها تريد ذلك لتحكم سيطرتها على الأمور ليس إلا..

ولكنه يخفي ما نفسه.. يقول:

=يا له من قرار جميل، بالطبع يا حبيبتي سيكون من دواعي سروري، ولكن بالنسبة لعمي (حسن) رحمه الله، ألم يوصيكِ بالبقاء في منصب المدير

العام؟

-كان هذا يناسب مرحلة ما، ولكنه ذهب، والآن الأوان أواننا..

شعر (أكمل) بالقلق على منصبه، لأنها الآن مالكة الشركة ومن السهل أن تزيحه..

ولكن عزاءه أنها أذكى من ذلك..

أومأ برأسه وقال:

=حسنًا، حسنًا يا عزيزتي، سأصدر قرارًا بتعيينك كنائبتي وتغيير منصب (ماجد) إلى المدير العام.

وفعل (أكمل) بالفعل..

ولكن (ماجد) شعر بالظلم، رغم أن منصب المدير العام كبير أيضًا ولكنه شعر بالسخط لأنه لم يُقصر في شيء.. فقام بتقديم استقالته.. يعلم أن خبرته تكفي ليعمل في شركات أخرى كبيرة أيضًا..

حاول (أكمل) أن يثنيه عن قراره ولكنه أصرّ بشدة..

وتم تعيين مدير عام جديد، يُدعى (هاني حجازي)..

وبدأت مرحلة جديدة..

***

فركت (هديل) يديها وهي تسير جيئة وذهابًا بمكتب (أكمل) ، فقد كانت في غاية التوتر وهي تجلس في مكتب (أكمل)..

فقد حدثت كارثة..

ففي إحدى المجمعات السكنية التي تملكها وأنشأتها شركة (مودرن لايف)، حدث انفجار لأكثر من ماسورة مجاري ضخمة، وغرقت شوارع المُجمع في المجاري، وثار المُلاك على الشركة..

وانتشر الخبر واهتزت سمعة الشركة بشدة..

وكان هذا إيذانًا ببداية انهيار الشركة..

تشعل (هديل) سيجارة وتنفث دخانها في عصبية، وتقول في توتر:

-ماذا تعني يا (أكمل)؟ هل سينتهي أمرنا على هذا النحو؟ بسبب هؤلاء الحفنة من الرعاع الحاقدين؟ أنا لا أقبل الهزيمة بأي شكل! يجب أن تتصرف يا (أكمل)!

يجيب (أكمل) عاقدًا حاجبيه في شدة:

=سأجد حلًا يا (هديل).. سأجد حلًا بالتأكيد.

-ربما يكون هؤلاء الحثالة الذين تسببوا في هذا الأمر مدفوعون من شركات منافسة.

يهز (أكمل) رأسه نافيًا ويقول:

=لا يا (هديل).. لا.. لقد زار (هشام توفيق) الموقع بنفسه وتأكد مما يقولون.

تهز (هديل) رأسها في أسف، وتقول:

-يجب أن يُعاقب المسئول عن هذه الكارثة بلا رحمة!

=يتم بالفعل.

-حسنًا، دعنا نفكر فيما سنفعل.

=هناك فكرة تدور في رأسي.

وقام فجأة، وقال:

=سنقوم بحملة إعلانية!

-حملة إعلانية؟!

تتساءل (هديل) في دهشة.

=نعم..نعم، هذا هو الحل الوحيد، حملة إعلانية قوية وشرسة ومكثفة ومركزة، عن جودة مجمعاتنا السكنية وجودة الحياة بها، ومتانة المباني الشديدة وروعة التشطيب وفخامته، والخدمات المبهرة، سنفعل ذلك وبسرعة بحيث لا نعطي فرصة لهؤلاء أن يسقطوا شركتنا! وبالتوازي، نقوم بتعويض المُلاك الساخطين بالشكل المناسب.. نصلح المشكلة سريعًا، ونعوضهم عن كل الخسائر، وننظم احتفالية ضخمة بالمجمع السكني وندعوهم جميعًا للحضور مجانًا.

-نعم يا (أكمل)..حل رائع! هيا نبدأ فورًا!

تقولها في حماس شديد.

=أيضًا سنؤجر بعض الأشخاص، ليصنعوا زحامًا شديدًا على باب مقر المبيعات الخاص بالشركة بالتجمع الخامس..

ليدرك الناس أن كل شيء تحت السيطرة وكل الأمور لا تزال على ما يُرام.. وسأكلف (غادة) بتجهيز العقود الوهمية حتى تُحبك القصة جيدًا.

-أبهرتني! حقيقةً أبهرتني يا (أكمل)! عندما يعمل عقلك بحق، تُخرج

الدُرر!

يبتسم (أكمل) ويرفع حاجبيه في غرور.

وتبدأ هي وأكمل في حملة الخداع والتزييف!

***

"يكفي حتى الآن يا (أكمل)"

قالها (ياسر) في حزم، وهو يجلس مع (أكمل) في المقهى الغربي الذي اعتادا اللقاء به، ثم قال:

-أما يكفيك ما وصلتَ إليه؟ أما يكفيك الآثام التي اقترفتها؟ لماذا أنت مُصر أن تهوي بنفسك إلى قاع الحضيض أكثر وأكثر؟ في الحقيقة أنا لم أعد أحتمل ذلك منك!

=اهدأ يا (ياسر)، هكذا يقتضي عالم (البيزنس).. من أجل أن تستمر لا حلول أخرى!

-هكذا يقتضي عالم الشر، عالم الظلام، لا تتحجج بذلك، أما يوجد شخص واحد شريف ونظيف في هذه المنظومة؟ بالتأكيد يوجد، بالتأكيد هناك من يستطيع الحفاظ على شرفه وإنسانيته، ولكنك اخترتَ الطريق السهل!

=أنت لا تعلم شيئًا.

-ولا أُريد أن أعلم، يا أخي أنا أحمد الله أنني لم أعمل معك، فأسبح معك في نفس المُستنقع الآسن.. أتدري.. أنا أيضًا لا أريد أن أظل صديقك.. في الحقيقة أنا نصحتُك كثيرًا ولكنك لستَ مُجرد شخص مُضطر إلى ما تفعله،

بل أنت متماهي معه تمامًا وسعيد به.. لذلك لم تَعُد صداقتك تُشرفني! الوداع يا من كنتَ يومًا صديقي وأخي!

وقام غاضبًا، وبُهِت (أكمل) وشعر بالصدمة..

ها قد تركه آخر من تبقى له من أصدقاء..

وآخر إنسان حقيقي في حياته...

كما ابتعد عنه أهله أيضًا بعدما ابتعد هو عنهم وجافاهم وتكبر عليهم..

ويبقى السؤال..

ما نهاية كل هذا يا (أكمل)؟

***

كل من حولك زائف..

كل ما حولك زائف..

حياتك.. زوجتك..أبناؤك.. شركتك.. زملاؤك.. منزلك..

كل شيء غير حقيقي...

كل شيء باهت..

مشاعرك.. إحساسك.. ردود أفعالك.. أفكارك...

كل شيء مُصطنع..

زيف..

وهم..

اصطناع...

باختصار..

أنت غير حقيقي!

***

كانت (هديل) خارجة من المقهى الغربي الذي كانت تجلس به مع صديقتها (هايدي)..

كانت تاركة لسيارتها واقفة بطريقة عشوائية، لا اعتبار فيها لأي سيارة بعدها أين تقف، وعندما خرجت من المطعم، وجدت شخصًا متذمرًا حانقًا، وعندما وجدها تتوجه إلى سيارتها بلا اكتراث قال لها منفعلًا بشدة:

-تعطلون مصالح الناس وتضيعون أوقاتهم بلا أدنى إحساس ثم حتى لا تعتذرون! أي وقاحة هذه!

نظرت إليه باستهجان وقالت بلهجة متعالية:

=أتكلمني أنا؟ كيف تجرؤ أن تتحدث إلي بهذه الطريقة الوضيعة؟!

قال غير مصدق:

-وضيعة! أنتِ الوضيعة لو تعلمين!

صرخت فيه:

= أنت عديم الأدب، وسأعلم جيدًا كيف أربيك!

-تربينني!! لم أر شخصًا بهذه الوقاحة وانعدام الأخلاق بهذا الشكل! غير معقول!

أمسكت بهاتفها المحمول، وقالت:

=يبدو أنك لا تعلم من أنا وبنت من بالتحديد.

-بل أعلم جيدًا من أنت

قالت في دهشة:

=تعلم أنا ابنة من؟

-نعم أعلم، أنت بنت كلب! لا يفقه شيئًا عن التربية!

نظرت إليه في ذهول، وقالت:

=حسنًأ، أمثالك لن يجدي معهم الكلام، بل الأفعال، وستعلم جيدًا ماذا سوف أفعل بك!

أشاح بيديه وقال:

-افعلي ما تشائين، واذهبي إلى الجحيم بسيارتك هذه لأنني ليس لدي وقت أضيعه أكثر من ذلك!

ضحكت ضحكة ساخرة قصيرة وقالت:

-وقت؟ يبدو أنك لا تعلم ما سيُفعل بك.. لن تذهب إلى أي مكان الآن حتى تأتي الشرطة!

=الشرطة؟! أنت من ستطلبين الشرطة!! تفعلين فعلتك ثم تطلبينها أنتِ! حقًا، ضَرَبَني وبَكَى ثُم سَبَقَني واشتكى!

نظرت إليه باستخفاف، ولم ترد، وأخذ هو يضرب سيارتها بيده بقوة، ويقول:

-حركي سيارتك الآن وإلا سوف تندمين!

ظلت ناظرة إليه باستفزاز، حتى فقد أعصابه تمامًا، وقام بدفعها إلى باب سيارتها وهو يصرخ:

-حركي سيارتك اللعينة أيتها الحقيرة!

حاول الناس منعه وحاولوا إقناعها بالتحرك ولكنها كانت باردة مستفزة.

وفي هذه الأثناء وصلت سيارة الشرطة، ونزل منها الضابط فقالت له:

=أرأيت، سجل عندك بسرعة تحرش وتعدي ومحاولة سرقة سيارتي!

نظر إليها الرجل في ذهول، وقال:

-كاذبة! أقسم لك يا حضرة الضابط أنها كاذبة تمامًا، بل هي كانت تاركة سيارتها صفًا ثانيًا ولم أستطع الخروج بسيارتي!

هز الضابط رأسه آسفًا وقال له:

-نحن مضطرون للقبض عليك. ونظر للعساكر وقال: ضعوه في البوكس!

كان الرجل في حالة ذهول، غير مصدق لما يحدث وهم يضعونه في السيارة، وهي تنظر إليه في تحدٍّ مستفز للغاية، حتى وجدها أمامه في قسم الشرطة أمام مأمور القسم، الذي كان يسجل محضرًا ويأخذ أقوالهما، وهي مصرة بشدة على أقوالها باتهامه بالتحرش والتعدّي ومحاولة السرقة، وقد قامت باتصالاتها مستغلة لعلاقات والدها، ووصى عليها والدها جيدًا، فتم الأمر سريعًا وأُلقي بالرجل في الحجز على ذمة التحقيق، وهو يُحسبن ويهدد ويتوعد، وقد شعرت هي بالانتصار.

هل ظلمته؟ لا، لا تشعر بذلك، ما فعلته به هو يستحقه جزاء ما فعله، تعلم جيدًا أنه لم يفعل ما قامت باتهامه به، ولكنها قامت بتقدير عقوبته التي يستحقها في رأيها واتهمته بما ترى أنه سيؤدي إلى هذه العقوبة! نعم، لا أحد يجرؤ على إهانتها والاعتراض على أفعالها دون أن يفلت من عقوبة قاسية!

أنهت التحقيق ثم عادت إلى منزلها مرهقة، راضية عن نفسها بشدة، شاعرة بالزهو والفخر، وانتظرت زوجها (أكمل) لتحكي له ما حدث بالتفصيل، فقال لها مترددًا:

-ألم تظلميه بعض الشيء؟

=ظلمته؟ أنت طيب بشدة يا (أكمل)! بالطبع لم أظلمه. هذا هو عين العدل وقد نال ما يستحقه!

قالتها مستنكرة.

هز (أكمل) كتفيه، وقال:

-حسنًا..جيد أنكِ أخذتِ حقك!

رفعت (هديل) رأسها وقالت:

=حقك أن تفخر بزوجتك القوية!

ابتسم (أكمل) وقال:

-بالطبع!

ولكنه في قرارة نفسه كان يشعر بخلل، هي لم تستعن به ولم تطلبه مساعدته بأي شكل، لقد قامت بكل شيء بنفسها، حتى والدها هي استغلت علاقاته فقط، ولكنها تفضل القيام بكل شيء بنفسها دون الاعتماد الحقيقي على أحد.

وهذه علاقة زوجية بها خلل واضح.

وأيضًا في قرارة نفسه هو يؤمن تمامًا أنها قد ظلمت الرجل ظُلمًا بينًا شديدًا، ولكنه لا يجرؤ على التصريح بذلك بوضوح لكي لا يُدخل نفسه في جدال لا نهائي معها وحتى لا تنقلب عليه وهو حريص على إرضائها بشدة.

وكالعادة آثر السلامة..

***

التاريخ: ٣١ أكتوبر ٢٠٢٦..

المكان: فيلا (أكمل فريد)..

الحدث: احتفال بمناسبة الهالووين

فقد قامت (هديل) بترتيب احتفال خاص بالهالووين بمنزلهما، وقامت بدعوة كل أصدقائها..

ليس الاحتفال من أجل طفليهما، فهما ما زالا صغيرين للغاية، ولكن من أجلها هي، لأنها اعتادت الاحتفال به، ولكنها لسبب ما قررت إقامة الحفل في المنزل هذه المرة..

يتساءل..

لماذا يجد نفسه متورطًا في الاحتفال بالهالووين والكريسماس ومناسبات لا تمت لهُويته بصلة؟

ما هذا الهراء؟

إصرار (هديل) وإلحاحها الشديد هو الذي اضطره لفعل ذلك، ولكن ما هذا الذي يحدث في بيته؟

أُناس يرتدون ملابس هزلية لا يدركون أبعادها بالتحديد...

ربما هي تخص معتقد ما، أو طائفة ما، أو قبيلة ما، لا يهم...

تحول الإنسان إلى سلعة... إلى مجرد شيء..

لا يدرك ما الذي يفعله بالتحديد، ولماذا يفعله؟!

يفعل ما تمليه عليه حضارة أخرى وثقافة أخرى دون تمييز أو تفكير!

ما شأنه هو بالهالووين وبالكريسماس وعيد الشكر؟

لماذا نفعل ما يفعلونه ولا نفعل ما يخصنا فقط؟

سؤال سيظل بلا إجابة!

***

كان (علي) يتصل بأخيه (أكمل)، عمر سابقًا، بشكل شبه يومي ليخبره أن أباهما مريض بشدة..

وتعرض لعدة جلطات..

وكان يدفعه لزيارة أبيه، ويخبره بأن هذه لا يصح، وكان (أكمل) يتحجج بانشغاله الدائم..

ولكنه في يوم قرر الزيارة، تغلب (عمر) بداخله على (أكمل) ودفع نفسه لزيارة أبيه..

يزور (أكمل فريد) أباه على فراش المرض..

يقول له أبوه:

-من الجيد أنك ما زلت تتذكرني.

-يا والدي أنا لا أنساك أبدًا.. ولكنك تعرف الدنيا.. الدنيا تلهيني وتأخذني فقط..

-نعم أعرف الدنيا جيدًا.. فكلما يكبر المرء يا مستر (أكمل)، كلما يدرك حقيقة الدنيا جيدًا.. ويدرك أنها لا شيء.. ويدرك أنه لا يوجد شيء، أي شيء على الإطلاق في الدنيا يستحق أن يلهيك عمن تحبهم ويحبونك.. يدرك أن كل المكابدة، والإنهاك، والصراعات، والسعي المحموم للمال والسلطة، والسعار المادي، والتشتت، والتوتر، والهموم.. كل ذلك، كله بلا اسثناء لا شيء! هباء منثور!

-ولكننا مُجبرون.. أيًا كانت حقيقة الدنيا ولكن الحقيقة أيضًا أننا مُجبرون ومضطرون أن نسعى وأن نفعل كل ذلك.

-لا أحد مُجبر على شيء. نعم، السعي على الرزق واجب ولا تستقيم الحياة بدونه. ولكن ما نضع أنفسنا فيه من توترات ومشاحنات وصراعات وتشنجات وهموم شديدة، كل ذلك لسنا مُجبرين عليه ولكننا نضع أنفسنا فيه وضعًا.

-نحن نفعل كل ذلك لكي نستريح ماديًا ولا نحتاج لأحد. لكي نؤمّن أنفسنا وأبناءنا لأننا لا نعلم ما يخفيه لنا المستقبل!

-نستريح.. نعم..نستريح ماديًا وندمر أنفسنا إنسانيًا واجتماعيًا ونفسيًا وآدميًا ومعنويًا وكل شيء.. نحن مجرد حمقى لا أكثر!

يصمت (أكمل).. هو يعلم أن أباه على حق.. ولكنه قد أدخل نفسه الدوامة بالفعل.. وإذا سقطت في الدوامة فإنك لا تستطيع الصعود مرة أخرى.. فالتيار يجرفك إلى أسفل فقط!

تدخل أمه في هذه اللحظات...

تنظر إليه نظرة تحمل حزنًا عميقًا..

يطرق (أكمل) برأسه..

يحاول تجاهل النظرة..

تقول له أمه بلهجة تمتلئ عتابًا:

=كيف حالك وحال أولادك وعملك يا أستاذ (أكمل)؟

يرد (أكمل) متلجلجًا:

-بخير حال والحمد لله يا أمي.

تومئ أمها برأسها، وتقول:

=ونحن أيضًا بخير حال ولله الحمد.

يشعر (أكمل) بالخجل قليلًا، هو يعلم أنها لا تقول الحقيقة وأنهم ليسوا بخير.. فحالتهم المادية سيئة بعض الشيء، والصحية أيضًا..

يقول لأمه:

أريدك يا أمي.. أستأذنك يا (أبي).

يأخذ أمه من يدها خارج الغرفة، ويخرج مبلغًا ماليًا من جيبه، ويعطيه لها قائلًا:

-أنا أعلم أنكم في ضائقة.. أرجو أن تقبلي مني هذا المبلغ البسيط.

تدفع أمه يده في حزم وتقول في حسم:

=لا نريد منك شيئًا يا أستاذ (أكمل). نحن نعيش عيشة كريمة ولله الحمد ولا نحتاج إلى أحد.

-يا أمي! أرجوكي!

=لا ترجُني ولا أرجوك، احتفظ بمالك لنفسك!

يهز (أكمل) رأسه في أسف..

-حسنًا يا أمي، كما تشائين.. وأرجوكِ توقفي عن(أستاذ) هذه.. أنا (أكمل) فقط!

=منذ غيرت اسمك وأنت غريب عني.. لذلك أنت أستاذ(أكمل).. الذي اختطف (عمر) ابني الحقيقي وأخفاه للأبد!

-حسنًا يا أمي.. أنا مضطر للانصراف الآن.

-انصرف أو لا تنصرف، وجودك مثل عدمه، لا يقدم ولا يؤخر!

-كفى يا أمي.. سلام عليكم.

-وعليكم السلام.

وينصرف (أكمل) في سخط.

وقبل أن يصل إلى باب البيت، مر على غرفته..

خفق قلبه بشدة..

دخل الغرفة..

ينظر في أرجائها.. إلى سريره القديم..

إلى المكتبة، التي امتلأت بكتب كساها التراب...

إلى دولابه بملابسه القديمة..

تمتلئ نفسه بمشاعر مختلطة مُربكة بشدة..

يكتم دمعة بداخله.. لا يريد أن يبكي..

"ها أنت قد افتقدتني"

يقولها (عمر).. وهو يجلس على السرير..

يتفاجأ (أكمل) به.. يقول:

-لم أفتقدك.. فقط أتذكر.. لا تصد في الماء العكر!

=كاذب.. أنا أجزم أنك افتقدتني كثيرًا..

-افتقدتك أو لا.. أنا منصرف على كل حال..

وخرج من الغرفة بسرعة لئلا تُثار في نفسه مشاعر أكثر من ذلك..

ينزل (أكمل) ويخرج من البناية، ليجد أمامه السيد (جلال).. قد بلغه الكبر بشدة..

يا الله! لقد نسيه تمامًا!

وأيضًا هذا ليس وقته..

ينظر له (جلال) ويضيّق عينه..

-(عمر)! يا لها من مفاجأة! أين أنت يا رجل! لماذا اختفيت كل هذه السنين!

=الدنيا تلهينا يا سيد (جلال).. بالمناسبة.. أنا غيّرت اسمي.. صرتُ (أكمل).. (أكمل فريد).

يقولها في جفاء.

ينظر له (جلال) في دهشة، ويقول:

-أكمل! فريد! عمر؟ ما الذي تقوله؟ أنا لا أفهم شيئًا؟ أنت عمر أم لا؟

=أنا هو يا سيد (جلال).. ولكني غيّرتُ اسمي فقط..

-ماذا بك؟ ما الذي حدث؟ أين كل ما كنا نتحدث به قديماً؟

=ذهب لحاله.. ذهب لحاله يا أستاذ جلال.. كل شيء يتغير..

نظر له (جلال) في ذهول..

يقلب كفًا بكف في حسرة..

ويتركه ويصعد..

يلتفت (أكمل) إليه، ينظر إليه في صمت..

ينطلق صوت ما بداخله..

كيف تبلّد بشدة هكذا؟

لا بأس.. لا بأس..

هكذا أفضل..

يعود لسيارته..

وينطلق بها..

ويخرج من داخله في نفس الوقت ذلك الصوت..

***

مرة أخرى، (أكمل) عند طبيبه النفسي..

يتحدث..

-لقد جاء التغيير بطيئًا.. بخبث ومكر.. لم أشعر أنني سوف أتحول بهذا العنف، هذا التحول الكبير.. لم أشعر أنني سوف أتحول مائة وثمانين درجة!

وهناك أيضًا شعور غريب مُزمن..

أريد أن أفعل شيئًا ما.. أو أن أتوقف عن فعل شيء ما..

شيء لا أدري كنهه بالتحديد.. ولكنني أريد أن أفعله.. أو لا أفعله..

لا أدري..!

يعقد الطبيب حاجبيه، يفكر فيما يقوله (أكمل)..

يقول:

=فقدان المعنى والشعور بعدم الجدوى.. أليس كذلك ؟

-نعم.. نعم.. هو كذلك..

=يجب أن تدرك جيدًا أن الشعور بعدم الجدوى هراء ليس له معنى..أنت دائماً مُجدي بشكل ما.. لا يوجد شخص بلا فائدة.. لا يوجد شخص يحيا بلا جدوى..

-يمكنني إدراك ذلك.. ولكن لا يمكنني الشعور به.. فالشعور يسيطر على الإدراك..

=يجب أن تعلم أن الإدراك هو السيد، لا تترك تذكير نفسك بهذا الأمر!

يومئ (أكمل) برأسه..

ويسترسل في الحديث عن نفسه...

فقد صار لا يستطيع الحديث مع أحد!

يحدثه عن الكثير من الأمور..

يقول أنه لا يدري لماذا يشعر أحيانًا أن مشاعره تجاه ولديه ليست حقيقية...

يشعر بالفتور نحوهما كثيرًا...

نعم هو غير مقصر معهما في أي شيء، ولكن يبقى هناك هذا الفتور... لا يحبهما بما فيه الكفاية... لا يحبهما كما يحب الأب أبناءه بحق...

ربما لأنه يشعر أن هذه ليست الحياة التي كان من المفترض أن يحياها... ربما لأنه لا يزال حتى الآن يشعر بالاغتراب والوحشة وإن أظهر عكس ذلك كثيرًا... ربما...

أحيانًا كثيرة يشعر أنه يحيا في حياة شخص آخر... جسد آخر... يشعر أنه يشاهد فيلم أو مسلسلًا..

أحيانًا يشعر أنه فقد ذاته تمامًا، هو لم يعد يدرك حقيقة من هو بالتحديد؟!

يتحدث.. ويتحدث..

***

كان تأنيب الضمير قد بدأ يتسلل إلى (أكمل) منذ زيارته لوالده..

ضميره الذي كاد ينساه، أو هو نسيه بالفعل..

اتصل بأمه، وأصر بشدة أن تزوره في بيته..

رفضت في البداية ولكنها مع إصرار (أكمل) وتأكيده بأنه سيرسل لها سائقًا، وافقت على مضض..

وزارت الأم (أكمل) في منزله...

استقبلها (أكمل) في حرارة مفتعلة، ودخلت وهي تنظر حولها إلى الديكورات الفخمة والبزخ، فشعرت بانقباضة، لا بانبهار..

أعمدة مكسوة بالرخام، لوحات فنية غالية شديدة الفخامة، سجاد فارسي، بهو واسع بشدة، حوائط مكسوة بحجر مستورد.. كل شيء فخم، كل شيء باهظ الثمن..

ورغم كل ذلك..

لم تسترح قط..

وقام هو باستدعاء المُربية لتحضر له طفليه ليسلما على جدتهما..

قربت أم (أكمل) الطفلين لها، وقبلتهما وأعطتهما الحلوى، فقال (أكمل):

- هيا يا (ريان)، هيا يا (تارا)، اشكرا جدتكما.

فقال الطفلان بالإنجليزية:

=Thank you grandma!

نظرت الأم لهما باستهجان والتفتت إلى (أكمل) قائلة في سخرية:

-الله يرحمه!

ارتبك (أكمل) وقال:

-ولد! بنت! تحدثا ل(تيتة) بالعربية وليس بالإنجليزية!

قال الولد في حيرة:

-لماذا يا (دادي)؟ وهل (جراندما) لا تفهم الإنجليزية؟

ربتت الأم على الولد وقالت في حزم وهي تنظر إلى (أكمل) في عتاب صارم:

-لا يا حبيب (دادي)، أنا أفهم الإنجليزية جيدًا، ولكننا عرب، والعرب يتحدثون بالعربية لبعضهم البعض!

لم يستوعب الطفلان ما تقوله جدتهما جيدًا، فسحبهما (أكمل) من أيديهما وأنهى الحوار قائلًا:

-حسنًا يا (أمي)، بالمناسبة، كيف حال خالي (أسامة)؟

=خالك؟ ومنذ متى تهتم بشأنه أو شأن أي شخص من أهلك؟

ضيق (أكمل) عينيه في سأم وقال:

-أهتم دائمًا يا أمي ولكني مشغول فقط.

في هذه اللحظة جاءت (هديل) متأنقة، وقد تعطرت بعطر ذي رائحة نفاذة، وصافحت الأم قائلة:

-مرحبًا بكِ يا طنط، كيف حالك؟

أجابتها الأم في شيء من الجفاء:

-بخير والحمد لله.

لم تستطع الأم إخفاء هذا الجفاء، لأنها لم تسترح قط ل(هديل) منذ أن قام (أكمل) بخطبتها..

فالأخيرة تتعامل باحترام نعم، ولكن بنمطية عملية ليست فيها روح، ربما طغت روح العمل بشدة على شخصيتها، حتى صارة شبه آلية.. لم تسترح لها قط ولم تشعر أنها من المقربين لها بأي شكل..

تتحسر على أيام (عمر) السابقة وشخصيته النقية القديمة وفطرته السليمة..

تتحسر على ابنها الحقيقي، الذي أخفاه هذا الزائف (أكمل)..

والتقطت (هديل) هذا الجفاء ولكنها تجاهلته لأنه لا يُحدث فارقًا بالنسبة إليها..

وجاء الطعام، فأكلت الأم منه النذر اليسير ولكنها لم تستطع أن تكمله، فقد شعرت أن الطعام جاف بلا روح وليس به أي نَفَس...نعم هو فاخر ونظيف.. ولكنها لم تشتهيه..

وشيئًا فشيئًا بدأت في الندم على هذه الزيارة..

فهذا الرجل لم يعد ابنها.. وهذه الحياة ليست حياتها..

ماذا تفعل هنا؟!

***

الساحل الشمالي..

صيف ٢٠٢٧..

كان (أكمل) وهديل لديهما اجتماع هام مع مديري الإدارات المختلفة، ولكنهما قررا في الأسبوع الذي يسبق الاجتماع أن يذهبا إلى المصيف، بالشاليه الذي يمتلكه (أكمل) هناك..

كان الشاليه ذا ثلاث غرف وغرفة صغيرة للمُربية، وبه حمام سباحة خاص، ويواجه البحر مباشرةً، وذا فرش فندقي شديد الفخامة، فقد دفع فيه (أكمل) مبلغًا وقدره، وكانت (هديل) عندما تذهب معه تفضل الاستقلال بغرفة لنفسها، وتترك الغرفة الثالثة ل(ريان) و(تارا)..

وكانت أيضًا تسافر بسيارتها ويسافر (أكمل) بسيارته..

كي تكون على حُريتها في التنقل..

وكان (أكمل) يحب البحر بشدة، ويحب الجلوس بالشاطئ للاستجمام..

الشاطئ..

وما أدراك ما الشاطئ وما يحدث عليه..

كانت (هديل) ترتدي مايوه فاضح، وكان (أكمل) يضطر لالتزام الصمت رغم احتراقه الداخلي، لأنه يعلم جيدًا رد فعلها لو اعترض على أي شيء تفعله..

اتجهت هي للسباحة في البحر، وفضل هو الجلوس قليلًا أولًا كما يفضل دائمًا..

وكان الشاطئ كالعادة مليئ بالفتيات شبه العرايا، وكان (أكمل) يفكر في هذا المجتمع الذي أدمج نفسه به.. لماذا فعل ذلك في نفسه؟

هل هذه الحياة التي كان يريد أن يحياها بالفعل؟ هل هذا هو المجتمع المناسب له ولفكره ولمبادئه؟

مبادئ؟ أي مبادئ؟

يضحك مستهزئًا بنفسه..

كل ما ظن أنه مبدأ، صار هباءً منثورًا..

كل ما ظن أنه ثابت عليه ولديه اليقين به، تبخر في الهواء..

كان يظن أنه سيظل ثابتًا على مبادئه مدى الحياة.. ولكن هيهات..

حتى نمط تفكيره تغير..

كل شيء بداخله تبدل وتحول...

لم يصر شخصًا آخر فحسب، بل صار نقيض الشخص الأول تمامًا..

ينظر حوله، إلى مرتادي الشاطئ، إلى المنغمسين حتى النخاع في الترف والرفاهية المطلقين، إلى الباحثين عن الكمال والمتعة الكاملة، الراكضين خلف السراب..

ينظر إلى ولديه وهما يلعبان بالرمال وألعاب الشاطئ..

لماذا يشعر أن كل ما حوله يتخذ صورة زائفة غير حقيقية..

أين يذهب كل هذا بعد خمسين أو مائة عامًا؟

يعطيه هذا الخاطر شعورًا بزيف كل ما حوله..

لماذا يفكر بكل هذا التحليل المنطقي في موضع من المفترض أنه موضع ترفيه عن النفس؟

لقد تعب من عقله..

يتمنى استبداله بعقل آخر فارغ تافه، ولكن هيهات..

لقد كتبت عليه المعاناة العقلية في كل أمره مهما بدا مُرفهًا ومُترفًا..

يهز رأسه لعل الأفكار تُطرد منها، ثم يخرج سماعات البلوتوث ليسمع

بعض الأغاني لعله يَفصل عقله عن أفكاره البائسة..

ورفع مستوى الصوت إلى الحد الأقصى.. ليفعل ما يلجأ إليه دومًا منذ فترة..

الهروب..

***

عاد (أكمل) إلى الشاليه وحده، وذهب لحمام السباحة الخاص المُلحق بالشاليه ليسبح قليلًا، ثم خرج منه وأمسك بالمنشفة، ونظر إلى هاتفه، ليجد أكثر من عشر مكالمات فائتة من أخيه (علي)، فخفق قلبه في عنف، واتصل به بسرعة، فجاءه صوت أخيه وهو يصيح به:

-أين أنت! أبوك مات يا (عمر).. أبوك مات!

هوى قلب (أكمل) بين قدميه، وقال متلجلجًا:

=ماذا تقول؟! متى حدث هذا!

أجابه بصوت متهدج:

-منذ ساعة إلا ربع، إنا لله وإنا إليه راجعون.

=سأتحرك فورًا.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

ولملم بعض أغراضه بسرعة شديدة، واتصل ب(هديل) ليخبرها، فواسته ولكنها في داخلها شعرت بالسخط للتوقيت، وكأن المرء يختار متى يموت..

أخبرها أن تلملم باقي الأغراض وتلحق به هي والطفلان، ووضع حقيبته في سيارته وانطلق بها مسرعًا..

مات أبوه..

ولكنه يعتبر نفسه مات أيضًا..

مات منذ اختار الحياة التي يحياها..

الحياة البديلة!

القسم الرابع: حتى إشعار آخر..

"إنه الآن غير ميت، وهي كلمة لا تعني أبدًا أنه حي!"

– أحمد خالد توفيق

الموت..

الزائر غير المرغوب فيه..

هادم اللذات ومفرق الجماعات..

الزائر الذي يفسد كل الخطط، ويأتي دون استئذان، ويخبرك أنك لا تملك من أمرك شيئًا..

الحقيقة المطلقة التي لا مفر منها..

نصول ونجول وتلهينا الحياة ونستغرق في تفاصيلها، غافلين عن هذ الحقيقة..

مات والد (أكمل).. أو (عمر) سابقًا..

وسيموت هو الآخر..

هو يدرك ذلك جيدًا، ولكنه لا يريد التفكير فيه..

يدرك أن كل شيء سينتهي في لحظة ما..

كل الأعمال، والصراعات، والأموال، كل ذلك سيفنى..

وسيموت..

كان قد دخل في حالة عجيبة بعد وفاة أبيه..

فهو لم تَعُدْ لديه القدرة على البكاء!

أو حتى الرغبة.. لقد تبلدت مشاعره..

حتى عندما دخل المسجد ليصلي عليه..

كان يفكر، لا يذكر متى آخر مرة دخل مسجدًا؟

يا له من بائس!

كيف طغت عليه المادة بهذا الشكل المُرعب؟!

كيف انتُزعت منه روحه انتزاعًا حتى صار يحيا ميتًا؟!

كيف تبلدت مشاعره وروحه إلى هذا الحد المُخيف؟!

وبدأت صلاة الجنازة..

وبدأت معها ألاعيب عقله..

*الاجتماع! نعم، يجب أن أتحدث عن خطة العام القادم، ومراجعتها مع المديرين جيدًا، و.. (هشام!) نعم، يجب أن أغلظ عليه القول بعض الشيء لتأخره في ما طلبته منه.. آه، ويجب كذلك ألا أنسى أن أثني على أداء (غادة) في التعاقدات، فقد كانت متميزة حقًا في العام السابق..

يجب أن أحدد زيادات الرواتب حتى لا تتأثر الميزانية.. نعم، صحيح.. الميزانية! أعتقد أنه حان الوقت لإقالة (تامر غريب) مدير إدارة التكاليف لأن الميزانية ليست بالمثالية الكافية.. آه، المنزل يحتاج بعض التغييرات، أريد أن أتصل بمهندس الديكور لكي يعطيني بعض الأفكار.. ثم أن...* فجأة ينتبه لأن الصلاة انتهت، وأنهم يحملون النعش الذي يحمل جثة أبيه، فيسير معهم محاولًا أن يحمل جزءًا منه معهم، ويضع النظارة الشمسية على عينيه بسرعة، ويخرج من المسجد، يركب سيارته وتصحبه أمه مُضطرة، ويركب أخوه (علي) مع سيارة نقل الموتى مصاحبًا جثة أبيهما..

لم تتحدث معه أمه، كانت تبكي في صمت فقط.. لم تكن تريد أن تصحبه في سيارته ولكنها اضطرت..

طوال الوقت، في الصلاة، وقت الدفن، يفكر في الاجتماع الذي تم تأجيله للغد وأهم النقاط التي يجب أن يتحدث عنها!

حاول أن يطرد التفكير في الاجتماع وفي العمل عن رأسه ولكنه فشل.

حاول أن يظهر بعض الحزن.. وضع قناعًا متأثرًا على وجهه، وكانت النظارة الشمية تخفي قسوة عينيه وخلوهما من المشاعر الإنسانية..

كان يودُّ أن يتنهي الأمر سريعًا، وأصر أن يكون العزاء في نفس اليوم حتى لا يضيع من وقته أيامًا أخرى، فوقته ثمين.. فإن (الوقت هو المال) كما تقتضي قواعد عالم الأعمال!

لم تحضر زوجته (هديل) الصلاة والدفن، ولكنها حضرت العزاء متصنعة الحزن هي الأخرى..

كانت أم (أكمل/ عمر) لا تطيق (هديل) ولا تستريح لها مُطلقًا.. على عكس زوجته السابقة (نهى) التي كانت تحبها كثيرًا وتشعر أنها مثل ابنتها..

ولكن (هديل) كانت شخصية عملية ولا تكترث بشعور الآخرين تجاهها كثيرًا..

تتعامل بالزيف والاصطناع في الواجبات الاجتماعية التي تضطر إليها، أما التي لا تضطر إليها فلا تحضرها من الأساس..

لماذا ترهق نفسها بشيء لا مصلحة لها به؟

وحضر العزاء طاقم الإدارة بشركة (أكمل) أيضًا وبعض الموظفين لأن

هذه مجاملة وواجب لا يستطيعون تفويته..

وانتهى اليوم، وعاد (أكمل) برفقة زوجته (هديل) إلى منزلهما، وكان (أكمل) طوال الطريق صامتًا..

وبدأت ذكريات مشوشة في التسلل رويدًا رويدًا إلى عقله، مخترقة عقله الواعي قادمة من عقله اللا واعي..

ذكريات عن أبيه وعن كل ما فعله معه وكل الحب الذي أعطاه إياه من قبل..

وبدأ قلبه يخفق وتنساب إليه مشاعر إنسانية كساها التراب..

وللمرة الأولى منذ سنوات طوال، تنزل دمعة من عينه في صمت..

تنظر إليه (هديل)، وتتفاجأ بها لم تعتد عليه منه، وتربت على كتفه قائلة:

-هون عليك.

يومئ (أكمل) برأسه في صمت، ثم يصلا إلى المنزل، ثم يقول (أكمل):

-ادخلي أنتِ يا (هديل)، سأبقى وحدي قليلًا.

تومئ (هديل) برأسها متفهمة، وتنزل من السيارة لتدخل المنزل، ثم ينطلق (أكمل) بالسيارة بغير هُدى..

ويتوقف (أكمل) بالسيارة في مكان هادئ، ويفكر..

وللمرة الأولى منذ فترة طويلة للغاية يبدأ في مراجعة نفسه..

ألهذه الدرجة تغير؟

ما الذي أوصله لهذه المرحلة؟

ما الذي أوصله لهذه النسخة الذي رفضها طويلًا؟

ما الذي جعل مشاعره تموت بهذا الشكل؟

يبكي في صمت..

كم أراحته هذه الدموع!

كم أراحه الخضوع لإنسانيته ولفطرته!

لماذا فعل كل هذا بنفسه؟

أين هو الآن؟ مستريح ماديًا واجتماعيًا نعم..

وصل إلى مكانة مرموقة نعم..

ولكن أين هو؟

أين ذهبت نسخته الأصلية؟

أين ذهب (عمر صالح)؟

كيف جرفته الدنيا إلى هذا الحد؟

كيف اندمج تمامًا مع كل ما كان يبغضه من قبل إلى هذه الدرجة؟

من منهما على صواب..

(عمر صالح) أم (أكمل فريد)؟

من منهما مستريح بالفعل؟

هل فقد (عمر صالح) إلى الأبد بالفعل أم أن هناك أمل في عودته؟

ينفض رأسه سريعًا..

لماذا يعود (عمر) من الأساس؟ لا، لا، هو مستريح هكذا، هو أفضل هكذا، لقد وصل إلى أفضل نسخة ممكنة منه بالفعل!

يتذكر أباه مرة أخرى..

شعر بغصة في حلقه.. وتأنيب ضمير شديد تجاه أبيه..

لقد أهمله طويلًا حتى جاء أجله..

أبوه، الذي لم يقصر في أي شيء معه وكان نِعم السَنَد له..

مات.. وسيموت هو أيضًا.. نعم، هذه هي الحقيقة التي يفر منها..

على أي حال سيكون عند موته؟

وهل سيظل منغمسًا في هذا المستنقع الآسن طوال عمره؟

ينفض رأسه مرة أخرى..

لا، لا، لا يريد أن يفكر في الموت، لا يشعر أنه سيموت قريبًا!

أم هو يخدع نفسه؟

هل سيظل على حاله؟

أم يُراجع نفسه ويحاول العودة لسابق عهده؟

هل سيترك كل حياته الجديدة ويعود للقديمة؟

لا.. لا بالطبع.. لن يفعل!

لن يترك كل ذلك!

ويدير محرك سيارته، ويتحرك بها عائدًا إلى منزله...

حتى لا يترك نفسه ليسترسل في أفكار قد يكون لها ما بعدها!

***

يأتي الصباح، ويقوم (أكمل) من نومه ثقيلًا، بعد كوابيس عشوائية مخيفة مُقبضة للغاية، وتقوم (هديل) أيضًا لكي تذهب إلى العمل هي الأخرى..

يدخل (أكمل) إلى الحمام ويغسل وجهه، وينظر إليه في المرآة..

لمن هذا الوجه؟

هذا وجه مكسو بالزيف والاصطناع والنفاق والخداع.. تكونت عليه طبقات عدة شكلتها السنوات من كل ما كان يحاربه بشدة من قبل..

فصارت إزالة كل هذه الطبقات ضربًا من المستحيل..

يغسل وجهه مرة أخرى ويستحم ويخرج لارتداء ملابسه، وجلس ليتناول إفطارًا سريعًا ولكنه لم تكن لديه الشهية ليأكل شيئًا..

ينزل ويركب سيارته، وتركب (هديل) سيارتها، فهما لا يذهبان إلى العمل سويًا ليتحرك كل منهما بحريته ويذهب ويعود وقتما يشاء..

يصل (أكمل) إلى مقر الشركة، ويدخل إلى مكتبه، ويطلب القهوة فهو لا يجد المزاج الرائق لإعدادها بنفسه كما اعتاد..

ينظر إلى ساعته، يتبقى نصف ساعة على موعد الاجتماع المؤجل من الأمس..

تمر نصف الساعة سريعًا ويقوم ليجلس على منضدة الاجتماعات الكبيرة في غرفته، ويأتي مدير التسويق ومدير التنفيذ ومدير التكاليف ومديرة التعاقدات ومديرة الموارد البشرية، ونائبته والمدير العام في الوقت نفسه

(هديل) زوجته، ويبدأ الاجتماع..

يقوم (أكمل) بتشغيل عرض البيانات على ال(بروچيكتور)، ويتنحنح ثم يقول:

-مرحبًا بكم جميعًا، وشكرًا على واجب أمس.

=لا شكر على واجب.. البقاء لله... رحمه الله..

كانت هذه ردودهم..

وكانوا متعجبين من قدرته على مباشرة العمل في اليوم التالي بهذا الشكل..

وانطلق (أكمل) في عناصر اجتماعه، ويا للعجب!

فقد كان فاقدًا للتركيز تمامًا وظل يفكر في وفاة أبيه..

رغم أنه بالأمس أثناء المراسم لم يفكر فيها وكان يفكر في الاجتماع!

يا له من متناقض...!

ألم تستطع التوقف عن التفكير في العمل بالأمس؟ ماذا دهاك الآن؟

بذل مجهودًا كبيرًا في التركيز، وكان ذلك جليًا في كلامه، فقد شرد كثيرًا وتلعثم أكثر من مرة..

وحاول المديرون أن يثنوه ويقنعوه بتأجيل الاجتماع مرة أخرى ولكنه رفض بشدة..

وانتهى الاجتماع، وتمت إقالة (تامر غريب) مدير إدارة التكاليف بالفعل وإبلاغه بأن هذا آخر شهر له، وتكليف (تسنيم) مديرة الموارد البشرية بتعيين بديل له، وتلقى (تامر) الصدمة بذهول شديد، وانصرف مهمومًا مبتئسًا..

ولكن هكذا عالم الأعمال ورأس المال لا يرحم.

الموظف أو المدير مجرد رقم..

رقم تعيس..

ليس إنسانًا له حياته وأفكاره وروحه..

انصرف الجميع إلى مكاتبهم عدا (هديل) التي بقت مع (أكمل)، واختلست (غادة) نظرة غيرة شديدة وهي خارجة من مكتب (أكمل)، الذي عاد إلى مكتبه وأمسك رأسه بيديه مُطرقًا، فربتت على كتفه وقالت:

-كان من الممكن أن نؤجل الاجتماع.. لقد كنتَ مشتتًا للغاية.

زفر (أكمل) مُخرجًا ما في نفسه، وقال:

-كنت أريد أن أتخلص من هذا الاجتماع يا حبيبتي..

أومأت (هديل) برأسها وقالت:

-حسنًا.. لمَ لا تعود للمنزل الآن؟ حالتك لا تسمح بالبقاء في العمل حتى آخر اليوم.

=لا أدري يا (هديل).. لا.. من الأفضل أن أبقى وأشغل نفسي بالعمل كي أنسى.. شكرًا..

-حسنًا، كما تشاء.. سأعود إلى مكتبي.

يومئ (أكمل) برأسه دون أن يتكلم..

وتتركه (هديل) عائدة إلى مكتبها.

ويفكر هو..

العمل.. نعم.. يشغل نفسه به..

العمل الذي أنساه نفسه وأنساه أمورًا كثيرة..

العمل الذي صار يقدسه بعد أن كان يرفض هذه الفكرة بشدة..

فكرة تقديس العمل وتقديمه على كل شيء..

فكرة تحويل العمل إلى غاية وليس وسيلة..

زفر مرة أخرى، وطلب القهوة ثانية..

يتساءل..

ما نهاية كل ذلك؟

ومتى يفيق من هذه الغفلة الطويلة؟

متى؟

وبينما هو مستغرق في أفكاره، إذ بصوت يخترق رأسه مباشرةً..

-يا لك من وغد حقيقي!

يرفع رأسه فيجد أمامه (عمر)..

يبتلع ريقه في توتر ويقول:

=عمر! لم تكن تأتي وحدك.. كنت دائمًا أستدعيك!

-وهل كنت تظن أن هذه اللعبة ستستمر بقواعدك وحدك؟ هيهات! إنها لعبة خطرة، وأنت لم تضع في حساباتك أنها من الممكن أن - بل في الغالب - ستنقلب ضدك لا محالة!

=دعني وشأني الآن.. اتركني فيما أنا فيه!

-وهل تركتني أنت؟ لن أتركك بالطبع.. سأعمّق جراحك وأتأكد من تركك مُحطمًا!

=ماذا تريد مني أيها الفاشل!

يبتسم (عمر) في سخرية وهو يقول:

-وهل أنت الناجح إذًا؟ يا لك من أحمق!

=على الأقل أنا لا أحيا في عالم موازٍ من الأوهام الفارغة!

-وعلى الأقل أنا لستُ وغدًا ابتلعه عالم المال والأعمال ابتلاعًا!

=ماذا تريد بالضبط؟!

-لا شيء.. فقط جئت كي أعمق جراحك كما قلتُ لك.. جئت كي أخبرك أني أبغضك بشدة.. وأنك جعلت والدي يموت وهو غير راضٍ عني..وأنكَ تجاهلته وأهملته رغم كل ما فعله من أجلك!

أطرق (أكمل) في مرارة.. وابتلع ريقه في صعوبة، ونظر إلى (عمر) وقال:

=اغرب عن وجهي الآن.. فورًا!

ومن العجيب أن (عمر) ابتعد واختفى بالفعل..

وجلس (أكمل)، بل سقط..

فقد دخل في دوامة اكتئاب..

سرمدية!

بعد أسبوع تقريبًا، كانت (هديل) خارج الشركة لتقضي بعض الوقت في التسوق، فقد كان مزاجها ليس رائقًا للعمل، فقررت إراحة نفسها هذا اليوم..

وبينما (أكمل) جالسٌ بمكتبه، سمع طرقات على بابه، فقال:

-تفضّل.

فُتح الباب، ليجد (غادة) تدخل، فخفق قلبه بشدة، واقتربت هي وجلست أمامه..

تقول وهي تنظر إلى عينيه مباشرةً:

-كيف حالك الآن يا مستر (أكمل)؟

يزداد خفقان قلب (أكمل)، وهو يرد:

=الحمد لله يا (غادة)، صرتُ أفضل الآن.. وأنتِ، كيف حالك..

-أنا بخير والحمد لله.

وتصمت.

ويصمت هو أيضًا.

ينظر إلى عينيها..

هل هي المرة الأولى التي ينظر إلى عينيها بهذا التركيز؟ لا يدري..

فجأة يشعر أنه يغرق بهما..

(غادة) هادئة وليست ثائرة..

(غادة)، صحيح أنها ليست محافظةـ ولكنها ليست مُتحررة للغاية أيضًا

مثل زوجته (هديل)..

(غادة)، يا لها من جميلة، بشعرها الأسود الناعم المنسدل على كتفيها، وعينيها السوداوين الواسعتين، وبشرتها البيضاء النقية..

هل هي المرة الأولى التي يراها بهذا الجمال؟

لا يدري أيضًا..

-وماذا بعد ؟

تقولها (غادة) فجأة..

=ماذا؟

-يومًا ما ستُدرك حقيقة مشاعري ناحيتك يا مستر (أكمل)..بالتأكيد ستشعر بها.

كاد قلب (أكمل) أن يقفز خارج جسده في هذه اللحظة..يتلجلج بشدة وهو يقول:

=غادة.. لا أفهم.. ماذا...

تقاطعه: - لا شيء.. لا شيء يا مستر (أكمل).. أنا مُشفقة عليك للغاية.. لماذا لا تستريح من العمل ليومين أو ثلاثة..

يزفر (أكمل) وهو يرد:

=وأخلو بنفسي لأجتر جميع أحزاني؟ لا يا (غادة).. هنا أفضل..

تبتسم له (غادة) وتنظر له في حب شديد، وهي تقول:

-عمومًا.. لو احتجت شيئًا.. أي شيء.. فأنا دومًا موجودة لأجلك..

وتستأذنه في الانصراف..

وينصرف خلفها قلب (أكمل) ذائبًا!

***

رغم كل ذلك..

رغم كل ما حدث..

رغم كل ما رآه..

لم يستطع (أكمل) التوقف..

استمر في استدعاء (عمر)..

يستدعيه ليوبخه..

كنت تظن أنك البطل المخلص الذي سيغير العالم.. من تظن نفسك؟ لست بطلًا.. لم تكن ولن تكون.. أفق يا (عمر)..

كُن واقعيًا ولا تنساق خلف الأوهام التي ستغرقك..

-سأظل أحلم بذلك.

يشيح (أكمل) بوجهه مستهزئًا ويقول:

= هه.. تحلم.. هذا العالم لا مكان فيه للأحلام.. لا مجال إلا للواقع.. الواقع وحسب!

-سيظل هناك مكان للأحلام ما حيينا..

= كنت وما زلت لا تتقبل الاختلاف يا (عمر)!

-أتقبل الاختلاف في الرأي بالطبع، ولكنني لا أتقبل الاختلاف في المبادئ..

=المبادئ أيضًا رأي.

-قطعًا لا! المبادئ لا تتغير ولا تتجزأ!

= بالنسبة إليك أنت! ماذا عن المبادئ التي تختلف عن مبادئك؟

-أنا أتحدث عن المبادئ المطلقة.. الحق والعدل والخير..

=أنت تتحدث عن الأوهام المُطلقة!

يدور رأس (عمر).. يتوتر بشدة.. يترك (أكمل) ويخرج من المكان..

ويزفر (أكمل)..ويجلس، ويعيد رأسه إلى الخلف..

لماذا يجلب لنفسه كل هذا الصداع؟ لماذا يتعب نفسه كل هذا التعب؟

هل صار إدمانًا؟

لماذا يرهق نفسه وعقله بكل هذا الجدال؟

***

مايو ٢٠٢٨..

تمر الأيام.. ويقترب موعد الاحتفالية التي تنظمها الشركة بمناسبة مرور خمسة وعشرين عامًا على إنشائها..

احتفالية هامة للغاية بالنسبة للشركة، وكانت (هديل) حريصة للغاية على الإشراف على تنظيمها لتخرج في أفضل شكل ممكن..

وجاء يوم الحفل..

قررت (هديل) أن تذهب لمدرسة ولديها لتذهب بهما إلى المنزل بنفسها، لا تدري لم بالتحديد ولكنها شعرت أنها تريد ذلك، تريد أن تطمئن عليهما قبل الحفل.. انصرفت مبكرًا من العمل وذهبت إلى المدرسة..

قررت أن تتركهما مع المربية وترتدي الفستان الخاص بالحفل وتذهب..

أما (أكمل) فقد قرر الذهاب للحفل من العمل مباشرةً..

كانت هديل تقود سيارتها بسرعة، لتقوم بتوصيل (تارا) و(ريان) إلى المنزل لتتركهما إلى المُربية حتى تلحق بالحفل..

تمسك بهاتفها المحمول وتكتب شيئًا ما على تطبيق (واتس آب)، على مجموعة الشركة..

"سيكون حفلًا رائعًا ومبهرًا، يجب على الجميع الحضور مُبكرًا"

تتابعت التعليقات وتابعتها هي بعينها..

كانت مُتحمسة لهذا الحفل بشكل غريب..

وفجأة يسقط هاتفها..

بدون تفكير تنزل بيدها سريعًا لتجلبه و...

لم تدر بشيء إلا والسيارة تطير في الهواء..

صرخت، وصرخ طفلاها، وحاولت السيطرة على السيارة وفعل أي شيء ولكن هيهات.

هوت السيارة بقوة شديدة مقلوبة على الأرض..

مات (تارا) و(ريان) في الحال..

أما (هديل) فكانت ما بين الحياة والموت..

ترى أطياف من الناس الذين يقتربون ليلحقوا بها ويروا ما حدث لمن في السيارة..

تمر حياتها أمامها...

تفكر..

لا .. ليس الآن.. ليس الآن.. أريد أن أحيا.. لا أريد أن أموت..

لا زلت صغيرة.. لا زالت الحياة أمامي..

لا زال هناك الكثير من الأشياء التي أريد أن أفعلها..

ولداي! حبيباي! ماذا حدث لهما؟ هل ماتا؟

إذًا مات كل شيء..

لن أستطيع أن أحيا بدونهما..

ولكن لا.. ما زال أمامي الكثير والكثير..

أنا... لا.. أريد.. أن...

تشهق شهقة مفزعة..

وتلفظ أنفاسها الأخيرة..

وتنسحب منها روحها..

وتموت.

***

كان (أكمل) لا يزال في مكتبه، عندما أتاه اتصال على هاتفه من (هديل)، فرد قائلًا:

-(هديل)، كيف حالك؟

فأتاه صوت رجل غريب، وهو يقول:

=السلام عليكم.. هل أنت زوجها؟

توتر (أكمل) بشدة، وشعر بقلق شديد وهو يرد:

-نعم، ما الأمر؟

فيرد الرجل في حزن:

=البقاء لله.. توفيت زوجتك وولداك في حادث شديد.. الله يصبّرك..

ينزل الخبر على (أكمل) كالصاعقة..

يهوي قلبه بين قدميه..

يشعر بصدمة شديدة..

لا.. هذا ليس حقيقيًا!

هو بالتأكيد في كابوس!

ماتت زوجته (هديل) وولداه (تارا) و(ريان) في حادث!

هل هذا ما سمعه بالفعل؟

لم يستوعب.

هل انتهى كل شيء بالفعل في لحظة؟!

يستجمع الحروف والكلمات في صعوبة.. يسأل الرجل عن مكان الحادث.. فيجيبه أنه سيرسل الموقع له على تطبيق واتس آب..

يذهب (أكمل) في سرعة.. لم يستوعب تمامًا بعد..

يفكر ما الجدوى من حياته الآن..

يبكي..ويبكي بحرقة شديدة..

ويصل إلى الحادث..

ليرى حياته أمام عينيه قد انتهت!

وأي نهاية!

***

كانت جنازة حزينة للغاية...

لم يستوعب (أكمل) أنه يدفن زوجته وولديه بيده..

بكى، وبكى، بحرقة شديدة..

وقفت أمه بجانبه ولم يتركه أخوه أيضًا..

ولم تكن أمه حزينة..

كانت مشفقة على ابنها فقط..

ولكنها لم تحب (هديل) قط، وأيضًا لم تشعر أن (ريان) و(تارا) من دمها قط!

من بعيد، تقف المُربية تبكي بشدة..

فعلاقتها بالطفلين كانت أشد من علاقتهما بأبويهما...

ينتهي اليوم..

وتمر الأيام..

يُصاب (أكمل) باضطراب ما بعد الصدمة..

ينقطع عن كل شيء.. وينعزل..

كلّف المدير العام (هاني حجازي) بإدارة شئون الشركة..

امتنع عن العمل.. وعن الطعام.. حتى صار هزيلًا..

يفكر.. لماذا يحيا الآن؟

ما الجدوى؟

من هو؟

***

بعد أسبوع تقريبًا..

يأتي رجل غامض إلى (أكمل) ويترك إليه رسالة..

"أنا (زياد حمدي) قريب (هديل).. لا تسأل قريبها من أي جهة بالتحديد.. ولكن هناك حقيقة وجب إخبارك بها.. (تارا) و(ريان) لم يكونا من صلبك.. لا، لا يذهب خيالك بعيدًا، لم تخنك (هديل) بالشكل الذي تخيلته، ولكنها اكتشفت بطريقتها أنك عقيم.. فلجأت إليّ وقابلتني في مكان ما بمنطقة (الشيخ زايد) حتى تبعد تمامًا عن منطقة التجمع.. ودفعت لي مبلغًا مُحترمًا، ولجأت إلى الاستعانة بالحقن المجهري، وأوهمتك أنهما من صلبك، لكي لا

تُصاب بالصدمة، فعل فاسد نعم، ولكن نيتها لم تكن فاسدة.. هي أرادت أن تكون أمًا ولم تُرد أن تتركك أو أن تجرحك... يمكنك التأكد بنفسك بتحليل الحمض النووي..

زياد حمدي"

جن جنون (أكمل).. يذهب يمينًا ويسارًا لا يدري ما يفعل..

خلال أيام كان وجد طريقته للقيام بتحليل الDNA... .. وجد ما يناسب ذلك في غرفة كل منهما..

واكتشف الكارثة..

نعم.. (تارا) و(ريان) لم يكونا من صلبه بالفعل!

يكاد يجن..

بل ربما أصيب بالجنون بحق!

الآن فقط يدرك لماذا لم يشعر بالفعل أنهما ولداه، ولم يشعر بعاطفة حقيقة ناحيتهما قط!

و(هديل)! كيف فعلت به ذلك!

كم كانت أنانية ولا تحركها إلا مصلحتها فقط!

كانت حرباء، أو حيّة، ولكنّه كان يتجاهل ذلك لحبه الشديد لها..

ها هو ذا، فقد كل شيء!.. كل شيء!

لم يعد هناك معنى لحياته!

وقفزت الفكرة إلى رأسه، الفكرة التي كانت تدور كثيرًا بها ولكنها

نضجت الآن تمامًا!

نعم.. لقد اتخذ قراره..

بلا رجعة.

سوف ينتحر!

***

"أم تريد أن تصير شيخًا هرمًا يملؤه الندم، يتربص الموت وحيدًا؟!"

جملة تذكرها وهو يستعد للانتحار، جملة كانت في فيلم أجنبي شهير، أثرت فيه كثيرًا..

وبينما هو يقوم بتجهيز السم، فجأة يسمع طرقات على باب غرفته، خفق قلبه بشدة، من يزوره الآن؟

بل من استطاع دخول المنزل من الأساس؟

قام متوجسًا خيفة، مرتابًا، وفتح الباب ببطء، ليجد شيخًا هرمًا يتوكأ على عكاز، ويدخل الغرفة، ويقول:

-هل فاجأتك؟

ليرد (أكمل):

=بالتأكيد.. من أنت وكيف دخلت هنا؟!

-لم تُميزني؟ أنا (أكمل).. (أكمل فريد)..!

يهز (أكمل) رأسه مستنكرًا ومتعجبًا، ويقول:

=ماذا يعني هذا الهراء؟

-ألم تكن تستدعي نسختك الماضية كثيرًا؟

=بلى.

-أنا إذًا نسختك التي كان من المفترض أن تكون المستقبلية!

=اللعنة! ما هذا العبث؟! ليس هذا وقتك ولا أريد أن أتحدث معك!

-وتظن أن ذلك بإرادتك؟!

=بالطبع.. انصرف الآن فأنا مشغول بالانتحار ولا معنى لوجودك!

-ربما يكون لا وجود مادي لي، ولكن وجودي المعنوي لن تستطيع إنكاره.

=ماذا تريد بالضبط؟

-أعلم أنك اتخذت قرارًا لا رجعة فيه بالانتحار، ولكن كان يجب أن أقوم بتكدير صفوك أكثر فأكثر قبل ذلك، يجب ألا أترك نقطة بيضاء واحدة في عقلك الذي ملأه السواد، يجب أن أجعله سوادًا حالكًا!

يضحك (أكمل) في سخرية عصبية، ويقول:

=لا جديد! هو أسود قاتم بالفعل، لا تقلق!

-لا.. يجب أن يملأك الندم أكثر، أن يعتصر البؤس قلبك أكثر وأكثر، الندم على ما صرت إليه وعلى ما كان من الممكن أن تصير إليه لو لم تَلغ في الوحل وتسبح في المستنقع بكامل إرادتك الحرة..الندم على كل لحظة كان أمامك فيها خياران واتخذت أسوأهما.. دومًا كنت تفعل ذلك! كان بإمكانك أن تعيش حياة هادئة هانئة منذ البداية ولكنك قررت أن تحمل همومًا كالجبال وتحارب كل ما صرت إليه بعد ذلك.. الندم على أنك لو لم تحمل كل هذه

الهموم كانت حياتك ستؤول إلى نمط آخر تمامًا. نمط عشتَ فيه بهدوء مع (نهى) الطيبة الهادئة التي لا تريد شيئًا من الدنيا سوى أن تحيا في سلام.. التي أحببتها وأحبتك..مع عمل كريم وحياة روتينية ربما ولكنها مستقرة.. حياة رفضتها لأسباب فعلت أسوأ منها بكثير بعد ذلك..

ماذا عليك؟ وماذا بك لو كنت استسلمت من البداية؟ أرأيت ما آلت إليه أمورك وحالك؟ أرأيت ما وصلت إليه؟ هل كان يخطر ببالك يومًا أنك سوف تنتحر قبل وصولك للخمسين من عمرك؟ هل تدرك من أنت الآن؟ هل أنت (عمر صالح) أم (أكمل فريد) أم شخص ثالث لا يمت للاثنين بصلة؟ لماذا صرتَ شخصًا مدعيًا زائفًا يبحث فقط عن الواجهة الاجتماعية؟! حتى في انتحارك اخترت السم لأن له وقعًا دراميًا ما! أنت بائس! بائس إلى أقصى حد ممكن!

يصرخ (أكمل) في وجهه صرخة رهيبة، صرخة أخرجت كل ما في نفسه..

=كفى! كفى أيها الوغد الحقير! اغرب عن وجهي الآن!

-سأغرب على أية حال، كما ستغرب شمسك للأبد الآن!

=هيا.. هيا بسرعة.. أريد أن أخرج سريعًا من هذا العالم البائس!

يومئ الشيخ برأسه..

-العالم البائس.. نعم.. ألا يذكرك هذا المصطلح بشيء؟ نعم.. عُد بذاكرتك إلى الوراء.. عُدنا من حيث بدأنا.. عُدنا إلى (عمر صالح).. لقد كان يؤمن أيضًا أن هذا العالم بائس للغاية.. كان يؤمن بذلك بشدة.. ولكن ماذا فعل بحق لتغيير ذلك؟ فقط ظل مبتئسًا.. وأدى ذلك إلى أن يفقد كل شيء.. العالم بائس.. نعم..حجة كل من فشل في تحمل الحياة كما هي بكل

ما فيها.. العالم بائس.. نعم.. ولكن ماذا عن عالمك أنت؟ ماذا عن حياتك أنت؟ ماذا عنك وعن كل من حولك؟

يقول (أكمل) في سخرية مريرة وعين دامعة:

=من حولي؟ وأين هم من حولي؟ كلهم ذهبوا.. لم يبق لي أحد!

-أنتَ من فعلتَ ذلك بنفسك.. أنتَ من أبعدتَهم بأفعالك.. حتى لم يُعد لك غير زوجتك فقط.. وها هي ذهبت.. لذلك لم يَبقَ لك أحد!

=كفاااك! أرجوك كفاك!

يهز الشيخ رأسه آسفًا..يقول:

-عادَيتَ الرأسمالية بشدة ثم تماهيت معها بشدة.. حاربت الثقافة الاستهلاكية بشراسة ثم صرت جندًا من جنودها واندمجت فيها بتوحش.. لقد تحولت إلى النقيض في كل شيء.. ضغطت على نفسك بشدة وحملتها ما لا تحتمل فانفجرت!

=ثم؟ ماذا تريد مني الآن؟

-لقد أخبرتك..لن أتركك إلا في سوادِ حالك..نقي تمامًا.. هيا.. مُت.. مُت أيها التعس! واترك العالم (البائس) كماً تطلقَ عليه لرجال يتحملونه!

وانسحب الشيخ واختفى شيئًا فشيئًا..

ثم يبكي (أكمل)، يبكي وينتحب..

في مرة من المرات شديدة الندرة التي يبكي فيها..

هل يتراجع عن الانتحار؟

هل يغير رأيه؟

هل هناك في الحياة ما يستحق؟

يتردد قليلًا.

لا!

لا!

لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه..

ليس هناك ما أحيا من أجله!

يمسك بالقلم ليكتب خطابه الأخير

أنا أكمل فريد، أو عمر صالح..

أتحدث للمرة الأخيرة..

لقد عشت طوال عمري في قلق..

أنا (أكمل فريد) أحدثكم للمرة الأخيرة..

لأقول كلمة أخيرة..

كلمة الوداع..

سأترك عالمًا لم أدر لماذا عشت فيه..

سأترك عالمًا مليء بالصراعات والضغط والأمراض النفسية...

بعد التصرفات غير الأخلاقية، والرشاوي، وكل ذلك..

ماذا تبقى لي؟

أنا الآن في الرابعة والأربعين من عمري.. ماذا قدمت؟ ماذا تركت؟

لا شيء.. الحقيقة التي أنكرتها كثيرًا هي أنني لا شيء..!

الوداع لأنني لم أجد أي جديد في الحياة..

فعلت كل شيء أريده.. وكل ما تمنيته.. ثم ماذا بعد؟

الحقيقة هي أنني لم أعد أتحمل هذا الصراع السرمدي ثانية..

لم أعُد أدري، هل (عمر) هو نسختي الماضية بالفعل، أم هو النسخة التي تمنيت أن أكون عليها؟

لا أدري، اختلطت المشاعر بالذكريات الحقيقة بالأمنيات والرغبات، اختلط عقلي الباطن بالواعي، فلم أعد أدري ما هو حقيقي وما هو مجرد أمنية!

لقد وجدت أن الأيام تمر لتكتشف أنك تتحول بالفعل إلى الشخص الذي ظللت طوال حياتك ترفضه!

تمر السنوات، لتكتشف أنك نسخة أخرى..

نسخة ممسوخة، مُشوهة، لا تدري كيف وصلت إليها بالتحديد!

هل شكلتها عوامل الزمن، أم الدنيا، أم نفسك التي تميل كل الميل مع كل حدث ليغيرها ويبدلها؟

لقد صار الإنسان مُستَلَبًا.. مغتربًا عن ذاته وعن الآخرين..

لقد أُقحم الإنسان رغمًا عنه في سباق محموم..

أقحم في عالم لا يرحم، عالم سلبه بصره وبصيرته فصار كالأعمى يركض

وراء الوهم..

جرده من عقله ومن ذاته، موجهًا إياه نحو العدمية..

فصار مُحملًا بخيبة أمل أزلية لأنه لن يصل مُطلقًا إلى الإشباع الكامل..

نلهث وراء أشياء غير ضرورية لحياتنا على الإطلاق..

نلهث وراءها لا لنعيش، بل لنكون كالآخرين، لنقاوم الشعور بالدونية ولنسعى للشعور الوهمي بالتفوق..

نلهث لننتمي ل(نخبة المجتمع) الوهمية..

ونظل نجمع الأموال لتحصيل المتعة الدائمة ولضمان الرفاهية المستمرة..

فنصاب بالقلق المُزمن الذي يؤدي للاكتئاب..

يتوهم الإنسان أنه حر..

ولكنه في الحقيقة مُثقل بالأغلال، مسلوب الإرادة..

يسير مُقيدًا كالعبيد، يُضرب بسياط غير مرئية لتدفعه دفعًا للمضي في المسار المرسوم له دون مقاومة..

مسار الاستهلاك، والترفيه، والمتعة، والعمل المؤسسي، والتطوير الوهمي للمهارات، ووعود لا نهائية بحياة أفضل لا نصل إليها قط!

يموت الإنسان قبل أن يحيا..

قبل أن يجيب عن سؤال الوجود..

لماذا وُجد في هذه الدنيا وما الذي كان من المفترض عليه أن يفعله؟

لذلك ها أنا أموت.. سأترك هذه الدنيا.. سأتركها لأنني فشلت في معرفة

هويتي.. فشلت في الوصول لماهية وجودي فيها..

فشلت في الوصول للغاية.. سأتركها لأنني لست شجاعًا بما يكفي لأكمل رحلة البحث عن ذاتي..

لست شجاعًا بما يكفي لخوض المعارك مرة أخرى..

انتهى كل شيء..

الوداع!

قام بثني الخطاب ووضعه في ظرف، وكتب على الظرف:

الخطاب الأخير ل(أكمل فريد / عمر صالح)

ووضع الظرف على مكتبه..

يفكر وهو يمسك بالسم..

بعد أن امتلك الشركة .. شعر أنه فقد كل شيء..

حتى ذلك لم يلحق بالاستمتاع به.. امتلكها ولكنه لم يستفد شيئًا بعد..

يتذكر (نهى) و(كاترينا) و(هديل)..

كانت (نهى) فتاة محجبة ذات جمال هادئ

أحب (عمر) (نهى) لهدوئها وبراءتها ورقتها وخجلها وشعوره بأنها لا زالت تحتفظ بسلامة فطرتها وسط كل هذا الانتكاس في الفطرة الإنسانية السوية الذي نعيشه..

(كاترينا) كانت بريئة أيضًا وجميلة، ولكنه عرفها في ظروف غير مناسبة على الإطلاق، كما أنها من ثقافة أخرى تمامًا..

(كاترينا) البائسة التي انتحرت وكان هو أحد أسباب انتحارها..

(هديل كانت) ذات جمال ثائر، ذات شعر أصفر مُجعد ثائر..

وكانت بعيدة عن البراءة أيما بعد..

ولكنه أحبها لاختلافها وجذبه صخبها وجرأتها...

كانت نرجسية بشدة.. ربما هي أيضًا مُصابة بالبارانويا..

هي التي كانت تحيا حياة عابثة.. غير عابئة بشيء..

هي التي جعلته يكتشف، أن من يحيا لنفسه فقط، فهو يحيا للا شيء..

يحيا حياة فارغة..

حياة تافهة..

حياة تالفة..!

يتذكر (تارا) و(ريان)

الطفلين التعيسين اللذين لم يكن لهما ذنب في أي شيء.. وذهبا ضحية أمهما...

يتذكر نفسه.. يتذكر (عمر صالح).. الأصلي، الحقيقي غير الزائف..

يتحسر على أشياء ذهبت للأبد ولن تعود أبدًا...

يتذكر الهم الذي حمله أكثر من اللازم فانقلب إلى الضد..

يتذكر أباه وأمه.. وجحوده معهما..

يتذكر أخاه الذي كاد ينساه..

أخاه! سيمتلك الشركة! نعم، لم يعد هناك ورثة غيره! يا له من محظوظ! سيستلم الشركة على الجاهز!! لم يتعب في أي شيء!

حسنًا.. ربما هذا تعويض عما فعله معه..

وأي تعويض!

يحيا حياة عادية للغاية ثم يتفاجأ بـأنه يملك شركة استثمار عقاري!

لا بأس..

لا يهم.. كل ذلك لا يهم.. الحياة كلها لا تهم.. سيموت الآن..

سيموت وهو لم يدرك بعد ما الحقيقي وما الزائف..

الآن هو مقتنع أن رصيده من الحياة قد نفد.

ونصيبه قد استهلكه حتى آخر قطرة!

الوداع أيها العالم البائس!

يمسك بالسم..

ينظر إليه مليًا..

ثم يتجرعه دُفعة واحدة..

لينتهي (أكمل) أو (عمر).. أو (لا أحد)..

تنتهي حياته تمامًا..!

***

"كلنا سجناء..لا يمكن أن تزداد الأمور سوءًا..

أنت تعلم أن نهايتك قريبة!

كان عليك الحصول على كل شيء!

حسنًا هل اكتفيت مما جمعته؟

أيها الوغد الصغير الجشع!

سوف تحصل على ما تستحقه!

عندما يُقال ويُفعل كل ما يُمكن قوله وفعله..

سوف أكون الشخص المختار

الذي سوف يتركك في بؤسك

وتكره ما أصبحت عليه

عيون بائسة

لم تعد تعيش تلك الحياة

يجب أن تكون قد تعلمت الآن

سأحرق هذا العالم كله

فأنا بحاجة إلى بعض راحة البال..

لا خوف مما سيأتي بعد ذلك..

تعتقد أنك ربحت هذه المعركة؟

أنت فقط فقدت عقلك تمامًا!"

من أغنية Had Enough لفريق Breaking Benjamin

***

فجأة يستيقظ (أكمل)..

يبدأ شيئًا فشيئًا في الاستيعاب.. من هو.. أين هو.. وماذا يفعل.. و..

لحظة! ألم ينتحر؟!

نعم! لقد تجرع السم كاملًا! ما الذي حدث؟ هذا ليس الموت بالتأكيد! بعد الموت لا يستيقظ المرء في غرفة كهذه و..

مستشفى؟ نعم.. بدأ في الإدراك.. هو في مستشفى بالفعل! وهناك بعض المحاليل المتصلة به عن طريق ال(كانيولا)..

لم يمُت إذًا! كيف ذلك؟

"لقد أفاق!"

قالتها الممرضة التي لم يكن قد لحظ وجودها بعد، وانطلقت بسرعة خارج الغرفة ليأتي الطبيب ويقوم ببعض الفحوصات ويكتب شيئًا ما في تقريره، ثم يتفاجأ (أكمل) بدخول أمه وأخيه للغرفة..

أمي!

تذهب إليه أمه مسرعة بقدر استطاعتها وتمسك برأسه وتقبلها وتقول:

-حمدًا لله على سلامتك يا بُني.. حمدًا لله على سلامتك

ويربت أخوه على كتفه ليقول:

=حمدًا لله على سلامتك.. يا (عمر)..

تدمع عينا (أكمل)، ويبدأ في التنفس بشكل طبيعي والإدراك الكامل..

ويتساءل: ما الذي حدث؟

ليجيبه أخوه (علي):

-إنها أمك.. أصرت بشدة وألحت علي ألا نتركك في هذه الظروف وفي حالتك هذه مهما حدث، وبغض النظر عن كل ما فعلته معنا.. أتينا لزيارتك، لم يرد علينا أحد، ولم نجد أحدًا على الإطلاق، لا الحارس ولا الخادمة، اتصلنا بك ولم ترد.. فشعرت أمي بالقلق بشدة، فأصرت ألا ننصرف وقمت بعدة محاولات لكسر الباب، حتى وجدت نافذة مفتوحة قليلًا في الدور الأرضي، من الواضح أنها منسية، فوثبت منها كاللصوص وقمت بفتح الباب من الداخل لتدخل أمي.. بحثنا عنك حتى وجدناك في غرفة المكتب منكفئًا على وجهك فهتفت أمك بإسمك وحاولنا إفاقتك ولكنك كنت مغشيًا عليك تمامًا ولكن لا زلت حيًا.. وجدت زجاجة السم فارغة بجوارك ففهمت على الفور ولا أعلم كيف وجدت نفسي أُحملك وأنقلك في السيارة إلى المستشفى بسرعة البرق.. ليجد الأطباء أنك أُصبتَ بتسمم شديد وحمدًا لله أنهم استطاعوا إنقاذك في اللحظات الأخيرة وحمدًا لله أن من باع لك السم معدوم الضمير!

وبكت أمه بشدة وهي تقول:

-أتنتحر يا بُني! ألهذه الدرجة يئست من رحمة الله!

لم يجد (أكمل) - أو (عمر) - ما يقوله، ونزلت الدموع ساخنة من عينيه في صمت مشيحًا بوجهه عن أمه..

كان لا يصدق الفرصة التي أتيحت له مرة أخرى..

لقد كان قاب قوسين أو أدنى من الموت ولكن كُتبت له الحياة..

حياة جديدة..

وبديلة..

***

"أحمق! أحمق وبائس كما عهدتك!"

نظر (أكمل) إلى صاحب الصوت وهو راقد على سرير المستشفى، ليجد المفاجأة..

(ياسر)، صديقه القديم، على باب الحجرة وهو يمسك بعلبة من الشيكولاتة الفاخرة..

-ياسر! يا إلهي!

=نعم، ياسر، ياسر صديقك يا أحمق.. كنت على وشك أن تكون أحمق منتحرًا أيها البائس!

ضحك (أكمل)، ضحكة لم يضحكها منذ زمان بعيد، وهو يقول:

-حمدًا لله على سلامتك يا صديقي، وشكرًا لعودتك.

=سلامتي أنا؟ وأحول أيضًا؟ أنت الذي يقال له حمدًا لله على سلامتك وليس أنا..

وضحك الاثنان..

وجلس (ياسر)، ليتحدث الاثنان كثيرًا..

حديث افتقده (أكمل)..

بشدة!

وبينما (ياسر) جالس، يدخل عليهما شيخٌ مُتعكزٌ..

تتسع عينا (أكمل) وهو يقول:

-سيد (جلال).

يبتسم الشيخ في هدوء، وهو يقول:

=نعم يا (عمر).. ولن أقول لك إلا (عمر)..

يومئ (أكمل) برأسه وهو يقول:

-كما تشاء يا سيد (جلال).. أشكرك بشدة على زيارتك..

=لا شكر على واجب يا بُني.. افتقدتك كثيرًا.. وبمجرد علمي بما حدث جئتُ لأزورك وأعاتبك..

يطرق (أكمل) برأسه..

يقول (جلال):

-مهما حدث لك يا بُني لا تيأس من رحمة ربك.. لو كنتَ (عمر) الذي أعرفه لما أقدمتَ على ذلك أبدًا ولما فكرت فيه أصلًا.. مهما فعلت بك الدنيا فلك ربٌ تلجأ له.. لا تنس يا (عمر)..

يومئ (أكمل) برأسه..

يقول:

=أنتَ على حق يا سيد (جلال)... لم أكن في وعيي.. ونسيتُ نفسي ونسيتُ كل شيء.. حمدًا لله أن أعادني للحياة وأعطاني فرصةً أخرى..

يبتسم (جلال) في هدوئه المعتاد.. يقول:

-جميل يا (عمر).. جميل أنِ وصلتَ لهذه النتيجة.. أستأذنك الآن في الانصراف.. فقد اطمأننتُ عليكَ..

يتابع (ياسر) الحديث في هدوء وراحة..

يقول:

-- بارك الله فيك يا سيد (جلال).

يبتسم الرجل ويسلم عليهما وينصرف..

وانصرف (ياسر) بعد حوالي ساعة من مجيئه.. سعى فيها (ياسر) ليصبّر (أكمل) ويهوّن عليه..

ونجح إلى حد لا بأس به وساعده (جلال) في ذلك بحضوره القصير..

وبعد قليل..

يجد (أكمل) على باب غرفته امرأة تخفي وجهها بباقة ورد مُبهرة، وتدخل على استحياء..

تزيل الباقة ليظهر وجهها الجميل..

(غادة الليثي)..

تتسع عينا (أكمل) ويخفق قلبه..

وكان هذا إيذانًا بعهده الجديد..

عهد ربما ينسى فيه الكثير!

***

كان حفل زفاف رائعًا، في فيلا (أكمل)..

حفل زواج (أكمل فريد) ب(غادة الليثي)..

وكانت أم (أكمل) سعيدة هذه المرة..

سعيدة لأنها تشعر أن ابنها بدأ يعود..

ربما لن يعود إلى سابق عهده، ولكن لعلّه يفيق بعض الشيء..

ويستعيد حتى جزءًا من نفسه..

من روحه..

وكانت (غادة) لا تستطيع تمالك نفسها من السعادة..

فقد ظفرت بحب عمرها أخيرًا.. الذي انتظرته طويلًا...

فمعه ستبني حياة جديدة..

وأيضًا معه ستحافظ معه على صرح الشركة العملاق..

و(أكمل) أيضًا شعر أنه كاد يطير..

فبعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الموت..

كُتبت له حياة جديدة، ربما أفضل من حياته السابقة بكثير..

حياة من الأمل..

***

مارس ٢٠١٢..

فارسكور، دمياط (بلد عمر الأصلي)..

يجلس (عمر) مادًا قدميه بأرض زراعية كبيرة بجوار النيل مباشرة،

بالقرب من كوبري (فارسكور)..

تتلألأ مياه النيل الصافية، وتهتز الحشائش الندية برياح خفيفة، في لوحة طبيعية جميلة، من صنع الله سبحانه وتعالى..

يفكر.. ويتأمل..

ما الذي وصل به إلى هذه الحال؟!

لماذا هو هكذا دائماً.. مُكدر صفوه... مُعكر مزاجه؟!

أحمق!

نعم، لقد وصل إلى هذه الحال التي هو عليها لأنه أحمق، سعى إلى المعرفة! والمعرفة لا تؤدي إلا إلى الابتئاس والسواد!

لقد كان في السابق أحمقًا لأنه لا يعرف شيئًا عما يدور حوله..

وهو أحمق أيضًا لأنه سعى إلى معرفته..

وسيكون أحمقًا عندما يدرك أن كل ما سعى إلى معرفته لن يغني عنه شيئًا ولن يقدم أو يؤخر لأن الوضع القائم أمر واقع سيظل على ما هو عليه..!

وسيكون أحمقًا، لأنه سيدرك أن ما يعرفه نقطة مياه في بحر، وأنه لا يعرف شيئًا من الأساس..!

لماذا لا يبتعد؟

يبتعد عن كل ما يكدره؟!

لن يستطيع!

لأن ما يكدره ليس شيئًا ماديًا ملموسًا.. هو سرطان منتشر يلاحقه في

كل مكان..

ويحيط بجميع الناس وأكثرهم لا يعلمون ولا يشعرون!!

ولم يعد يُجدي معه استئصال..!

لا أمل إذًا؟ لا يدري.. ربما ليس هناك أمل بالفعل.. ربما صار كل ذلك أمرًا واقعًا غير قابل للتغير بالفعل..

ولكنه لن يستطيع قبوله والتعايش معه قط..!

حتى وإن اندمج معه يومًا ما..

سيظل جزء بداخله يرفضه..

سيظل مصباحه الأحمر يضيء منبهًا ومحذرًا بأن هذه ليست الحال التي يجب أن تكون الأمور عليها...

هذا العالم، أصبح مكانًا بائسًا، تعيسًا، لا يُحتمل..! الإنسانية تُسحق، وقيمها تُدمر، والمادية النفعية تتحكم وتسيطر وتتغلغل في كل شيء..

ما هو العالم الخارجي؟ وأين هو؟ ما الذي يحدث بالتحديد خارج هذه الدوامة الأبدية؟ ما الذي يحدث خارج العالم المادي النفعي الاستهلاكي السرمدي؟

ما الذي يحدث خارج منظومة العمل البائسة؟ وما هي الحياة الحقيقة؟ الحياة خارج (عالم النظام).. خارج الإطار.. وما الذي من المفترض أن نفعله بالتحديد لنشعر أننا بشر.. لنشعر بإنسانيتنا وبكياننا.. لنشعر أننا لسنا آلات..!!

ما هي الحياة الحقيقة؟ وما هي الحقيقة وما هو الوهم؟

هل ما نحياه هو الحقيقة؟

الحياة حقيقة لا شك.. ولكن ما نحياه نفسه.. ما هي ماهيته بالتحديد؟!

هل نحن أحرار؟

عمل..

عمل، وعمل، فعمل، ثم عمل..

ثم استهلاك واستهلاك واستهلاك..

كل شيء عمل! والعمل كل شيء!

هو يدرك تمامًا أهمية العمل، وأنه لا يمكن الحياة بدونه، ولكن لماذا صار هو كل شيء، وصار كل شيء في الحياة يتمحور حوله؟

ما الذي أدى إلى ذلك؟

هذا السؤال يؤرقه..يؤرقه كثيرًا وأرهقه ذهنيًا ونفسيًا وبدنيًا..

أنهكه بحق..!

فقط صارت الحياة أصعب ..صارت أكثر جدية من الماضي..أكثر سرعة.. نحن نلهث وراء الأحداث ..حتى أنك إن أردت بعض الترفيه ستشعر أنك تسرق، ستشعر أنك لا تريد أن يعرف أحد أنك ترفه عن نفسك، لأن هذا ليس وقته..متى وقته إذًا؟ لا تدري.. قد لا تعلم ما الذي من المفترض أن تفعله بالضبط...لكنك تشعر أنك يجب أن تكون جاداً فقط....عملياً فقط.. يجب أن تحارب، تحارب ماذا؟ ولماذا؟ أنت لا تعلم..

فقط تحاول خداع نفسك أنك بحال جيدة و تعلم ما تفعله جيدًا..

تذهب إلى عملك..ترجع لتتابع الأخبار وتسخط على الناس و الحياة و تسبهم جميعًا و تتهمهم بأنهم لا يفقهون شيئًا و أنك الوحيد الذي تعلم و تفهم كل شئ، يجب أن يروك دائماً بحالة سيئة فعلًا، تأكد ألا يروك سعيدًا أو مرفهًا عن نفسك... ثم تنام بخدعة أنك راضٍ عن نفسك.

يقذف (عمر) طوبة صغيرة في النيل.. تصنع زوبعة صغيرة..

ثم عادت المياه كما هي..

هكذا هي أي محاولة تغيير في هذا العالم..

أي محاولة لإحداث أي جديد..

زوبعة صغيرة، ثم تعود كل الأمور كما هي..

هل من أمل هناك، في أن تستمر الزوبعة فترة أطول، بحيث ينتبه لها الناس؟

هل من أمل في أن يستمر الناس في إلقاء الحجارة وتكثر الزوبعات لتصنع التوتر الكاف وتُكوِّن الزوبعات دوامة كبيرة تبتلع كل ما في هذا العالم من بؤس؟

يسأل نفسه..

ويفكر..

تُرى.. هل يستمر في حربه ضد أفكار العالم الحديث البائس؟

هل يثبت على مبادئه؟ أم هل يصيبه الملل ويستسلم؟

هل يترك تيار العالم الحديث ليجرفه مع من جرفهم، أم هل يتمسك بشدة بأفكاره؟

هل ستبتلعه الرأسمالية كما ابتلعت الكثيرين؟

هل ستلتهمه الحداثة؟

هل سوف يحدث أي تغيير.. أم سيبقى العالم، وسيبقى هو على ما هو عليه..

حتى إشعار آخر؟!

تمّت بحمد الله